

تأليف

فوزي محمد حميد




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

عالم الأديان

بين

الأسطورة والحقيقة




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا

إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ

الطبعة الثانيـة

1428 من ميلاد الرسول محمد ﷺ

1999 بالتقويم الافرنجي

منشورات

جمعية الدعوة الاسلامية العالمية

هاتف 4800730 - 4800294 - بريد مصور 4800293 ص . ب 2662

طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى


بسم الله الرحمن الرحيم

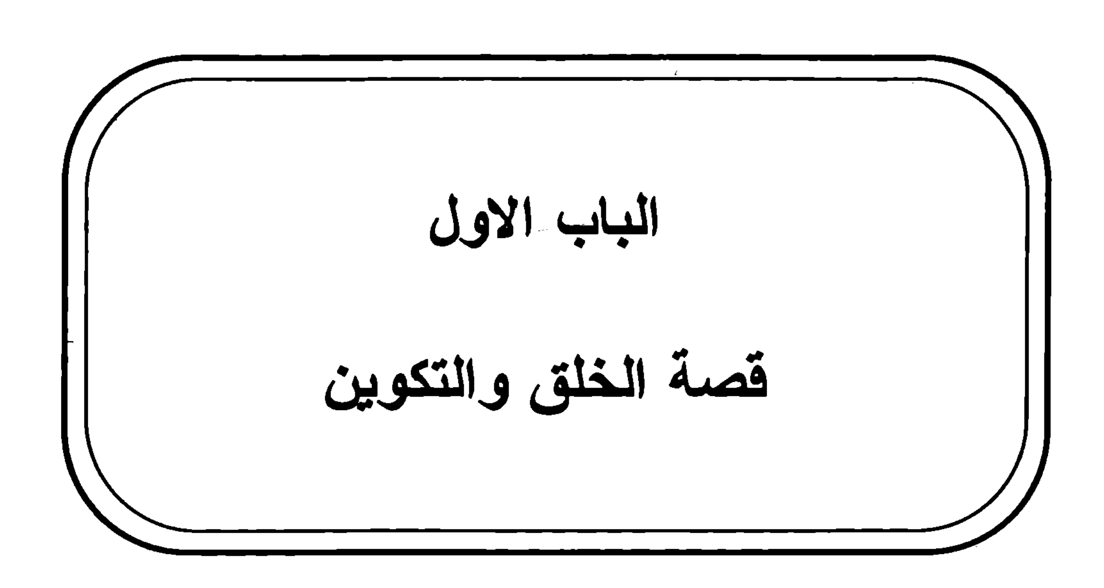
بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

لكل جماعة بشرية أياً كانت درجتها الفكرية، وأوضاعها الحضارية، عقيدة تنتهجها، أو مبدأ تسلكه، أو دين تلتزم به وتخلص له، ولهذا بدأ بنو البشر على اختلاف مِلَلهم وَنِحَلِهم يبحثون عن آلهة تحميهم وتقيهم شر المخاطر، وتجلب لهم المنافع، وتدفع عنهم الويْلات، يلجأون إليها عند الشدائد والمحن، يكرمونها فتكرمهم، يقدّمون لها القرابين والضحايا فتقدّم لهم الخير، وتفيضُ عليهم البركات، فالمنفعة متبادلة بين الآلهة وعبادها، ولذلك تعدّدت بتعدُّد الأهداف والغايات المرجوة منها، وارتبطت بدرجة التطور الفكري والرقي الحضاري عند الأجيال البشرية المتتابعة.. فقد سادت حضارات زاهرة، ثمّ اندثرت وبادت، كان لها تُراثُها وحكاياتها وأقاصيصها المقبولة في أفكارها، المنطقية في أحداثها حينذاك ثم تحولت مع الزمن إلى أساطير تنظر إليها الأجيال المتعاقبة بالاستخفاف تارة، وبالخيالات المشحونة بالخوف من المجهول تارة ثانية، وبالرغبة في ادّعاء المعرفة بأسرار الكون وخفايا الأمور والاطلاع على الغيب تارة ثالثة.. حتى صارت هذه الأساطير تُعدُّ رسالة الأجداد للحفداء بكل ما تحتويه من أفكار أو وصايا أو حكايات، تناقلتها الأجيال لتبقى شاهداً حيّاً يرويها الخلف عن السلف مشكّلة جزءاً من تراث شعوبها وحضارتهم، وأصبح لكل شعب أو أمة أو ملّةٍ تُراثُها الخاص وحكاياتها وأمثالها وأقاصيصها وأساطيرها الشعبية الخاصة، تفسرها من خلال رُؤىً معينة، ومفاهيم وأفكار ذاتية.

الواحد، وتفرقت بها السبل، وحل بها العداء، وأصبحت حرباً على بعضها، وتمزقت، لخلاف في التفسير، أو لاجتهاد في التأويل، أو لضعف في الروحانيات والمعتقدات، إلى أن تحولت الخلافات إلى مذابح وفتن، وحروب أهلية، وليس أشد هولاً من خلافات العقائد والأديان، التي إن عصفت بأمة أهلكتها. فما أشد ما حصل للنصرانية على أيدي اليهود، وما حل بين السيخ والهندوس.. وتصارعت كل شعوب الأرض بسبب أفكارها ومعتقداتها وأخطر هذه الصراعات الخلافات المذهبية. فقد افترقت المجوسية إلى سبعين فرقة، واليهودية إلى إحدى وسبعين فرقة، والنصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة، والمسلمون إلى ثلاث وسبعين فرقة. قال رسول الله: ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، والناجية منها واحدة، والباقون هلكى. قيل ومن الناجية؟ قال: أهل السنة والجماعة، قيل: وما السنة والجماعة؟ قال: ما أنا عليه اليوم، وأصحابي». وقال كذلك: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق إلى يوم القيامة»....

نسأل الله الملك الحق المبين أن يجنبنا ما يهلكنا،
وأن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا،
وأن يلهمنا رشدنا، وأن يهيّىء لنا من أمرنا رَشَداً
وأن يسددَ خُطانا، وأن يهدينا سبلنا،
وأن يحسن ختامنا وأن يردّنا إلى ديننا
رداً جميلاً،
إنه سميع مجيب.



الباب الاول

قصة الخلق والتكوين

عبادة الله وحده، فمنهم من كذَّب وكفر، ومنهم من ادّعىٰ وفجر، ومنهم من قتل الأنبياء وغدر، فأهلكهم الله بذنوبهم وكان مصيرهم الدمار والإبادة لضلالهم وجهلهم وكفرهم بالله ورسله، والاستخفاف بهم، كقوم نوح وعاد وثمود وصالح وغيرهم من الشعوب الهالكة، الذين أصبحوا عبرة لمن يعتبر على مر الدهور والعصور لكل من أعرض وكفر. قال تعالى: **﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتُكم صاعقةً مثل صاعقة عاد وثمود﴾**[1]. وقال كذلك: **﴿وإنْ من أمة إلاّ خلا فيها نذير﴾**[2]. وقال أيضاً: **﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾**[3].

فالحدود الدينية والأحكام الشرعية بين البشرية ابتدأت منذ عهد آدم وشيث وإدريس عليهم السلام، فقد خص الله آدم بالأسماء كلها، وخص نوحاً بمعاني تلك الأسماء، وخص إبراهيم بالجمع بينهما، وخص موسى بالتنزيل، وخص عيسى بالتأويل، وخص محمداً بالجمع بينهما على ملّة إبراهيم، عليهم السلام جميعاً.

هكذا كانت تعاليم الله عز وجل لرسوله الكريم محمد ﷺ حين قال: **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه، أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾**[4] فجميع الرسل مبلّغون الدعوة إلى وحدانية الله وعبادته من دون العالمين، حيث قال: **﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾**[5]. فقد ظهر الأنبياء والرسل الذين دعوا إلى عبادة الإله الواحد الأحد. كما ظهر بعض الفلاسفة والحكماء الذين حولوا أفكارهم إلى معتقدات روحية، أمثال بوذا وكونفوشيوس، بينما اعتقد الفرس أن زرادشت أُرسِل نبياً لهدايتهم، وكتابهم

---

(1) سورة فصلت، آ-: 13.

(2) سورة فاطر، آ-: 24.

(3) سورة الشورى، آ-: 13

(4) سورة الأنبياء، آ-: 25.

(5) سورة البقرة، آ-: 163.

المقدس هو «الأوفيستا». يقول ابن عباس: «إن أهل فارس لما مات نبيهم كتب لهم إبليس المجوسية».

ومن البديهي أن أمماً كثيرة بعددها كهذه الأمم لن يتركها الله بلا هداية وبلا رسالة وبالتالي من غير حساب. قال تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان، وآتينا داوود زبوراً، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك، وكلّم الله موسى تكليماً، رسلاً مبشّرين ومُنذِرين، لئلّا يكون للناس على الله حُجَّة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾[1].

وكان من أبرز الأنبياء وأكثرهم فعالية ووضوحاً إبراهيم الخليل عليه السلام في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، فكان رمز الدين الحنيف القائم على وحدانية الله والإيمان بثوابه وعقابه ونبذ الأصنام والأوثان. كما جاء موسى عليه السلام برسالته السماوية في القرن السادس عشر قبل الميلاد، الذي دعا إلى عبادة إله واحد. تقول التوراة: «اسمع يا إسرائيل، الربّ إلٰهُنا ربٌّ واحد»[2] وجاء في القرآن الكريم: ﴿وآتينا موسى الكتابَ وجعلناه هدى لبني إسرائيل، ألا تتخذوا من دوني وكيلاً﴾[3]. كما جاء عيسى عليه السلام ليكمل شرعه داعياً إلى ما دعا إليه أسلافه من الأنبياء والمرسلين. جاء في إنجيل مرقس: (الله واحد، وليس آخَرُ سواه)[4]. وفي إنجيل لوقا: (للرب إلٰهك تسجد، وإياه وحده تعبد)[5].

ثم جاءت رسالة الحق والهداية التي أخرجت الناس من الظلمات إلى النور، يبشر بها محمد خاتم الأنبياء والرسل، الذي جاء مصدقاً لما قبله من رسالات التوحيد، وقد ختمت الشرائع والمناهج الإلٰهية، بأكملها وأتمها،

---

(1) سورة النساء، آ ـ : 163.
(2) سفر التثنية: 6-4.
(3) سورة الإسراء، آ ـ : 2.
(4) إنجيل مرقص، آ ـ : 2-32.
(5) إنجيل لوقا، آية: 4-8

الفصل الاول

خلق الكون

1 ـ تمهيـــد:

لقد كانت مسألة بدء الكون والحياة وظهور الإنسان وخلقه من أدق المسائل التي تناولها العقل البشري، فكثُرت الأقوال والأساطير بكثرة الشعوب والأمم، فلكل أمّةٍ أسطورة أو مجموعة أساطير ولكل شعب حكاية أو مجموعة حكايات في قضية الخلق والتكوين والبدايات. قال تعالى: ﴿**الله خالقُ كل شيء، وهو على كل شيء وكيل**﴾[1]، هذا قول فصل منزّل في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فلا ريب فيه ولا شك، فالإيمان مطلق بأن قوّة عُليا خفيّة تسيطر على كل الأشياء من أصغرها إلى أكبرها، ومن الذرّة إلى المجرّة..

ولكن كيف تمّ ذلك الخلق؟ وكيف تشكل ذلك الكون؟ وما رأي الأمم في ذلك قبل نزول القرآن؟.

لقد اختلفت الآراء والنظريات بين الأساطير الخيالية والأفكار العلمية الحديثة فالكتب المقدسة تقول بخلق السموات والأرض في ستة أيـام.. والفرضيات العلمية والمكتشفات الحديثة تقدر عمر الكون بمليارات السنين.. وما أكثر الأساطير التي قيلت في هذا المجال مدعمة بأفكار خيالية، ربما تكون

---

(1) سورة الزمر، آ ـ: 62.

قريبة من العقل لما تعتمد عليه من نظريات وضعت لتفسير وتعليل مسألة التكوين هذه وكشف حقيقة البدايات الكونية.

ومهما يكن من أمر فأساطير الأولين تراجعت أمام حقائق العلم الحديث وأصبحت لا تتعدّى مجرد حكاية للتسلية أو حديث للاستغراب، وحلت النظريات العلمية محل الأسطورة والخيال.. وسنستعرض أفكار بعض الشعوب القديمة وفرضياتها بشأن قصة الخلق والتكوين..

2 ـ قصة التكوين في بلاد الرافدين وسورية:

(أ) عند السومريين:

تعد أفكار السومريين في هذا المجال ناضجة ومتقدمة، تنمّ عن بداية حضارة إنسانية زاهرة.. فقد نضجت الثقافة السومرية من احتكاكهم مع سكان جنوب بلاد الرافدين وما حولها.. ولا توجد أسطورة سومرية متكاملة في قضية الخلق والتكوين، ولكن النصوص المتفرقة التي عثر عليها تكاد تعطي صورة واضحة عن أفكارهم بهذا الشأن، ومن دراسة هذه النصوص الأسطورية المتفرقة تتبين لنا الأسطورة الكاملة لعملية خلق العالم والأكوان. تقول الأسطورة: «في البدء كانت الآلهة «نمو» وهي المياه الأولى التي انبثق عنها كل شيء، وحيدة لا شريك لها، ثم أنجبت ولداً هو «آن Anu» إله السماء، وأنجبت بنتاً هي «إنكي Enki» إلٰهة الأرض، وكانا ملتصقين مع بعضهما وغير منفصلين عن أمهما حتى تزوج «آن من إنكي» وأنجبا بكرهما «إنليل Enlil» إله الهواء الذي كان محصوراً بينهما في حيّز ضيق لا يسمح له بالحركة، لم يطق إنليل ذلك السجن القاهر فقام بقوته الخارقة بإبعاد أبيه عن أمّه فرفع الأول وصار سماء وبسط الثانية فصارت أرضاً وصار يرتع بينهما حراً طليقاً. حتى أنجب ابنه «نانا» إله القمر الذي أنار الأرض بعد أن مزّق الظلام الدامس الذي كان يعيش فيه، ثم أنجب «نانا» الإلٰه «أوتو» إله الشمس، وبعد أن أُبعدت السماء عن الأرض وبزغ ضوء القمر ونور الشمس قام إنليل مع بقية الآلهة بخلق مظاهر الحياة الأخرى..

إن هذا التسلسل الأسطوري من الوجهة العلمية يعني مجموعة ملاحظات

وقواعد جديرة بالاهتمام هي:

1 ـ لم يكن في البدء موجوداً سوى المياه الأولى التي صدر عنها كل شيء، وكل حياة..

2 ـ ظهور كتلة يابسة على شكل جبل قبته السماء وقاعدته الأرض ومن لقاء القبة بالقاعدة ظهر الهواء وهو العنصر المادي الثالث بعد الماء والتراب..

3 ـ من صفات الهواء التمدد، وبتمدّده أبعدَ السماء عن الأرض.

4 ـ عُدَّ القمر ابناً للهواء، وربما يكون من العنصر الهوائي نفسه.

5 ـ عُدَّت الشمس ابنة القمر، وقد فاقت أباها قوّة، وخلفته على عرش السماء فيما بعد.

6 ـ بدأت الحياة بالظهور بعد أن انفصلت السماء عن الأرض وغمرت الشمس وجه الكون بأشعتها الدافئة فظهرت النباتات، ثم الحيوانات، ثم ظهر الإنسان..

وحسب الفرضيات العلمية الحديثة يمكن أن نعُدَّ الهواء الغازي هو الكتلة السديمية التي هي أصل الكواكب السيارة في المجموعة الشمسية..

وهذا مطلع إحدى أساطير السومريين في كيفية فصل السماء عن الأرض:

«إن الإله الذي أخرج كل شيء نافع.
الإله الذي لا مبدل لكلماته.
إنليل الذي أنبت الحَبَّ والمرعى.
أبعد السماء عن الأرض،
وأبعد الأرض عن السماء..».

(ب) عند البابليين:

بسط البابليون نفوذهم على جيرانهم السومريين في بلاد الرافدين

لقد كان الصراع الجسدي يدور بين إلٰهٍ وآخر فينتصر واحد وينهزم واحد، ويحتفل باقي الآلٰهة بالإلٰه المنتصر على أنه أكبرهم وأعظمهم.. فما هي هذه الآلهة التي تعظم آلهة أخرى غيرها؟ ونراها تكبر وتصغر حسب المناسبات، وتتصارع بأجسادها وكأنها نفوس بشرية شرسة.

إن ملحمة الخلق والتكوين هذه عند أهل بابل، تعدُّ درّة الأدب والفكر البابلي، ولها تأثير عميق في تفكيرهم، وفي تفكير العبرانيين أيضاً، وخاصة في مسائل الخلق والتكوين وبعض الأفكار الدينية، من حيث اعتقادهم بشمولية الإلٰه مردوخ وألقابه الخمسين، التي تظهره إلٰهاً واحداً لا شريك له بالرغم من وجود بقية الآلٰهة الثانوية ويمكن القول: إن هذا التسلسل في مسألة التكوين في النص البابلي وألواح التكوين السبعة مشابهة تقريباً لما ورد في سفر التكوين التوراتي في أيام التكوين السبعة. وهذه موازنة بينهما للاطلاع على تسلسل الخلق ومراحله في كلا النصين:

الإينوما إيليش البابلية والألواح السبعة	سفر التكوين التوراتي والأيام السبعة
1 ـ العماء الأول تهامة: الماء المالح وزوجها الماء العذب، يحيط بهما الظلام.	الظلام يغلف المياه الأولى.
2 ـ النور يشع، ويتولد من الآلهة.	خلق النور.
3 ـ خلق السماء.	خلق السماء.
4 ـ خلق الأرض.	خلق الأرض.
5 ـ خلق الأجرام السماوية.	خلق الأجرام السماوية.
6 ـ خلق الإنسان.	خلق الإنسان.
7 ـ الإلٰه مردوخ ينتهي من الخلق، والآلهة تحتفل به.	الإلٰه يهوه ينتهي من الخلق، ويستريح.

(جـ) فرضية التكوين عند الكنعانيين

تقول: إنه في البدء لم يكن هناك سوى ريح عاصفة، وخواء مظلم، ثم إن هذه الريح وقعت في حُبِّ مبادئها الخاصة وتمازجت فنشأ عن ذلك التمازج

كتلة مائية اتخذت شكل البيضة، وكانت «الرغبة». وهي مبدأ خلق جميع الأشياء، ولم يكن للريح معرفة بما فعلت، ونتج عن تمازج الرياح الإله «موت»، الذي كان في الأصل عبارة عن كتلة من الطين، أو مجموعة من العناصر المائية المتخمّرة، وكان بذرة الخلق وله شكل البيضة، وانشقت البيضة قسمين، فظهرت السماء والأرض والشمس والقمر، والمجموعات الشمسية الكبرى. ثم التهب الهواء بتأثير التهاب اليابسة والبحر وتشكل الهواء والسحاب، وهطل المطر على الأرض ماء مدراراً، وبتأثير حرارة الشمس انفصلت الأشياء وتطايرت لتلتقي في الهواء وتتصادم، فنشأ البرق والرعد، وعلى أصواته أفاقت الحيوانات مذعورة، وراحت تتجول على سطح الأرض فوق اليابسة وتحت الماء، ذكوراً وإناثاً.

3 ـ التكوين في التوراة:

إن كتاب التوراة وهو المأثرة الثقافية الوحيدة عند اليهود، قد نشأ وتطور منطلِقاً من أرضية ثقافية سورية وبابلية ومصرية، وخاصة عندما حصل السّبي البابلي الأول (586 ق. م) الذي قدّم لليهود فرصة مناسبة للاطلاع على آداب بلاد الرافدين وديانتها وأساطيرها وثقافتها، وخاصة ملحمة التكوين والخلق البابلي «الإينوما إيليش» ويذكر سفر التكوين كثيراً عن كيفية خلق السماوات والأرض وخلق العالمين. «أنظر الشكل رقم واحد». فقد ورد في سفر التكوين في الإصحاح الأول والثاني قصة خلق السماوات والأرض كما يلي: «في البدء خلق الله السماوات والأرض وكانت الأرض خَرِبةً وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه، وقال الله: ليكن نور فكان نور، ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة ودعا الله النور نهاراً، والظلمة دعاها ليلاً، وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً.

وقال الله ليكن جَلَد في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه، فعمل الله الجَلَد وفصل بين المياه التي تحت الجَلَد والمياه التي فوق الجَلَد، وكان كذلك، ودعا الله الجَلَد سماء وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً. وقال الله

والإيلوهيمي[1] والتثْنية والكَهنوتي[2].. وغيرها...

*** ملاحظات حول نصوص التوراة:** من دراسة النصوص التوراتية المتقدمة، يتبين لنا وجود تناقضات واضحة، فهي تارة مطابقة للواقع العلمي وتارة غير مقبولة علمياً، هذا عدا عن التقديم والتأخير في المراحل التكوينية. ومما لا شك فيه أن الظلمات كانت سائدة في الكون قبل خلق الأرض أما المياه المذكورة في النص فهي صورة رمزية صرفة، والأصح القول بوجود كتلة غازية سديمية في المرحلة الأولى لتكوين الكون.

لقد خلق الله النجوم والكواكب في اليوم الرابع، فكيف يكون الليل والنهار قبل وجود الأرض لتدور حول الشمس؟ وأما صورة انقسام المياه إلى كتلتين بهذا الشكل غير مقبولة علمياً.

وعن تشكل القارات بهذا الشكل فهذا مقبول علمياً حيث تظهر اليابسة بعد الغمر المائي.

أما أن تُنبت الأرض خضرة وعشباً وشجراً وثمراً قبل أن تظهر الشمس «اليوم الرابع» وقبل أن ينتظم تعاقب الليل والنهار فذلك غير مقبول علمياً. وعن خلق الشمس والقمر بعد الأرض فهو أمر مخالف للعلم وفرضياته الحديثة.. وعن تطور المخلوقات الحية الأرضية تقول التوراة: إن حيوانات الأرض كانت في اليوم السادس بعد ظهور الطيور، وهذا غير مقبول علمياً..

أما عن خلق الإنسان بعد كل المخلوقات الحية فهو صحيح علمياً.. ولكن الراحة التي يفترض أن الله أخذها في اليوم السابع «السبت» بعد أن عمل ستة أيام متواصلة فهي أسطورة مبتكرة وأن الله منزّه عن التعب **﴿لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم﴾**.

---

(1) أطلق عليها هذا الاسم لأن اسم الله بها ايلوهيم.

(2) صدرت عن كهنة معبد القدس، ينتمي إلى عصر النفي أو ما بعده في القرن السادس ق. م ويعود إلى القرن السابع أو الثامن ق. م.

إن تعاقب الأحداث في النص الكهنوتي يناقض المعلومات العلمية الحقيقية وهكذا تبدو لنا الرواية الكهنوتية للخلق كبناء خيالي أسطوري لا يهدف إلى التعريف بالحقيقة..

4 ـ الأساطير البدائية في نشوء الكون:

مهما كانت حضارة الأمم متقدمة أو متأخرة، سائدة أم بائدة، مزدهرة أم منحسرة، فلكل منها فكرها ومعتقداتها الخاصة بها. وكثيرة هي الشعوب البدائية التي لم تنل نصيباً وافراً من العلم والتقدم ومع ذلك فقد تحدثت في الأمور الدينية والمعتقدات والروحانيات والغيبيات وكان التزامها مبدئياً بآلهتها التي آمنت بها على مختلف أشكالها وألوانها سواء أكانت تماثيل أم أصنام أم أوثان. أو حتى عبادة الطواطم والأشياء، أو عبادة قوى الطبيعة أو الكواكب وغير ذلك فقد التزمت بآلهتها وعبدتها وقدستها وقدمت لها القرابين والأضاحي، وصلّت لها وتوسلت إليها لتحقيق ما تريد، ولتبعد عنها ما لا تريد...

ففي أستراليا: توجد بعض القبائل التي تعتقد بوجود إلٰه عظيم يدعى «بايام Baiame» مقيم في السماء قرب المجرة يجلس على عرش من الكريستال، يتلقى أرواح الأبرياء، أما أولاده أو رسله إلى الأرض فهم الأشكال التي تتخذها الشمس والقمر، وهو يمثل الرعد بصوته وهو الذي يرسل الشتاء، ويجعل الأرض خصبة خضراء، وهو خالق ذاته وخالق كل شيء من العدم، وعنده كل شيء..

أما قبائل الكولين: فهم يعتقدون بوجود الإله السماوي «بوند جيل Bond gel» الذي يشكل السماء العليا الواقعة فوق السماء المظلمة. وهو خالق الأرض وخالق كل شيء، فقد صنع الإنسان من صلصال ونفخ فيه الروح من أنفه وفمه وصرّته، لكنه ما لبث أن اختفى من هذا الكون بعد أن منح ابنه «بنبيال Binbial» السلطة على الأرض، ومنح ابنته «كراكروك Crakrok» السلطة على السماء.. وغالباً ما تسود المعتقدات الطوطمية في الديانات الأسترالية بدلاً من طقوس الآلهة السماوية..

مما تعدّون﴾[1] وجاء في موضع آخر قوله تعالى: **﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾**[2]. إن الله سبحانه وتعالى قادر على الخلق بأقل من طُرفة عين، وأمْره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون... قال تعالى: **﴿ألمْ تَرَوا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾**[3]. وفي الآيات الكريمة التالية يبين الله عز وجل طريقة خلق الكون مخاطباً محمد ﷺ قال تعالى: **﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين * فقضاهنَّ سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينًا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم﴾**[4].

هذا تسلسلٌ مرحلي يبين خلق الأرض وما عليها، من جبال وأقوات للعالمين في أربعة أيام ثم خلق سبع السموات في يومين آخرين.. ويؤكد قوله تعالى في موقع آخر من الكتاب العزيز: **﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾**[5].

إن عملية الخلق لم تُتْعِب الخالق مطلقاً على غيرِ ما وردَ في التوراةِ التي قالت براحة الخالق في اليوم السابع، يوم السبت. فالله مُنَزَّه عنه صفات البشر... ومن جهة أخرى فالقرآن الكريم لم يحدد ترتيباً زمنياً في خلق السماوات والأرض وأيهما كان الأسبق. فبعض الآيات تشير إلى الأرض أولاً قال تعالى: **﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوىٰ إلى السماء فسواهن**

---

(1) سورة السجدة، آية: 5.
(2) سورة المعارج، آية: 4.
(3) سورة نوح، آية: 15-16.
(4) سورة فصلت، آية: 9-12.
(5) سورة ق، آية: 38.

سبع سموات * وهو بكل شيء عليم﴾[1]. وفي سورة طه يقول كذلك: **﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العُلى﴾**[2]. كما توجد آيات أخرى تشير إلى السماوات قبل الأرض قال تعالى: **﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السمٰوات والأرض﴾**[3] وقال كذلك: **﴿والله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنَّ﴾**[4]. أما في سورة النازعات فقد جاء ترتيب واضح بيَّن جزءاً من قصة الخلق مسلسلة: **﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضُحاها * والأرض بعد ذلك دَحَاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم﴾**[5].

نبين هذه الآيات الكريمة كيف بدأ خلق السماوات وبنيانها، ثم كيف رفع سُمكها وجعلها مستوية وأظلم ليلها وأخرج ضحاها حيث أبرز نور شمسها، وأُضيف إليها الليل لأنه ظلُّها والشمس لأنها سراجُها. ثم بسط الأرض وبعد ذلك دحاها «جعلها على شكل البيضة» ثم فجر الينابيع والعيون ثم أنبت المرعى من شجر وعشب وكل ما يأكله الناس من القوت والثمار، ثم ثبَّت الجبال على وجه الأرض وجعلها رواسي، وجعلها أوتاداً، لتسكن الأرض وتستقر. لتتمتعوا بها أنتم وأنعامكم من بقر وغنم وإبل. جلَّت قدرة الخالق فيما خلق.. وقال كذلك: **﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً، وقدره منازلَ لتعلموا عدد السنين والحساب﴾**[6]. وقد **﴿خلق السمٰوات بغير عَمَدٍ ترونها﴾**[7]. هذا ما خلق الله العلي القدير. ولنفكر في قوله تعالى: **﴿ لَخَلْقُ السّمٰوات والأرض أكبر من خلق الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**[8]. فتتضح معنا عملية خلق الكون واضحة جلية في قوله تعالى: **﴿أوَلَـم يَرَ الذين كفروا أن السمٰوات والأرض**

(1) سورة البقرة، آية: 29.
(2) سورة طه، آية: 4.
(3) سورة البقرة، آية: 255.
(4) سورة الطلاق، آية: 12.
(5) سورة النازعات، آية: 27-33.
(6) سورة يونس، آية: 5.
(7) سورة لقمان، آية: 10.
(8) سورة غافر، آية: 57.

ليجعلوا من حشرات «بان كو» خلائق متحضرين بعد أن كانوا كالوحوش الضارية. يلبسون الجلود. ويأكلون اللحم النيء، يعرفون أمهاتهم ولكن لا يعرفون لهم آباء... كان من بين هؤلاء الملوك «فوشي» الذي عاش حوالي (2838 ق. م)، وتعدّه قصصهم خالق البشر ومعلمهم الأول، وكانت له أخت سماوية هي «نواكواشي» لها جسم ثعبان ورأس آدمي «شكل رقم 2» يعدُّها الصينيون منقذة العالم، الذي انهدمت أركانه بسبب حرب قامت بين إلٰه العقاب واسمه «هونغ كونغ» وإلٰه الغابات حيث انتصر إلٰه العقاب، ثم قام بحرب أخرى مع إلٰه النار الذي هزمه، فثار غضبه وضرب الجبل برأسه فانشق وانهار، ثم تساقطت أعمدة السماء، وانهدمت أركان العالم فقامت «نوكواشي» وأذابت أحجاراً من ألوان قوس قزح، وأعادت بناء أعمدة السماء، وقطّعت أقدام السلاحف، لتلصق بصمغها أركان الأرض، وجمعت رماد الهدم وكدسته لتوقف به فيضان الماء، وعادت الحياة من جديد على ظهر الأرض...

وفي نيوزيلاندة وجزر كوك وتاهيتي. تسود أسطورة تقول: بعد أن اتّحدت السماء بالأرض أنجبتا عدداً من الآلهة الصغار الذين كانوا يعيشون في ضيق وظلمة، لشدة التصاق السماء بالأرض. فقرر الآلهة التّمرد على هذا الواقع بزعامة الإلٰه الجريء «تاني Tani» الذي رفع السماء بقوة ذراعيه حتى استقرت مكانها. وقال لها: لتبقَ السماء بعيدة عنا، أما الأرض فلْتبقَ قريبةَ منا أمّاً رؤوماً.

ومن أساطير القبائل الإفريقية البدائية حكايات لا تقل غرابة وعجباً عما ذكرناه، ففي قبائل «البانتو» الإلٰه «نزام Nzame» مالك السماء. وتردد النساء في شعائرهن «النزامية» لقد ابتعد عنّا الإلٰه.. وهو نفسه عند قبائل «الفونغ Fong» في إفريقية الاستوائية الذين ينشدون له شعائرهم الدينية قائلين: نزام هو في الأعلى... الإنسان هو في الأسفل. الإلٰه هو الإلٰه... الإنسان هو الإنسان. كلٌ في مكانه... كلٌ في بيته. ولا يتوجهون إليه إلاّ وقت المصاعب وعند حاجتهم الماسة، كطلب الشتاء مثلاً...

ومن الأساطير عند قبائل «اليورباس» في غرب إفريقيا أنهم يعتقدون بإلٰه

سماوي يدعى «أولورون Olaren» أي مالك السماوات وقد اختفى عنهم نهائياً بعد أن خلق العالم، وترك أمر العلائق الأرضية والبشرية إلى إله هو أقل منه قدرة هو «أباتلا Opatala».

5 ـ الفرضيات العلمية الحديثة في نشوء الكون:

إن مسألة أصل الكون هي من أشد المسائل المطروحة أمام عقل الإنسان وإدراكه ضخامة وهولاً وقد تعدّدت الفرضيات العلمية التي قيلت في أصل المجموعة الشمسية ومنشؤها. حيث يرى الفلكيون أنه منذ أكثر من خمس مليارات سنة تكونت الشمس وكواكبها السيارة في الفضاء الكوني من سحابة غازية أو من الغبار الكوني، ولقد تمّ انفصال الشمس والأرض وسائر كواكب المجموعة الشمسية عن تلك السحابة السديمية بواسطة القوة المركزية النابذة أو القوة الجاذبة أو الانفجار النووي، أو بطريقة التصادم مع الشمس حيث احتلت الشمس المركز، بينما أخذت الكواكب تدور حولها بانتظام في مدارات خاصة بعد أن تبردت وتصلّبت وأخذت تدور حول الشمس الأم، كما تبرّدَ الغلاف الجوي وتكاثف بخار الماء، فانهمرت الأمطار الغزيرة خلال مئات من السنين حيث تشكلت البحار والمحيطات. ثم تشكلت القارات المنفصلة، ومن المحتمل أن الحياة ظهرت لأول مرة في البحر منذ 2·7 مليار سنة مضت وقد تحولت تدريجياً بعض الكائنات المائية إلى حيوانات برمائية، ثم تحولت إلى زواحف، ثم تطورت إلى ثدييات، وخلق الإنسان على سطح الأرض منذ نحو مليون سنة تقريباً.

«فرضيات في أصل الأرض»

1 ـ فرضية العالم الألماني «كنت»: التي تقول: إن الشمس هي التي كونت مجموعتها السيارة بنفسها دون تدخل أي جُرم سماوي آخر. أي أن الشمس كانت في مراحلها الأولى كتلة ضخمة جداً من الغاز المتوهج، تملأ حيز المجموعة الشمسية الحالي بأكمله، وتدور حول محورها ثم أخذت حرارتها

فقرّت الأرض، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾[1]، وخلق الجبال فيها وخلق أقوات أهلها وسخرها وما ينبغي لها في يومي الثلاثاء والأربعاء. وفتق السماء وكانت رتقاً فجعلها سبعاً في يومي الخميس والجمعة، وإنما سُمي الجمعة لأن الله جمع فيه خلق السموات والأرض ثم قال: ﴿وأوحى في كلِّ سماء أمرَها﴾[2]، يقول خلق في كل سماء خلقها من الملائكة والبحار وجبال البرد، ثم زين السماء بالكواكب فجعلها زينةً وحِفْظاً يحفظ من الشياطين، فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش.

ويقول إن السماء الدنيا من زمردة خضراء والسماء الثانية من فضة بيضاء والسماء الثالثة من ياقوتة حمراء والسماء الرابعة من درة بيضاء والسماء الخامسة من ذهب أحمر والسماء السادسة من ياقوتة صفراء والسماء السابعة من نور قد طبقها الله بملائكة قيام على رجلٍ واحدة تعظيماً لله لقربهم منه يقولون: «لا إله إلا الله ذو العرش المجيد» فهم على ذلك منذ خلقوا إلى أن تقوم الساعة، والله أعلم..

يحدثنا الشيخ محي الدين بن عربي في كتابه «الفتوحات المكية» عن خلق العالم فيقول: «خلق الله سبحانه بردة جامدة، كالجوهرة في الاستدارة والبياض، وأودع فيها بالقوة ذوات الأجسام وذوات الأعراض، ثم خلق العرش واستوى عليه اسم الرحمن، فنظر بعين الجلال إلى تلك الجوهرة، فذابت حياء، وتحللت أجزاؤها، فسالت ماء، وكان عرشه على ذلك الماء قبل وجود الأرض والسماء، فأرسل النفس فتموّج الماء وأزْبد، فأنشأ سبحانه من ذلك الزبد الأرض، ثم أنشأ الدخان من نار احتكاك الأرض عند فتقها ففتق فيه السموات العُلى...».

ويقول الطبري (ت 310 هـ) في كتابه «تاريخ الرسل والملوك»: «إن الله خلق الماء على متن الريح، ووضع عليه عرشه، ثم خلق البيت العتيق فوق الماء، ثم قبض قبضة من حجارة، ثم فتح القبضة فتنفس الماء وارتفع الدخان،

---

(1) سورة النحل، آية: 15. (2) سورة فصلت، آية: 12.

وإذا بسبع سموات، في كل سماء ملائكتها ثم خلق الحوت ودحا الأرض على ظهره».

وورد في كتاب «قصص الأنبياء» المسمى عرائس المجالس لأبي إسحق النيسابوري (الثعلبي): فيتحدث في إحدى الأساطير عن طبقات الأرض السبع، ويبين لنا كيف تفصل كل طبقة عن الأخرى مسيرة خمسمائة عام «والطبقة الأولى هي التي نعرفها، والثانية هي مسكن الرياح ومصدرها، والثالثة مأهولة بصنف من البشر تشبه وجوههم وجوه بني آدم، في حين تبدو أفواههم كأفواه الكلاب، وأرجلهم كأرجل البقر، وآذانهم كآذان المعز، وأشعارهم كأصواف الضان، وليس على أجسادهم شيء من الثياب، لكنهم كالملائكة في طاعتهم لله عز وجل. أما الأرض الرابعة فهي حافلة بحجارة الكبريت الجهنمية، بينما تحتوي الخامسة على عقارب أهل النار الأسطورية، وعلى حيات مثل الأودية، وتضم الطبقة السادسة دواوين أهل النار وأعمالهم وأرواحهم الخبيثة، وفي الطبقة السابعة مسكن إبليس وجنوده ومنها ينطلقون لغواية البشر».

واليوم يقدر العلماء أنه يوجد في الكون نحو مئة مليون كوكب، لها شروط مماثلة لشروط الأرض من جوّ ووجود ماء، وتركيب كيميائي متشابه، ونفس الإضاءة ومتوسط درجات الحرارة، ولكن ما نمط الحياة على مثل هذه الكواكب؟ الله أعلم.

يقول جل شأنه: ﴿يوم نطوي السماء كطيّ السجل للكتب، كما بدأنا أول خلق نعيده، وعْداً علينا إنّا كنّا فاعلين﴾[1].

ومن هذه الآيات التي مَرَّ ذكرها، ومن الأقوال الرشيدة التي سردناها نتوصل إلى الحقائق التالية:

1 ـ إن الخلق عموماً تمَّ على ست مراحل.

2 ـ تداخل مراحل خلق السموات مع مراحل خلق الأرض.

---

(1) سورة الأنبياء، آية: 104.

فالقرآن ليس كتاباً متخصصاً في علم معين إنما لم يُغْفِل موضوعاً ما من الذكر. . فبحث في الفلك وبحث في الطب والتاريخ والجغرافية والأخلاق والسياسة ولكن من دون تخصص، وقد أورد في كل منها العديد من الآيات منها ما قد عرفها الإنسان القديم والفضائي الحديث ومنها ما لم يعرفه الإنسان، قال تعالى: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق، وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾[1]. وها هم رواد الفضاء يجوبون الآفاق الكونية يبحثون عن أغراضهم وأهدافهم وفي كل يوم إنجاز علمي جديد. إن العلم الحديث أثبت أنه لا توجد حقيقة كونية واحدة تختلف مع ما جاء به القرآن الكريم وهو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فمن حيث الخلق يؤكد على وجود كتلة غازية. وتردد كلمة «دخان» تعني عموماً كتلة ذات قوام غازي. وهذا يتفق معه العلم الحديث والكتلة السديمية وكذلك عملية الفتق للكتلة الوحيدة الأولى التي كانت عناصرها ملتحمة ثم انفتقت وتجزأت إلى كتل متعددة أصبحت أعضاء المجموعة الشمسية الناتجة عن انفجار السديم وتفتته إلى عوالم عديدة ﴿**وإذا الكواكب انتثرت**﴾[2] أي تمزقت وتبعثرت، والحمد لله رب العالمين.

وفي الأحاديث النبوية: عن رسول الله ﷺ قال الإمام أحمد بن حنبل عندما سُئل، أين كان ربُّنا قبل أن يخلق السموات والأرض؟ قال رَسول الله ﷺ: «كان في عَمَاءٍ، ما فوقه هواء، وما تحته هواء، ثم خَلَق عرشه على الماء. . .».

وفي رواية ابن جرير عن محمد بن إسحق أنه قال: «أول ما خلق الله النور والظلمة ثم ميَّز بينهما فجعل الظلمة ليلاً أسود، وجعل النور نهاراً مضيئاً».

عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت، فتعجبت الملائكة من خلق الجبال، فقالوا: يا رب هل من خلقك شيء أشدُّ من الجبال؟ قال: نعم،

---

(1) سورة فصلت، آية: 53.
(2) سورة الانفطار، آية: 2.

الحديد، فقالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم، النار، فقالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم، الماء. فقالوا يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الماء؟ قال: نعم، الريح. فقالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم، يتصدق بصدقة يمينه، يخفيها من شماله»[1].

وفي موضوع تسلسل الخلق قال ابن جرير: «إن ربنا خلق الكرسي بعد القلم، ثم خلق العرش بعد الكرسي، ثم خلق الهواء والظلمة، ثم خلق الماء فوضع عرشه على الماء».

وعن رسول الله ﷺ روى الإمام أحمد: قال رسول الله ﷺ «إن أوّل ما خلق الله القلم ثم قال له: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» وقال أيضاً: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء». قال ابن عباس: «إن عرش الله كان على الماء، ولم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً[2] فارتفع الدخان فوق الماء فسمّاه سماء، ثم أيْبس الماء فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها فجعلها سبع أراضي في يومي: «الأحد والاثنين» وخلق الأرض على حوت وهو الذي ذكره سبحانه وتعلى في قوله الكريم **﴿ن، والقلم وما يسطرون﴾**[3] والحوت في الماء، والماء على الصفا، والصفا على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة على الريح. وهي الصخرة التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم عن قول لقمان لابنه: **﴿يا بُنيَّ إنها إنْ تَكُ مِثقالَ حبة من خَرْدلٍ فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض، يأتِ بها الله، إن الله لطيف خبير﴾**[4]. فاضطرب الحوت فتزلزلت الأرض فأرسى الله عليها الجبال

---

(1) حديث قدسي أخرجه الترمذي.

(2) الدخان: هو بخار الماء الذي ارتفع حين اضطرب الماء العظيم الذي خلق من زبدة الأرض بالقدرة العظيمة.

(3) سورة القلم، آية: 1.

(4) سورة لقمان، آية: 16

3 ـ خلق الكون ابتداء من كتلة أولية فريدة كانت تشكل كتلة متماسكة تجزأت فيما بعد..

4 ـ تعدّد السموات وتعدُّد الكواكب التي تشبه الأرض.

5 ـ وجود خلق وسيط بين السموات والأرض، قال تعالى: **﴿له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثّرىٰ﴾**[1].

ولنذكر دائماً قوله تعالى: **﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾**...

7 ـ الأصل المشترك في قصة ولادة الكون:

في الختام نجد أن العامل المشترك في كل نظريات الخلق والتكوين وأساطيره هو ظاهرة الميلاد المائي، حيث أن فكرة المياه الأولى مشتركة في كل الأديانٰ والمعتقدات.

ـ فالأسطورة السومرية قالت: إن ولادة الكون للإلهة «نمو» وهي المياه الأولىٰ.

ـ والأساطير البابلية قالت: إن ولادة الكون من المياه الأولىٰ: «تهامة».

ـ والأساطير السورية تقول: «إن «يُم» المياه الأولى الذي انتصر عليه الإلٰه بعل وشرع بتنظيم العالم بعد انتصاره».

ـ والأسطورة المصرية قالت: إن الإلٰه «رع» كان أول إلٰه يخرج من المياه الأولى وهو الذي أنجب بقية الآلهة فيما بعد..

ـ والأسطورة الإغريقية قالت: إن أوقيانوس هو المياه الأولى والإلٰه البدئي الذي نشأ عنه الكون..

ـ وفي التوراة نجد أن المياه الأولى وروح الرّب ترفُّ فوقها قبل التكوين..

ـ وقد أثبت القرآن الكريم، وهو نهاية الوحي وهو القول الفصل، والنطق

---

(1) سورة طه، آيـ: 6.

الحق، وجود المياه البدئية بقوله تعالى: ﴿هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء﴾[1].

وفي فصل السموات والأرض: تقول الأسطورة المصرية (انظر الشكل 3): إن الإله «جيب» إله الأرض المذكر و«نوت» إلهة السماء المؤنثة في حالة اتحاد، وقد تزوجا بعضهما سرًا، دون إذن الإله «رع»، فلما علم كبير الآلهة بذلك أرسل إله الهواء «شو» الذي أبعدهما عن بعض عنوة. . ومنذ ذلك الحين والإله «شو» يطأ بقدميه «جيب» الصريع، ويرفع بذراعيه القويتين السماء «نوت».

وتقول الأسطورة البابلية: إن الإله «مردوخ» يقوم بشطر جسد الإلهة «تهامة» إلى نصفين فيرفع الأولى سماء، ويبسط الثانية أرضاً.

وعند الإغريق تقول الأسطورة: إن الأرض «جيا» وهي الأم الأولى كانت أول إله يخرج من العَماء البِدْئي. . تلِد نظيرها «أورانوس» إله السماء الذي يغطيها من كل الجوانب وتتخد به لتلد بقية الآلهة ثم يتم التفريق بينهما عنوة. .

والتوراة يقول في روايته: إن الإله «يهوه» إله العبرانيين يقوم بفصل المياه الأولى إلى شطرين رفع الأول إلى السماء، وبسط الثاني الذي تجمع ماؤه في جانب، وبرزت من اليابسة في جانب آخر. . .

وعن بداية الخلق روى محمد بن إسحٰق أن أهل التوراة يقولون: إن الله ابتدأ الخلق يوم الأحد. ويقول أهل الإنجيل: إن الله ابتدأ الخلق يوم الإثنين. ويقول المسلمون: إن الله ابتدأ الخلق يوم السبت. . .

وعن أبي هريرة قال: «أخذ رسول الله بيدي فقال: خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة، آخر خلق خلقه في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل» والله أعلم.

---

(1) سورة هود، آية: 7.

الفصل الثاني
خلق البشرية

1 ـ تمهيد:

اتفقت معظم الأساطير والروايات على أن أصل البشر من طين وكلهم من أصل واحد وحتى الأساطير البدائية تقول ذلك. ولكن القول الحق ما جاء في القرآن الكريم بأن الخلق البشري بدأ من طين وجعل نسل آدم وسلالته من ماء مهين في قرار مكين فجعله سميعاً بصيراً. ومرت عليه فترة لم يكن شيئاً مذكوراً وشرّفه الله بالعلم والتعليم وميّزه من سائر المخلوقات بالعقل والإبداع. فقد خلق الله بيده الكريمة آدم أبا البشر وصور جثته ونفخ فيه من روحه. وأسجد له ملائكته طائعين وجعله في الأرض خليفة وعلمه الأسماء كلها. وخلق منه امرأته حواء أم البشر فآنس بها وحدته وأسكنها معه جنّته. ثم أهبطهما إلى الأرض وبث منهما خلقاً كثيراً وأسكنهم كوكب الأرض وسخّر لهم الفلك وأنزل الأمطار. . وخلق الحياة على سطح الأرض وجادت الأرض بكل أصناف الحياة ثم أحيا الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابّة.

وتُجمِع النصوص الدينية كلها على أن أصل الإنسان واحد. فالأمم على اختلاف طبقاتها في زمانها ومكانها متسلسلة من أب واحد كما جاء في الحديث الشريف: «كلكم لآدم وآدم من تراب والخلق كلهم عيال الله» وسنستعرض بعض الروايات والأساطير التي قيلت في خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام.

2 ـ الخلق البشري عند السومريين:

تقول الأساطير السومرية المتعلقة بخلق الإنسان: إن الإنسان خُلق من طين وكان تصويره على شكل صورة الآلهة، وتقول إن الإنسان ما خلق إلا ليكون عبداً للآلهة ليقدم لها طعامها وشرابها ويزرع أرضها ويرعى قطعانها. كما خُلِق ليحمل عبء العمل ويرفعه عن كاهل الآلهة..

ولنستمع إلى خطاب «نُمُو» إلهة المياه البدئية التي أنجبت الجيل الأول من الآلهة توجهه إلى ابنها «إنكي الحكيم». تقول فيه: «أيْ بنيْ: انهض من مضجعك. واصنع أمراً حكيماً، اجعل للآلهة خدماً يصنعون لهم معاشهم». فتأمل إنكي في الأمر، ثم دعا الصناع الإلهيين المهرة وردّ على أمّه «نمو» قائلاً: «إن الكائنات التي ارتأيْتِ خلْقها ستظهر للوجود ولسوف نعلق عليها صورة للآلهة، إمزجي حفنة طين من فوق مياه الأعماق وسيقوم الصنّاع الإلهيون المهرة بتكثيف الطين، ثم كوّني له أعضاءه، وستعمل معك «ننماخ»[1] يداً بيد، وتقف إلى جانبك عند التكوين ربات الولادة، ولسوف تقدّرين للمولود الجديد مصيره، يا أماه.. وتعلق «ننماخ» عليه صورة الآلهة في هيئة الإنسان...» فالآلهة السومرية تتعاون لتخلق الإنسان من حفنة من طين ليكون البشر كلهم خدماً للآلهة، يقدّمون لهم حاجاتهم ويسهرون على راحتهم.

3 ـ الخلق البشري في التوراة:

تذكر التوراة أن الإله «يَهْوَهْ» قام بخلق الإنسان الأول من طين بعد أن انتهى من خلق العالم كله، «وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نَسْمَةَ حياة فصار آدم نفساً حيةً، وغرس الرب الإله جنةً في عَدْن شرقاً، ووضع هناك آدم الذي جبله، وأنْبَت الربُّ الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل، وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر»[2].

---

(1) ننماخ: Ninmakh هي الأرض الأم في الأسطورة السومرية.

(2) سفر التكوين الاصحاح الثاني.

ويوصي الرب آدم بأن يأكل من جميع شجر الجنة ما عدا شجرة معرفة الخير والشر، وأنذره بالموت إذا أكل منها. تقول التوراة: «وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعلمها ويحفظها. وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت»[1]. ويريد الربّ أن يؤنس آدم بامرأة من نفسه تسكن معه الجنة، وتساعده على أيام حياته، وعلمه الأسماء كلها، وتتابع التوراة القول: «وقال الرب الإله ليس جيداً أن يكون آدم وحده فأصنع له مُعيناً نظيره. وجبل الربّ الإله من الأرض كل حيوانات البرية، وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها»[2].

كيف خُلِقَت حواء من نفس آدم؟ تقول التوراة: «فأوقع الرب الإله سُباتاً على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً، وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة، وأحضرها إلى آدم، فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي، هذه تدعى امرأة لأنها من امرىءٍ أُخِذَت، لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكونان جسداً واحداً»[3].

ويسمي آدم زوجته حواء باسمها لأنها أمّ لكل الأحياء في الكون.

تقول التوراة: «ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حي، وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصة من جِلْد وألبَسهما»[4].

وبدأ الخلق يتزايد وكثرت الولادات من أب واحد وأم واحدة، من آدم وحواء، فالكل لآدم وآدم من تراب، فجاء قابيل وهابيل وبدأت الحياة بتناقضاتها وصراعاتها القائمة بين الخير والشر، بين الحق والباطل. تقول التوراة: «وعرف آدم حواء امرأته، فحبلت وولدت قايين وقالت اقتنيت رجلاً من عند الرب، ثم عادت فولدت أخاه هابيل، وكان هابيل راعياً للغنم، وكان قايين عاملاً في الأرض، وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من أثمار الأرض قرباناً للرب، وقدم

(1-2-3) سفر التكوين: الاصحاح الثاني.

(4) التكوين: الاصحاح الثالث.

* وفي أسطورة عند أهل ميلانيزية: نجدهم يعتقدون أن أجدادهم خرجوا من الأرض بشكل عود من قصب السكر نبتت فيه عقدتان: إحداهما صارت رجلاً، والأخرى صارت امرأة، وهما أصل البشرية عندهم، وهم لا يدّعُون نسباً إلى أية أمة أخرى...

* وفي أسطورة يونانية تسمى أسطورة «بروميثيوس» وهو الذي جبل إنساناً من التراب ثم سرق قبساً من النار المقدسة من «زفس» سيد الآلهة اليونانية لينفخ فيه الروح، ولكن «زفس» الإله الكبير غضب عليه وعاقبه بأن قيده إلى صخرة في قمة جبل حيث ينهش نسر من كبده، وكلما نهش النسر قطعة من كبد «بروميثيوس» تجددت. «انظر الشكل 4».

* وفي أسطورة هندية أمريكية تقول: إن التكوين من طين وإن نفخة الحياة هي التي تهب الحياة الشكل الجامد روحه وحركته..

قال تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾[1].

5 ـ خلق الإنسان في القرآن:

إن الحياة خلقت على سطح الأرض بعد أن نشأت وتكونت، وبعد أن تبردت وهطلت عليها المياه مدراراً فكانت النباتات ثم الحيوانات ثم الإنسان وهو قمة المخلوقات وأرقاها، وقد وردت في القرآن الكريم أن المياه هي المصدر الرئيسي للحياة، وهي سبب نمو كل النباتات بأنواعها وأشكالها وخلق كذلك الحيوانات وكل ما دبّ على الأرض... قال تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾[2]. وقال جل شأنه: ﴿وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾[3]. تجلت قدرة الخالق الذي أخرج من النباتات أزواجاً لتكون

---

(1) سورة الزمر، آية: 67.
(2) سورة الأنبياء، آية: 30.
(3) سورة طه، آية: 53.

قادرة على استمرار الحياة والتجديد. وقال كذلك: **﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾**[1].

وأما عن الإنسان فقد فسّر لنا القرآن الكريم المراحل التي تم فيها خلق الإنسان منذ عهد آدم عليه السلام وتناسل أولاده من بعده، وامتلأ الكون بشراً فقال: **﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾**[2].

وقال أيضاً: **﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم * الذي خلقك فسواك فعدلك * في أي صورة ما شاء ركبك﴾**[3]. يا أيها الكافر ما غرك بربك حتى عصيته، فهو الذي خلقك ولم تكن شيئاً موجوداً، وأحسن الله خلقك وجعلك سوي الخلقة، سالم الأعضاء، معتدل الخلق، متناسب التركيب وقد جعلك على أجمل صورة وأنعم عليك الكثير من نعمه وأنعامه.

بدأ الله خلق الإنسان من نطفة **﴿خلق الإنسان من علق﴾** ثم يمر بأطوار أخرى حتى يكتمل الخلق تماماً، قال تعالى: **﴿وقد خلقكم أطواراً﴾**[4]. وقال كذلك: **﴿فإنّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة﴾**[5]. ويكرر جل شأنه قوله مؤكداً لنا الطريقة ذاتها في الخلق والتكوين الإنساني، ويصفها بدقة محكمة وتحديد: **﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة﴾**[6]. ويخبرنا كيفية تطور الجنين في الرحم ومراحل الخلق والتكوين، وهو قول يتوافق معه العلم الحديث، قال تعالى: **﴿ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً﴾**[7]. أي أن الخلق يتم على ست مراحل هي: النطفة ـ العلقة ـ المضغة ـ العظام ـ اللحم ـ ثم نفخ الروح فيه.

---

(1) سورة النور، آـ: 45.
(2) سورة المؤمنون، آـ: 12.
(3) سورة الانفطار، آـ: 6-8.
(4) سورة نوح، آـ: 14
(5) سورة الحج، آـ: 5.
(6) سورة غافر، آـ: 67.
(7) سورة المؤمنون، آـ: 14.

خلق آدم من طين: لقد شرف الله الإنسان على سائر المخلوقات فهو صفوة العالم وخلاصته وثمرته، وأخبر الله تعالى ملائكته أنه سيخلق بشراً من طين وأنه سيجعله خليفة في الأرض يخلفه في تنفيذ أحكامه فخلق الله تعالى آدم من أديم الأرض بأن قبض من وجه الأرض قبضة من جميع ألوانها وعجنت بالمياه المختلفة، ثم سواه ونفخ فيه الروح فصار حيواناً حساساً بعد أن كان جامداً لا حراك فيه. قال تعالى: **﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة * قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّحُ بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾**[1]. ويبين جل شأنه قدرته على خلق الإنسان من طينٍ صلصال قائلاً: **﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون * والجانَّ خلقناه من قبل من نار السموم * وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين *﴾**[2]. وهكذا خلق الله تعالى آدم من طين يابس أسود مسنون متغير تسمع له صلصلة إذا نقر، والصلصال هو الطين اليابس، والطين الحر خليط بالرمل فصار يتصلصل أي يصدر صوتاً إذا جف وإذا طبخ بالنار فهو الفخار. أما إبليس فقد خلقه الله تعالى قبل آدم «قال عبد الله بن عمر: كانت الجن قبل آدم بألفي عام» خلقه من نار لا دخان لها تنفذ من المسام، فسواه الله ونفخ فيه من روحه فصار حياً».

وكرّم الله آدم بإضافة الروح إليه ثم أمر الملائكة جميعهم بالسجود تحية واحتراماً لآدم أبي البشر. فسجدوا بأمر الله احتراماً وتكريماً، إلا إبليس أبا الجن الذي أبى واستكبر وامتنع عن السجود، ويتكرر خطاب الله لملائكته بأنه خالق بشراً من طين حيث قال: **﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين، قال يا إبليس ما منعك أن**

---

(1) سورة البقرة، آية: 30.

(2) سورة الحجر، آية: 26-31.

تسجد لما خلقت بيدي استكبرتَ أم كنت من العالين، قال أنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين﴾[1].

لقد كرّم الله بني آدم على العالمين خَلْقاً وخُلُقاً وميزه على غيره بالعقل والتفكير.

قال تعالى: **﴿ولقد كرّمنا بني آدم﴾**[2]. وقد وردت آيات قرآنية كثيرة في مواضع عديدة حول خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام، ومراحل تطوره ثم ولادة البشرية كلها كأبناء لآدم فكلهم لآدم وآدم من تراب. قال تعالى: **﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجانّ من مارج من نّار﴾**[3].

هذه مقارنة بين خلق الإنسان من الطين وخلق الجان من النار وميز بينهما بهذه الأصول، فكانت صورة البشر على أجمل تركيب وأجمل هيئة. قال تعالى: **﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾**[4].

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك».. وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة عن رسول الله أنه قال: «لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وميضاً من نور ثم عرضهم على آدم، فقال: أي رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك»[5].

وفي حديث قدسي آخر قال رسول الله: «خلق الله عز وجل آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً فلما خلقه قال: اذهب فسلّم على أولئك النفر، وهم

---

(1) سورة ص، آية: 71-76.
(2) سورة الإسراء، آية: 70.
(3) سورة الرحمن، آية: 14-15.
(4) سورة غافر، آية: 64.
(5) أخرجه الترمذي في جامعة.

نفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحيّونك به، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، قال: السلام عليكم، فقالوا السلام عليك ورحمة الله، قال: فكل من يدخل الجنة على صورة آدم وطوله ستون ذراعاً، فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن»[1].

وقد ورد في تاريخ ابن جرير أن حواء ولدت أربعين ولداً في عشرين بطناً وقيل مئة وعشرين بطناً، في كل بطن ذكر وأنثى، أولهم قابيل وأخته إقليماً، وآخرهم عبد المغيث وأخته أُمَة المغيث..

وقيل أن آدم لم يمت حتى رأى من ذريته، من ولده وولد ولده أربعمائة ألف نسمة.. والله أعلم.

وكانت مدة حياة آدم ألف سنة، فتباركت يا خالق الخلق ما أجلك وما أعظمك فكل شيء عندك بمقدار.

ويروي المسعودي: في كتابه مروج الذهب: إن الله بعث جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض: إني أعوذ منك أن تنقصني، فرجع ولم يأخذ منها شيئاً، وقال يا رب إنها عاذت بك. ثم بعث ميكائيل، فقالت له الأرض مثل ذلك فرجع ولم يأخذ شيئاً. فبعث الله ملك الموت فعاذت بالله منه، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أُنفّذ الأمر. فأخذ من تربة سوداء وحمراء وبيضاء لذلك خرج بنو آدم مختلفين في الألوان وسمي آدم لأنه أُخذ من أديم الأرض. وقيل غير ذلك.

ووكل الله ملك الموت بالموت.. وجبله الله تعالى وتركه حتى صار طيناً لازباً يلزق بعضه ببعض أربعين سنة، ثم تركه حتى أنتن وتغير أربعين سنة وذلك قوله تعالى: ﴿من حمأ مسنون﴾. ثم صوّره وتركه بلا روح من صلصال من فخار حتى أتى عليه مائة وعشرون سنة وقيل أربعون سنة. وهو قوله تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً

(1) رواه مسلم..

مذكوراً﴾[1]. وكانت الملائكة تمر به فيفزعون منه وكان أشدهم فزعاً إبليس، كان يمر به فيضربه برجله فيظهر له صوت كظهوره من الفخار وتكون له صلصلة وذلك قوله تعالى: ﴿من صلصال كالفخار﴾ وكان إبليس يدخل من فيه ويخرج من دبره ويقول: «لأمرِ ما خُلِقت»...

6 ـ خلق الإنسان الأول في مفهوم العلم الحديث:

نصت الرواية التوراتية على أن التاريخ العبري بدأ منذ حوالي (5750 سنة حتى هذا العام أي عام 1990). وتعد هذه الفترة الزمنية قصيرة جداً بالنسبة إلى عمر البشرية، وفي الجدول التالي تبين لنا التوراة أبناء آدم وأعمارهم من عهد آدم عليه السلام حتى إبراهيم الخليل وهذه الإحصائية مأخوذة من العهد القديم من نصوص التوراة في سفر التكوين:

الرقم	الإسم	تاريخ الميلاد بعد خلق آدم	مدة العمر	تاريخ الوفاة بعد خلق آدم
1	آدم	....	930	930
2	شيث	130	912	1042
3	أنوش	235	905	1140
4	قينان	325	910	1235
5	مهللئيل	395	895	1290
6	يارد	460	962	1422
7	اخنوخ	622	365	987
8	متوشالح	687	969	1656
9	لامك	874	777	1651
10	نوح	1056	950	2006
11	سام	1556	600	2156
12	ارفكشاد	1658	438	2096
13	شالح	1693	433	2126
14	عابر	1723	464	2187

(1) سورة الإنسان، آية: 1.

15	فالج	1757	239	1996
16	راعو	1787	239	2026
17	سروج	1819	230	2049
18	ناحور	1849	148	1997
19	تارح	1878	205	2083
20	إبراهيم	1948	175	2123

ربما أن هذه الأرقام والتقديرات الموضوعة تكاد تكون متقاربة في نسخ التوراة، لكنها تتعارض مع مكتشفات العلم الحديث التي حددت تاريخ خلق الإنسان بعصر أسبق من ذلك بكثير. .

فما رأي العلم الحديث بذلك؟.

تدل المعطيات العلمية من وثائق ومستحاثات وآثار وأدوات بشرية قديمة مستعملة على أن الإنسان ظهر على سطح الأرض لأول مرة منذ أكثر من مليون سنة تقريباً. وهو زمن قصير نسبياً بالنسبة لعمر الخليقة وبداية الكون بل لعمر الأرض ذاتها المقدر بـ (4.5 - 6.00 مليار سنة).

وتقول كل الفرضيات بالزمن البعيد لبداية خلق الإنسان وليس كما ذكرت التوراة. .

لقد وُجِد الإنسان على وجه الأرض بقدرته وقوة ذكائه التي تميز بها عن باقي المخلوقات حتى القريبة منه تشريحياً. فالقرد مثلاً قد يلتقط عصاً أو حجراً كيفما اتفق ويستخدمه كأداة له وفق ما يريد. . بينما الإنسان القديم في ما قبل التاريخ تميز بصفات خاصة ومؤهلات ذاتية وقدرة على صنع أدواته الخاصة مما تقدمه الطبيعة من حجر أو شجر، فهو يستطيع تكييف الحجارة وتصنيعها لتصبح أكثر ملائمة ويُحَسِّنها ويطوِّرها كيف يشاء. . كما أنه اكتشف النار واستخدمها، وكان أقدم موقد عُرِف هو الموقد الذي اكتشف في الصين في كهف عُثِر فيه على أدوات بدائية وبقايا عظام الأيائل ووحيد القرن ويعود ذلك إلى أكثر من (200 ألف سنة).

وبسبب غلبة العنصر الحجري على الأدوات المستعملة حين ذاك فقد اصطلح علماء الأنتروبولوجيا «علماء الإنسان» أن يقسموا الفترة التاريخية لظهور البشر من خلال المعطيات والوثائق إلى:

1 ـ العصر الحجري بأنواعه الثلاثة: وهي القديم: الذي يستمر حتى (12000 سنة ق. م) والوسيط الذي يستمر (10000 حتى 8500 ق.م.). والحديث: الذي يستمر من (5000 إلى 2500 سنة ق. م.). وكان الإنسان يصنع أدواته وأسلحته من الحجر بأشكاله وخاصة حجر الصوان الذي اكتشف منه أقدم أداة مصقولة من طرفيها في منطقة حدودية بين أثيوبيا وكينيا ويقدر عمرها بحوالي (2.2) مليون سنة.

2 ـ العصر البرونزي: حيث اهتدى الإنسان إلى خليطة البرونز من النحاس والقصدير وصنع أدواته وحاجاته منها ويعود ذلك إلى أكثر من (4000 عام ق. م) حيث اكتشف النحاس أولاً ثم البرونز ثم الحديد.

3 ـ العصر الحديدي: اهتدى إليه الإنسان واستخدمه في صناعاته البدائية.. ومع ذلك يصعب تحديد الزمن الذي انتقل فيه الإنسان من عصر إلى عصر، بين منطقة وأخرى، وما ذكرناه من أرقام تاريخية فهي تقريبية إجمالاً، تنقصها الدقة والإثبات. **(الشكل5)**.

7 ـ أصل الإنسان:

يعتقد الكثيرون أن أصل الإنسان واحد، بدليل أن جميع الناس على اختلاف طبقاتهم وأصنافهم وأجناسهم ومراكز تواجدهم ليس بينهم اختلاف جوهري يفيد بتعدد الأصول البشرية، وإنما هي تنوعات أو اختلافات اقتضتها الأحوال وفرضتها سنة النشوء والتطور للتكيف مع البيئة، وما تتعرض إليه من مؤثرات خارجية. قال تعالى: **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً﴾**[1]. فالوجود كله

---

(1) سورة النساء، آية: 1.

تأكيد لوحدة الأصل وكل الكائنات البشرية تعود إلى الأصل الأول آدم وحواء. قال تعالى: **﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾**[1]. ولكن أصحاب فرضية النشوء والارتقاء يرون أن الإنسان انحدر من أسلاف حيوانية أي أنه ارتقى عن حيوان وسط بين الإنسان والقرد لذلك فهم يعدون أن الإنسان والقرد من أصل واحد نظراً للتشابه الكبير بينهما في الأعضاء وبعض الأطوار. وخاصة التشابه التدريجي بين أدمغة القرود وأدمغة البشر، حيث تبين لهم أن حجم الدماغ[2] يتدرج في القرود حتى يبلغ أرقاها ثم يتصل بطبقات الناس بدءً من أحط العروق البشرية حتى أرقاها فكرياً أي أن أرقى فصائل القرود وأذكاها هي أحط فصائل البشر عقلاً وتفكيراً والفرق بين الطائفتين كبير وواضح، والوصل بينما أمر صعب ويقوم العلماء بالبحث عن الحلقة الواصلة بينهما والتي يسمونها «الحلقة المفقودة» ولم يهتدوا إليها حتى الآن (**انظر الشكل 6**). وفي عام 1859 م نشر داروين (1809-1882) كتابه «أصل الأنواع». ودار النقاش الحاد والجدل الجاد حول عملية التطور وكيفية النشوء والارتقاء التي قال عنها داروين، وقد تساءل الناس في ريبة عمّا إذا كان الإنسان ومعه الحيوانات الأخرى قد ارتقى أو تطور منحدراً من نفس الاسلاف الأصليين، ومن المؤكَّد أن الإنسان الأول لم يكن مظهره وشكله كما يبدو عليه الآن من الناحية التشريحية وقد كان مميزاً عن جميع القرود التي لم يكن لها ذكاء الإنسان الأول المسمى (شبه الإنسان).

8 ـ جماجم أشباه الإنسان:

* إن أول جمجمة عثر عليها في الصين «إنسان بكين» في منطقة «تل

---

(1) سورة الذاريات، آية: 49.

(2) تفيد التقديرات العلمية بأن حجم الدماغ عند هذه الحيوانات هي كما يلي:
- حجم دماغ الشمبانزي (350 سم^3).
- حجم دماغ الغوريلا (500 سم^3).
- القرد الإنساني أو الحلقة المفقودة حجم دماغه (1000 سم^3).
- الشعوب البدائية من الناس حجم الدماغ (1250 سم^3).
- أرقى العروق البشرية (القوقازيين): ما بين (1400-1600).

عظام التنين» منذ أكثر من (300000 سنة)، وهذه الجمجمة من أقدم العظام البشرية المكتشفة وقد تم العثور عليها عام 1929 م، وهي تدل على وجود الإنسان المنتصب القديم. (الشكل 7).

* وفي عام 1892 م عثر على بقايا حيوان قديم كثير الشبه ببقايا الإنسان في جزيرة «جاوة» في أندونيسيا من قبل الدكتور «أوجين ديوا»، وقد وجدت هذه البقايا ضمن طبقات العصر البليوسيني (الحقب 3). وبسبب تشابهه الشديد مع الإنسان سمي بالقرد الإنساني المنتصب وعدّوه الحلقة المفقودة بين الإنسان وما دونه.

* كما اكتشفت بعض الجماجم في افريقيا القديمة وخاصة في تانزانيا وشرق افريقيا، ونلاحظ هنا أن هذه المناطق الثلاث هي المناطق الأكثر دفئاً في العالم..

* وفي عام 1856 م عثروا على جمجمة من بقايا العصور الجليدية في «نياندرتال» في المانيا قرب دوسلدورف، وهي أقدم ما عثر عليه من بقايا الإنسان في أوروبا وحجمها متوسط بين جمجمة القرد الإنساني وجمجمة الإنسان الحالي، وسمّوه الإنسان (البليوستوسيني) الحقب 4.

* كما اكتشف في فرنسا في منطقة الدوردون إنسان «كرومانيون».. وفي استراليا وجدت جمجمة تشبه جمجمة نياندرتال، رغم بعد المسافة بين المانيا واستراليا، وكان التشابه كبيراً في الأدوات الحجرية المستخدمة التي عثروا عليها مما يدل على وحدة أصلها..

فهل يمكن أن نعدّ أشباه البشر هؤلاء بشراً حقيقيين؟. وهل هم من نسل آدم عليه السلام؟.

أم أن وجود هذه المخلوقات كان قبل خلق آدم؟. وأن لا علاقة لهم بخلق آدم لقوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾[1].

---

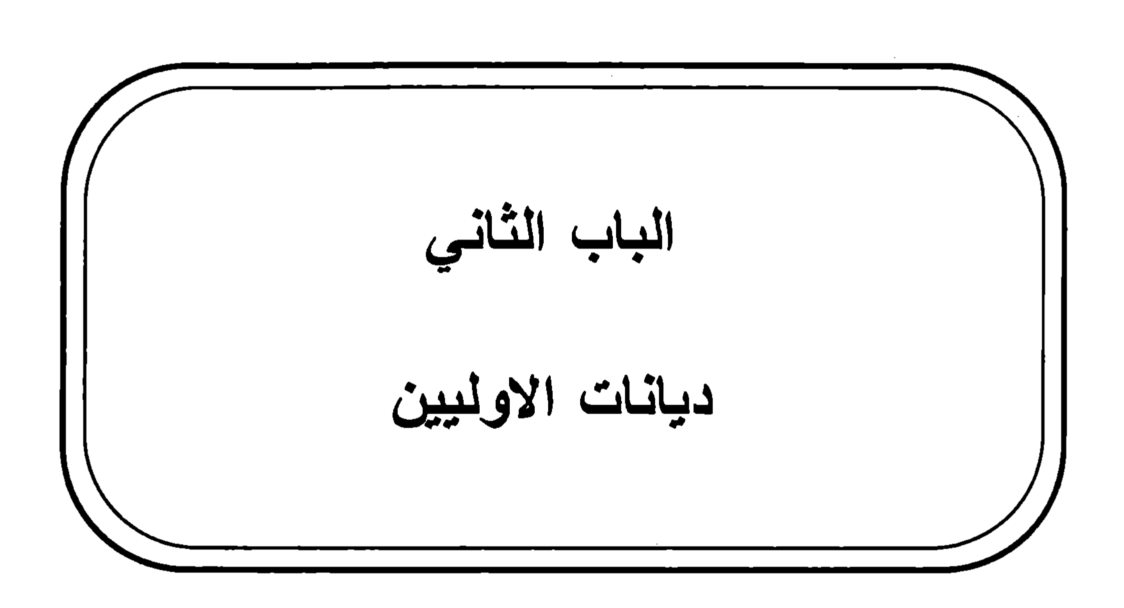
(1) سورة التين، آية: 4.

مهما يكن من أمر فتاريخ وجود الإنسان قديم جداً، وما زال الجدل قائماً بين ما تقدمه المعلومات الحسابية لسفر التكوين الخاصة بظهور الإنسان على الأرض وبين المعطيات العلمية الحديثة وما تقدمه المستحاثات الأرضية. . وهذا الجدول يبين لنا بدء الحياة العامة على سطح الأرض: مع ملاحظة أن العلماء يقدرون اليوم عمر الأرض بـ (4.5 - 6) مليار سنة، بينما يقدر الفلكيون ذلك بـ (13) مليار سنة منذ بدء تشكل المجرات. .

9 ـ مراحل الحياة على الأرض:

المدة المقدرة	الحقب		العصر	الخصائص الجيولوجية وأنواع الحياة فيها
500000 سنة	الرابع		الحديث	عصر الإنسان
			البليوستوسين	العصور الحجرية ـ عصر الجليديات.
51 مليون سنة	الثالث	11 م سنة	البليوسين	بدء ظهور الإنسان.
		11 م سنة	الميوسين	تكوين الجبال الإلتوائية العظمى ـ ظهور الثدييات الكبرى.
		12 م سنة	الأوليغوسين	بدء ظهور القردة.
		20 م سنة	الأيوسين	بدء الحياة الحديثة.
		55 م سنة	كريتاسي	صخور الطباشير ـ إندثار الزواحف الكبرى بدء النباتات ذات الأزهار.
135 مليون سنة	الثاني	45 م سنة	جوراسي •	عصر الزواحف الضخمة والثدييات الأولى.

		40 م سنة	ترياسي	بدء الحياة الوسطى، فترة جفاف في أوروبا.
360 مليون سنة	الأول	50 م سحنة	البيرمي	ظهور الزواحف
		80 م سنة	الفحمي	عصر الفحم الحجري.
		30 م سنة	الديفوني	عصر الأسماك الغضروفية.
		50 م سنة	السيلوري	بدء ظهور الأسماك والحيوانات القشرية.
		100 م سنة	الكامبري	ظهور الحيوانات اللافقارية.
2000 مليون سنة	البدائي (الاركي)		ما قبل الكامبري	صخور نارية أو متحولة خالية من المستحاثات..



الباب الثاني

ديانات الاولين

تمهيد:

ينتسب البشر بعد آدم إلى نوح وأولاده عليهم السلام، فسيدنا نوح هو الثاني ممن ذكروا بعد آدم، وهو أول الرسل كما ورد عن أبي هريرة في حديث الشفاعة «يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض»[1]. ولم يبق على الأرض بعد الطوفان المعروف إلا ذرّية نوح عليه السلام. قال تعالى: **﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾**[2]. فكثرت ذرية نوح وتناسلت من بعده أمم وشعوب كثيرة، طغت وبغت وأفسدت في الأرض فأرسل الله لكل أمة نبياً أو رسولاً لهدايتهم إلى عبادة الله وحده، وترك الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، قال تعالى: **﴿ولكل أمة رسولاً﴾**[3]. وجميع هذه القبائل من الأمم التي بادت وانقرض جميعها وانمحت أنسابهم وزالت آثارهم جزاء بما كسبوا، ولقد أخذهم الله بالعذاب ومحقهم عن بكرة أبيهم لأنهم ضلّوا ضلالاً بعيداً وكانوا لرسلهم يكذّبون وبهم يستهزؤون وبما جاؤوهم من رسالة وهداية كافرين، فحق عليهم عذاب الله وغضبه، قال تعالى: **﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح﴾**[4]. وقال تعالى: **﴿وكم أرسلنا**

---

(1) رواه مسلم.

(2) سورة الصافات، آية: 77.

(3) سورة يونس، آ-: 44.

(4) سورة الإسراء، آ-: 17.

من نبيّ في الأولين * وما يأتيهم من نبيّ إلا كانوا به يستهزؤون﴾[1].

كثيرة هي القبائل التي طغت وكذبت وزجرت، منها قوم نوح وعاد وثمود ولوط وأصحاب الأيكة وفرعون وغيرهم كثيرون، وأنزل الله بهم العقاب والعذاب وأرسل عليهم ما يمحقهم ويفنيهم قال تعالى: **﴿وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب * إنْ كل إلاّ كذَّب الرسل فحقَّ عقاب﴾**[2].

وسنخص بحثنا على أمتين فقط من هذه الأمم البائدة التي كانت عبرة لمن اعتبر من السابقين واللاحقين، هما قوم عاد، وقوم ثمود.

---

(1) سورة الزخرف، آ: 6-7.

(2) سورة ص، آ: 13-14.

الفصل الاول

قوم عاد

1 ـ قوم عاد الأولى:

ورد ذكرهم في القرآن الكريم بشكل مفصل ودقيق ولم يذكروا في كتاب آخر غيره من الكتب المقدسة، وهم من القبائل العربية البائدة. يضرب بهم المثل في القدم فهم أول من عبد الأصنام بعد الطوفان فكانت أصنامهم ثلاثة: (صيدي، صمودا، هرا)، فبعد أن أهلك الله قوم نوح بالغمر والطوفان جعلهم خلفاء لهم في الأرض.. قال تعالى: ﴿**واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح * وزادكم في الخلق بسطة**﴾[1].

كانت بلادهم متصلة باليمن وهي بلاد الأحقاف وتعني الرمال ويعتقد أنها بين اليمن وحضرموت وتمتد حتى بلاد عمان، قال تعالى: ﴿**واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف**﴾[2]. وكانوا يسكنون الخيام ذات الأعمدة الضخمة، ﴿**إرم ذات العماد**﴾[3]. ذكرهم المسعودي في كتابه مروج الذهب بقوله: «وكان قوم عاد في هيئات النخل طولاً، وكانت نفوسهم قوية وأكبادهم غليظة، ولم يكن في الأرض أشد منهم بطشاً، وأكثر آثاراً، وأقوى عقولاً، وأكثر أحلاماً، وقد جعلهم

---

(1) سورة الأعراف، آية: 69.

(2) سورة الأحقاف، آية: 21.

(3) سورة الفجر، آية: 7.

الله أشد أهل زمانهم في الخلقة والبطش ولم يكن الهلك يعرض في أجسامهم لقوة آثار الطبيعة فيها، وما أوتوه من الزيادة في تمام البنية وكمال الهيئة وقد أخبر الله تعالى عن ملكهم وشدة بطشهم وما بنوه من الأبنية المشيّدة التي تدعى على مر الدهور «بالعاديّة» لقدمها»، قال تعالى: ﴿**فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشدّ منّا قـوةً أو لم يروا أنّ الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون**﴾[1].

ولقد هلكت هذه الأقوام وبادت قبل غيرها من أمم العرب الباغية، قال تعالى: ﴿**وأنه أهلك عاداً الأولى * وثمود فما أبقى**﴾[2]، وقوم عاد الذين هلكوا هم عاد الأولى وأما عاد الثانية فهم سكان اليمن من قحطان وسبأ وتلك الفروع، وقيل: هم ثمود.

2 ـ من هو عاد؟:

هو اسم لأبي القبيلة وهو عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح، وهو أول ملك بعد نوح وكان رجلاً جباراً عظيم الخلقة قوي الهيبة ويذكر أنه تزوج من ألف إمرأة وأنه عاش (1200) سنة وأنه رأى من صلبه (4000) ولداً وخلفه من بعده ابنه الأكبر «شديد» وكان ملكه (580) سنة. . وكان يعبد القمر، وكانت قبائله وثنية تعبد الأصنام، «كما ذكر ذلك المسعودي في كتابه مروج الذهب».

3 ـ قوم عاد الثانية:

ملك بعد شديد بن عاد أخوه شداد الذي امتد حكمه وملكه على (900) عام، ويقال أنه احتوى على سائر ممالك العالم، وهو الذي بني مدينة إرم ذات العماد التي ورد ذكرها في القرآن الكريم: ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم**[3]

---

(1) سورة فصّلت، آية: 15.

(2) سورة النجم: ، آ ـ : 50-51.

(3) إرم: عاصمة عاد، كانت بين عدن وحضرموت ويقال إنها دمشق أو الإسكندرية لوفرة أعمدة أبنيتها، ويقال بأنها بين صنعاء وحضرموت وقد بناها شداد بن عاد.

ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾[1]. ويعتقد أنهم توجهوا إلى الجنوب إلى أرض سبأ، بحيث بنى أحد زعمائهم وهو لقمان سد العرم قرب مارب.. وقد كانوا أهل زرع وضرع وعمّروا البلاد وأذلّوا العباد.. قال تعالى على لسان النبي هود وهو يرشدهم ويهديهم إلى عبادة الله وحده قال تعالى: **﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين، فاتقوا الله وأطيعون، واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون﴾**[2].

4 ـ ديانة قوم عاد:

كان عاد وقومه يعبدون القمر، وهم وثنيون يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم.. فعبدوا عدة أصنام وأوثان منها: «صدا، صمودا، هرا»، ويقال لها «هبا، صمود، ضرا». وقد أرسل الله تعالى لهم «هوداً» نبياً.. لهدايتهم وإرشادهم إلى عبادة الله الواحد الذي لا إله غيره، قال تعالى: **﴿وإلى عاد أخاهم هوداً، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون﴾**[3]. فكذبوه وعصوا أمره فأهلكهم الله وجعلهم عبرة لمن يعتبر وقطع دابرهم.. قال تعالى: **﴿وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا﴾**[4].

5 ـ هلاك قوم عاد:

كذب قوم عاد الرسل، وأنكروا وحدانية الله، فحق عليهم عذاب الله، فأرسل عليهم ريحاً عاتية لتَمَسُّكهم بالكفر والأوثان، وعُتُوهم وفسادهم في الأرض فجعلهم أثراً بعد عين.. قال تعالى: **﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾**[5]. ويذكر الله تعالى في موضع

---

(1) سورة الفجر، آ ـ: 6-8.
(2) سوة الشعراء، آ ـ: 128-134.
(3) سورة الأعراف، آية: 65.
(4) سورة الأعراف، آية: 72.
(5) سورة الذاريات، آية: 41-42.

آخر من القرآن الكريم عذاب قوم عاد وهلاكهم بما أرسل عليهم من ريح صَرصر قاسية، قال تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيامٍ نحساتٍ لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، ولَعذاب الآخرة أخزى وهم لا يُنصَرون﴾[1]. هذا جزاء من الله تعالى لمن كفر واستكبر وكذب وزجر. فويل لهم من عذاب شديد، قال تعالى: ﴿كذبت عادٌ، فكيف كان عذابي ونذر * إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر * تنْزِعُ الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾[2] وقال كذلك: ﴿وأما عادٌ فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً * فترى القوم فيها صرعىٰ كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية﴾[3]. إن هذه الريح العاتية لم تترك منهم أحداً، بل كانت تتبعهم إلى داخل الكهوف الجبلية فتلفهم وتهلكهم وتدمر عليهم البيوت المحكمة والقصور المشيدة، لقد كانت نهايتهم بسبب كفرهم وإلحادهم وتماديهم في طغيانهم وتحديهم لوحدانية الله، والله أشد منهم قوة وبطشاً.. هذه دروس وعبر فهل من يعتبر؟ قال تعالى: ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعثَ في أمِّها رسولاً، يتلو عليهم آياتنا وما كنّا مُهلكي القُرى إلاّ وأهلُها ظالمون﴾[4].

6 ـ هود عليه السلام:

من أنبياء الله الصالحين وهو «هود بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح» عليهم السلام، ويقال أنه «عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح» عليهم السلام، وفي قول آخر هو «هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح» عليهم السلام. وهو من قبيلة تدعى الخلود وكان أوسطهم نسباً وأصبحهم وجهاً ويقال أنه أول من تكلم بالعربية «وأن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أول من تكلم بالعربية الفصحى» أرسله الله إلى قوم عاد نبياً وهادياً فدعاهم إلى عبادة الله، وأمرهم أن يوحدوه، وأن يذروا من العبادات

---

(1) سورة فصلت، آية: 16.

(2) سورة القمر، آية: 18-21.

(3) سورة الحاقة، آية: 6-8.

(4) سورة القصص، آية: 59.

ما لا فائدة منه. . وأن يكفوا عن أذى الناس وظلمهم، وكان يذكرهم دوماً بما أنعم الله عليهم وما أمدهم به وينصحهم بتقوى الله وتوحيده وأنذرهم بأن الله تعالى سيبيدهم ويستخلف قوماً غيرهم وهو يقول لهم: انتظروا حلول العذاب بكم فسفهوه وكذبوه وتجاهلوا حججه الناصعة وبراهينه القاطعة قائلين له: **﴿يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين﴾**[1] تحمل منهم كل أذاهم وظلمهم، وكان لهم دوماً الناصح الأمين، وكانوا به دوماً مكذبين. . قال الله تعالى: **﴿كذبت عاد المرسلين، إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون، إني لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون﴾**[2] وكانوا يردون عليه بقولهم: **﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد أباؤنا. فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾**[3]. وهم يتمادون عليه في تكذيبه، واتهموه في عقله، وقذفوه بالجنون واعتبروا ذلك من شدة تأثير آلهتهم عليه حتى أصبح مجنوناً لا يعي ما يقول: وهم يقولون له: **﴿إنَّا لنراك في سفاهةٍ وإنَّا لنظنك من الكاذبين﴾**[4]. وقد سكن هود بلاد حضرموت بعد أن هلك قوم عاد إلى أن مات ودفن في شرقي بلادهم على نحو مرحلتين من مدينة «تريم» قريباً من الأحقاف بلاد قوم عاد. . . وقد روي عن علي بن أبي طالب أنه ذكر صفة قبر هود عليه السلام في بلاد اليمن، ويقال أنه دفن في فلسطين، ويذكر آخرون أنه دفن في دمشق وبجامعها في مكان من حائطه القبلي كما يزعم بعضهم أن فيه قبر هود عليه السلام. والله أعلم.

---

(1) سورة هود، آية: 53.

(2) سورة الشعراء، آية: 123-126.

(3) سورة الأعراف، آية: 70.

(4) سورة الأعراف، آية: 66

الفصل الثاني

قوم ثمود

1 ـ قبائل ثمود:

من العرب البائدة، كقوم نوح وهود ولوط وأصحاب الأيكة، وقيل أنهم من بقايا العماليق جاؤوا من غرب الفرات أو أنهم من الذين طردهم «إحمس» ملك مصرفي عهد الأسرة (18) وقد أتقنوا صناعة النحت يوم كانوا في مصر ولذلك نحتوا لهم بيوتاً في الجبال ونقر بعضها في الصخر. . يذكر بعض المؤرخين أنهم بقية من قوم عاد، وهذا ما يؤيده قول النبي صالح لقومه: ﴿**واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد، وبوأكم في الأرض، تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً**﴾[1]. وقد ورد ذكرهم كثيراً في القرآن الكريم منفرداً أو مقترناً بأسماء شعوب بائدة أخرى ليكونوا عبرة للكافرين، وتضرب بهم الأمثال، ويذكر بمصير قوم ثمود، الذين استحبوا العمىٰ على الهدىٰ، والكفر على الإيمان، واستمروا في طغيانهم يعمهون. . قال تعالى: ﴿**وأما ثمود فهديناهم، فاستحبوا العمى على الهدى، فأخذتهم صاعقة العذاب الهُون بما كانوا يكسبون**﴾[2]. يعود تاريخهم إلى ما قبل الميلاد بعدة قرون، واستمروا حتى بعد ميلاد المسيح وقد جاؤوا بعد قوم عاد الهالكين، وانتهى أمرهم قبل خروج موسى

---

(1) سورة الأعراف، آية: 74.

(2) سورة فصلت، آية: 17.

عليه السلام بني إسرائيل من مصر، وهم أهل خصب وزرع، وماشية كثيرة وجنّات وفيرة، وعيون غزيرة يشربون منها ويسقون ماشيتهم وزرعهم، يؤكد ذلك قول النبي صالح لهم: **﴿أتتركون في ما ها هنا آمنين * في جنّات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم * وتنحتـون من الجبال بيوتاً فارهين﴾**[1]. وكانوا من الوثنيين عبدة الأصنام والأوثان وكانوا بالله كافرين..

2 ـ مساكن قوم ثمود:

كان مُلْك ثمود ممتداً بين الشام والحجاز إلى وادي القرىٰ على طريق الحج لمن جاء من الشام. ومدائن صالح عاصمتهم وهي الحِجْر القديمة باقية إلى اليوم. وكانت ديارهم بفج الناقة في دومة الجندل والحِجْر وغربي واحة تيماء التي كانت أهم مراكز عبادتهم ويُعتَقدُ أنه وادي القرى وأن الحِجر هي إحدى قرى ذلك الوادي.. قال تعالى: **﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾**[2] وكانت بيوتهم منحوتة في الجبال ورسومهم باقية وآثارهم ظاهرة: **﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين﴾**[3]. أما أبواب بيوتهم الصخرية فكانت صغيرة ومساكنهم على قدر مساكن أهل عصرنا فلم يكونوا كقوم عاد ضخام الأجسام أقوياء البنية. قال تعالى: **﴿وعاداً وثموداً وقد تبيّن لكم من مساكنهم﴾**[4].

3 ـ من هو ثمود؟:

هو الجد الأكبر في قبيلة ثمود التي سميت باسمه وهو حسب رواية التوراة «ثمود بن جاثر (عابر) بن إرم بن سام بن نوح»[5]. وقد امتد ملكه مدة (200) سنة بين الشام والحجاز إلىٰ ساحل البحر الحبشي.. ثم جاء بعده جندع بن

---

(1) سورة الشعراء، آية: 146-149.

(2) سورة الفجر، آية: 9.

(3) سورة الحجر، آية: 82.

(4) سورة العنكبوت، آية: 38.

(5) وقيل أنه ثمود بن عامر بن إرم بن سام، وقيل أنه ثمود بن عاد بن عوص بن إرم.

عمرو بن الذبيل بن إرم بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، وكان ملكه مدة (327) سنة وفي عهده ظهر النبي صالح عليه السلام وعاصره (40) عاماً[1].

4 ـ ديانة قوم ثمود:

كان أهل ثمود كافرين عاكفين على عبادتهم الباطلة وهي عبادة الأوثان، يعبدون الأصنام ويشركونها مع الله في العبادة وقد كفروا ربهم، قال تعالى: **﴿كذبت ثمود المرسلين * إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعونِ﴾**[2]. وقال عز من قائل: **﴿ألا إن ثموداً كفروا ربهم ألا بعداً لثمود﴾**[3].

وكانت لهم عدة آلهة منها الإله «صلم» في حوالي القرن (6) ق. م. وكانوا يرمزون له برأس ثور وكان مقره في مدينة تيماء ومن آلهتهم أيضاً: هبل، رضو، وهي قريبة بتسميتها من آلهة قوم عاد. . وقد أرسل الله جل شأنه نبياً لهم ليهديهم إلى دين الله واعظاً ومذكراً لهم بنعم الله وآياته التي تدل على توحيده وأنه لا شريك له وهو وحده جدير بالحب والعبادة. . وقال تعالى: **﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بيّنة من ربكم، هذه ناقة الله لكم آية، فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾**[4]. فكذّبوه وأعرضوا عن آياته، قال تعالى: **﴿ولقد كذّب أصحاب الحِجْر المرسلين * وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين﴾**[5].

5 ـ النبي صالح ومعجزته:

رسول من قبيلة ثمود، يعود نسبه إلى أنّه: صالح بن عبيد بن أسف بن ماشخ بن عبيد بن حاذر بن ثمود. كما قال الحافظ البغوي وعن وهب أنه.

---

(1) المسعودي: مروج الذهب.
(2) سورة الشعراء، آية: 141-143.
(3) سورة هود، آية: 68.
(4) سورة الأعراف، آية: 73.
(5) سورة الحجر، آية: 80-81.

ما فعلوه. فوعدهم العذاب من عند الله ولكنهم لم يُصَدِّقوه فيما يقول: **﴿فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾**[1].

أنذرهم رسول الله بعذاب أليم خلال أيامٍ ثلاث، فقالوا له مستهزئين: يا صالح متى يكون ما وعدتنا مِنَ العذابِ مِنْ ربك؟ فكان ذلك يوم الأربعاء. فقال: تصبح وجوهكم يوم «مؤنس» الخميس مصفرة، ويوم «العروبة» الجمعة محمرة، ويوم «شيار» السبت مسودة ثم يصحبكم العذاب يوم «أول» الأحد.. **﴿فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾**[2]. وهَمَّ التسعة بقتلِ النبي صالح وقالوا إن كان صادقاً عاجلناه قبل أن يعاجلنا وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته. فأتوه ليلاً، فحالت الملائكة بينه وبينهم وأمطرتهم بالحجارة ومنعه الله منهم، وحلَّ بهم ماقد وعد، وفي ليلة الأحد خرج رسول الله من بين ظهرانيهم مع مَنْ خَفَّ مِنَ المؤمنين. وأتاهم العذاب يوم الأحد، ليس العذاب فقط بل كان الهلاك والدمار نتيجة كارثة حلت بهم إما بركاناً أو زلزالاً أرضياً أطاح بهم أو أنها الصاعقة المصحوبة بصوت عظيم ورجفة قوية أو أنها الطاغية..

قال تعالى: **﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾**[3] وقال: **﴿فأخذتهم الرَّجْفَةُ فَأصبحوا في دَارِهم جَاثمين﴾**[4] وقال كذلك: **﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة في ديارهم جاثمين﴾**[5]. وهلكوا جميعاً ولم يبق منهم أحد، **﴿فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنَّا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون * وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾**[6] هذا عقاب من ظلم وهذا جزاء من طغى وتكبَّر وكَذَّب بالنُّذُر فويلٌ لهم وويلٌ لمن لا يعتبر.

---

(1) سورة الأعراف، آية: 77.
(2) سورة هود، آية: 65.
(3) سورة الحاقة، آية: 5.
(4) سورة الأعراف، آية: 78.
(5) سورة هود، آية: 67.
(6) سورة النمل، آية: 51-53.

﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المُحتَظِر﴾[1] إلا مَن آمن بالله وأخلص في عبادته، فقد نجًاهم الله مما حاق بهم من العذاب. وقد كان عدد الذين نجوا مع صالح (120) نسمة وكان الذين هلكوا أهل (5000) بيت.. ويقال أن النبي صالح ومن معه توجهوا إلى الرملة في فلسطين وأقاموا فيها، وقول آخر بأن رسول الله صالح توجه إلى مكة ومن معه، وأقاموا فيها حتى ماتوا وقبورهم توجد غرب مكة... والله أعلم.

---

(1) سورة القمر، آية: 31.

الباب الثالث

الديانات في مصر القديمة
" الديانة الفرعونية "

الديانة الفرعونية

1 ـ تمهيد:

مصر الراقدة على ضفاف النيل منذ الأزل والتي نقرأ على أرضها سطور تاريخ مجيد كتبه الإنسان على صفحات الزمان الغابر من خلال حضارة دامت عهوداً طويلة امتدت منذ حوالي (3100 حتى 525 ق. م) إذ احتلها الفرس، والتي حكمتها أجيال متعاقبة من الفراعنة ينتمون إلىٰ ما لا يقل عن 26 أسرة حاكمة، إنها رمز الحضارات الكونية وفيها تكوَّن ضمير الإنسانية، وهي باعثة التطور والتاريخ من خلال صفحاته المجيدة ومما تركه الأقدمون من آثار خالدة، تنتشر هنا وهناك، وقد فسر العلماء كل غموض في حياة البشرية..

فمصر رمز الفكر البشري الناضج قولاً وعملاً. وفرعونها الإلٰه ابن الشمس يبسط نفوذه فوق هذه البقعة من الكون يفعل ما يريد، ولا يفعل ما لا يريد، وفيها ظهرت أرفع مستويات الحضارة التي عرفها التاريخ القديم، وفيها كانت أرقىٰ معالم العبادات ومظاهر الأديان من خلال بناء المعابد الفخمة والإهرامات الضخمة والمسلّات الحجرية والهياكل والقصور وغير ذلك (**الشكل 8**).

كل هذه الأمور رموز لانبعاث حضارة حقيقية، ونبراس لنهضة علمية قديمة رسّخت جذورها في أعماق أرض مصر الحضارة والدين، وترمز إلىٰ الإيمان الكامل والاعتقاد الجازم بيوم القيامة، يوم البعث والحساب، ثم الحياة

قامت على تقديس الثالوث المكون من «أوزيريس» الأب و«إيـزيس» الأم وحورس الابن (**الشكل 10**). ويرجع الجميع إلى أصل واحد. . وقد انتقلت هذه العقيدة من الثالوث الإلٰهي إلى تقديس التاسوع الإلٰهي الذي يرجع إلى قوى الطبيعة المؤثرة في تحولات الأشياء، فهم يعتقدون أن الماء هو العنصر الأول الذي تكونت منه كل الأشياء في الكون ومن أهم الآلهة وأشهرهم الإلٰه «رع» إلٰه الشمس والنور وهو رمز كل الآلهة. وخالق العالم وكل ما له وجود وهو أقدم الآلهة الذين عُبدوا في مصر. وهو والد الآلهة جميعهم. ومنذ عام (3700 ق. م) من عهد السلالة الرابعة عُدّ «رع» إلٰه السماء العظيم، بل مَلِك الآلهة كافة، وكل الكائنات المقدّسة والأموات الأبرار الذين يسكنون هناك، وهو الذي يقرر موقع الأبرار في السماء، وقد حافظ «رع» على مكانته بـوصفه الـرئيس الأعظم للمجموعات الإلٰهية على الرغم من الشهرة التي حصل عليها «آمون». وهذه التراتيل[1] موجهة إلى رع مأخوذة عن أقدم النسخ الطبيعية لكتاب الموتى: «إليك التجلّة، يا من أتيت بوصفك خبيراً «خالق الآلهة» ألا إنك لتشرق وتسطع وأنك لتصنع النور ليكون في أمك نوت «السماء». ألا إنك متوّج مَلكاً على الآلهة، ألا إن أمك «نوت» تلقاك بالترحاب مفتوحة الذراعين وتستقبلك أرض «مانو» بالرضى وتحتضنك الرّبة «ماعت» صبحاً ومساءً. تعالوا واهتفوا لرع سيد السماء وخالق الآلهة ومجدده بطلعته البهية حين يأتي في الصباح على زورقه المقدس، تبتهج الآلهة حين يرونك تشرق، يا رع، وحين تغمر أشعتك العالم بالنور». وهذه ترتيلة أخرى تمجّد الإلٰه رع وتذكر قوته وقدرته، وتعده الخالق الباقي: «لك ترتيلة حمد، أنت يا من تشرق كالذهب. . ويا من تغمر العالم بالنور في يوم ميلادك أمك تمنحك الميلاد وأنت على الفور تمنح النور لدرب قرصك أنت أيها النور العظيم الذي يتألق في السموات، تجعل أجيال البشر تزدهر من خلال فيضان النيل وتجعل البهجة في الأيدي كلها، وفي المدن جميعها وفي الهياكل طراً».

أوزيريس **Osiries**: إلٰه القيامة ورمز الخلود ورب الموتى وديّانهم وأملهم.

---

(1) تراتيل من بردية آني Ani.

ظهر في عهد السلالة الثامنة عشرة، فكان نداً لرع ثم نسبت إليه صفات الله ثم صفات الآلهة جميعها وكانت تنسب إليه صفات خارقة فهو الذي نهض من بين الموتى، ونال حياة الخلود وقد وهبته الآلهة سلطة منح الحياة الأبدية للأموات وفي عهد السلالة 12 حوالي (2500 ق م) أصبح إلٰهاً كونياً ثم إلٰهاً قومياً، وظهر للبشر بوصفه الرب الديّان للموتى، وهو خالق العالم وكل ما فيه إنه ابن «رع» الذي أصبح يعادل أباه ويكافئه وأخذ مكانه إلى جانبه في السماء...

إيزيس **Isis**: أم حورس وزوجة «أوزيريس» وأخته تلقّب بسيدة السّحر لها رأس امرأة وهي إلٰهة الشمس بعد غروبها.

حورس **Horis**: «الإلٰه العظيم» ويسمى الصقر الذهبي وهو ابن أوزيريس من إيزيس. وربما كانت عبادته أقدم عبادة في مصر ويقال إن روحه بثلاث شعب: أولها: الروح الدنيا. وهي التي تحل في فرعون الزمان، ثم تنتقل إلى من يليه وتغيض عليه بقدسيتها. ثانيها: الروح العليا، الحاكمة في السموات والأرض. وثالثها: روح تبقى في جسد فرعون الميت وتقوم بالنصح لفرعون الحي، ولا تبقى هذه الروح إلا إذا بقي الجسم متماسكاً.

سب **Seb**: «ابن شو» وهو الرئيس الوراثي للآلهة و«والد الآلهة» وهم «أوزيريس» وإيزيس و«ست» و«نفتيس» وكان في الأصل إلٰه الأرض. له رأس إنسان، ثم صار أحد آلهة الموتى، وهو صانع البيضة البدئية التي انبثق منها العالم.

نوت **Nut**: وهي زوجة «سب» وأم «أوزيريس» وآلهة الليل، وتمثل مبدأ التأنيث في قصة الخلق وتعد أم الآلهة وكل الأشياء الحيَّة. ترسم على شكل أنثى تسافر الشمس على جسدها وأحياناً ترسم كبقرة لها رأس امرأة، شجرتها المقدسة هي شجرة الجميز.

تمو **Timo**: أو أتمو وهو إلٰه الغروب وصانع الآلهة، وهو صانع البشر أيضاً، وإنه قد اغتصب مكانة «رع» بين الآلهة المصريين وهو على شكل رجل وعلى رأسه تاج الشمال وتاج الجنوب وعبادته قديمة تعود إلى السلالة الخامسة.

يمثل عندهم في شكل ذكر وأنثى في آن واحد فله من الأنثى ثدياها ومن الذكر لحيته الطويلة التي تكتنف وجهه ويظهر تقديس المصريين لنهر النيل واحترامهم إياه في ترنيمة تعرف باسم «عبادة النيل» تعود إلى زمن قديم من تاريخ مصر يعتقد بأنها قيلت بمناسبة أحد الاحتفالات بالفيضان جاء فيها: «المجد لك أيها النيل الذي ينبع من الأرض ويحمل الخير لمصر، ذاك الذي يسقي المروج، خلقه «رع» لينعش القطعان، ذاك الذي يسقي الصحارى التي لا ماء فيها: ذَوْبُه يتساقط من السماء، يا منبت الذرة ومحي الضفادع، يا سيد الأسماك ومنبت القمح والشعير ومعمر المعابد».

4 ـ أسطورة أوزيريس «الإله المقدس»:

تعتمد العقيدة الرسمية عند قدماء المصريين على أسطورة قديمة ترجع في نسبتها إلى ما قبل التاريخ وقد سجلت على جدران معبد «إيزيس».

تقول الأسطورة: أنه في قديم الزمان كان يحكم بلاد مصر ملك اسمه «سب Cab» وكان له ولدان هما «أوزيريس» و«ست» وبنتان هما «إيزيس» و«نفتيس». وقد زوج الملك ابنه «أوزيريس» من أخته «إيزيس» وزوج ابنه «ست» من أخته «نفتيس». كان «أوزيريس» طيب القلب عادلاً، وقد ملّكه أبوه السهول والأنهار والوديان وقد أحبه الناس كثيراً وكان موسيقياً بارعاً. وكان «ست» حاقداً شريراً، وكان مزيجاً من الحمار والخنزير. وقد ملّكه أبوه أراضي الصحارى القاحلة والرمال القفراء. وقد حقد على أخيه «أوزيريس» وتآمر مع جماعة تؤيده، فصنع صندوقاً من الذهب الخالص بحجم «أوزيريس»، وزعم أنه سيهدي هذا الصندوق لمن يتسع له في حفل أقامه على أرض فيلة[1]. وبالطبع لم يتسع الصندوق لغير «أوزيريس» الذي يتميز بطول قامته، وعندما

---

(1) فيلة: جزيرة في نهر النيل عند الشلال الأول قرب أسوان، وقد وجد فيها معابد فرعونية هامة.. وكانت تعتبر لؤلؤة مصر القديمة يحج إليها المصريون باعتبار هذا المكان منبعاً لنهر الخير، وتقديساً للآلهة «إيزيس».

استلقى «أوزيرس» في الصندوق أمر «ست» بإغلاقه عليه، وإلقائه في النيل، فتقاذفته الأمواج حتى مدينة «رشيد». ثم تناقلته أمواج البحر حتى شواطىء جبيل «بيبلوس»، وقد توفي داخل الصندوق.

بدأت تبحث زوجته «إيزيس»، ووظفت كل ما لديها من علوم السحر الذي برع فيه المصريون فوصلت إلى مكان الصندوق، فتحايلت على ملك «بيبلوس» بعد أن كشفت له عن شخصيتها، فسمح لها باسترداد الصندوق. وتتابع الأسطورة الحديث، فتقول: وعندما حل المساء نامت فوق تابوت زوجها فجاءتها الرؤيا وهي نائمة بأنها حملت من روح زوجها، وعندما عادت إلى الجزيرة اختفت هناك ومعها الصندوق خوفاً من «ست» الحاقد وظلت مختفية حتى ولدت «حورس»، ولكن «ست» هاجمها وأخذ منها التابوت عنوة، ومزق جثة أخيه قطعاً بعدد مقاطعات مصر حينذاك، ونثر هذه الأجزاء وفي كل مقاطعة وضع جزءاً من الجثة. ومع ذلك لم تيأس الزوجة المخلصة لزوجها، فواصلت البحث حتى عثرت على الأجزاء كلها ما عدا قدم «أوزيريس» اليمنى التي وجدت في جزيرة «بيجة» مقابل جزيرة فيلة في نهر النيل، وصارت المياه تنساب من بين أصابعها تحمل معها الطمي والخصب لتنعم أرض مصر بالخير من فيضان النهر، وجمعت الأشلاء من كل مكان. ووضعت كل جزء في موضعه من الجسم وقرأت عليه بعضاً من التعاويذ والرقي السحرية، فعاد إلى الحياة فترة قصيرة بعد أن كابد الموت والتمثيل بجسده على أيدي قوى الشر. وبعدها أصبح «أوزيريس» ملك العالم السفلي وقاضي الموت، فقد قهر الموت، وعاد مرة أخرى للحياة، وكل المستقيمين يمكنهم أن يقهروا الموت ويعودوا للحياة من جديد.

أما حورس الابن فقد غذّت فيه أمّه روح الانتقام من عمه «ست» الذي ينكر نسب ابن أخيه ويدّعي أنه الوريث الوحيد لعرش أخيه في المملكة الإلهية، وخاضا معاً صراعاً مريراً..

انتصر حورس على عمه وجلس على عرش أبيه وتوج بالتاج الأبيض في مقر حكمه، وأصبح حورس الإله برأس الصقر الذهبي، ولم ينته النزاع بينهما بل أخذ يعمل كل منهما على إفساد أعمال الآخر في الكون. وأصبحت دائرة

يغيب، يملأ الدنيا، ليس كمثله شيء، ويوجد في كل مكان». هذا وصف متميز في وحدانية الإله في مصر. ولكن الحقيقة كانت غير ذلك. حيث يعود «ماسبيرو» ويتراجع عن فكرته هذه في موضع آخر من كتبه. فيقول: «تدلنا الآثار على أنه كان لكل من الرهبان منذ أزمنة الأسرة الأولى آلهته الخاصة، وهذه الآلهة مقسمة إلى ثلاث فرق متباينة الأصول. آلهة الموتى. وآلهة العناصر. والآلهة الشمسية». .

فالآلهة متعددة في مصر. وهذا أمر واقع، ولكن تعديلاً طرأ عليها، فاندمجت الآلهة وتوحدت في إله واحد أحياناً، وظهرت الدعوة إلى عبادته.

ويمكن القول أن مدينة زاهرة وحضارة عامرة استمرت زهاء خمسة آلاف سنة لا يعقل أن تكون ديانتهم. على وتيرة واحدة. بل تحولت وتغيرت من آلهة متعددة إلى إله موحد وإنْ كانت لا تعتمد على أصل سماوي في ديانتهم. حتى أنّ الديانات السماوية قبل الإسلام أصابها التحريف والتغيير والتبديل، كما حصل في كل من التوراة والإنجيل. . وقد دخلت إلى مصر ديانات تدعو إلى عبادة الإله الواحد. إمّا عن طريق حاكم مثل «اخناتون» أو عن طريق رسول مبين مثل (إبراهيم ويوسف وموسى. .) عليهم السلام.

(أ) إبراهيم الخليل في مصر:

دخل إبراهيم الخليل مصر، قادماً من أرض فلسطين، بعد أن أصابها الجدب والقحط فانتقل منها إلىٰ مصر يحمل معه إيمانه بالله واعتقاده بوحدانيّته، وبدينه الحنيف، وكانت ترافقه زوجته سارة وكان قد ترك بلاد الكلدان عبدة الأوثان. اختلف إبراهيم في مصر مع فرعون حاكم البلاد. وكانت قصته مع سارة عندما أخبرته أنها أخت إبراهيم وليست زوجته. . . وقد دعا إبراهيم إلى عبادة الله وحده وترك ما يعبد فرعون وقومه من الآلهة العديدة. ولكن فرعون مصر أمره بالخروج من مصر، والعودة إلى الأرض التي كان فيها، ومعه أنعام وعبيد ومن المال الشيء الكثير، وصحبتهم «هاجر» القبطية المصرية إلى أرض فلسطين. .

جاء في سفر التكوين[1]: «وحدث جوع في الأرض فانحدر إبرام إلى مصر، ليغترب هناك، لأن الجوع في الأرض كان شديداً». لقد كانت دعوة إبراهيم إلى توحيد الله وعبادته إلهاً واحداً، قبل ظهور «أخناتون» بزمن طويل، فكان إبراهيم أول مؤمن بالله دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له. قال تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمّة، قانتاً لله حنيفاً، ولم يكُ من المشركين﴾[2].

لقد كان إبراهيم أول من دعا إلى عبادة الله ووحدانيته، وأول من بشر بالدين الحنيف في مصر..

(ب) يوسف ودعوته في مصر:

وردت قصة يوسف مع إخوته أولاد يعقوب وما جرى له بسببهم مفصلاً في القرآن الكريم. كما ورد ذكرها أيضاً في كتاب العهد القديم في سفر التكوين، وفي القصّتين تشابه:

1 ـ تقول القصة القرآنية[3]: إن إخوة يوسف ألقوه في الجب، والتقطه بعض المارّة من التجار واشتراه منهم عزيز مصر، وهو وزير الخزانة المصرية حينذاك، وكما يقول محمد بن إسحق أنه «أطفر بن روحيب» وفي رواية أخرى «قطغير» وهو الذي قال لامرأته «أكرمي مثواه» وهي فيما يقال «راعيل بنت رعاييل»، ويقال أن اسمها «زليخة» وربما كان هذا لقبها. وكان ذلك في عهد «الريان بن الوليد» ملك مصر حينذاك، وهو من العماليق.. ولا نريد الدخول بالتفاصيل في حياة يوسف إلا فيما يهمنا منها، وهو دعوته للتوحيد وعبادة الله وحده. وقد دخل مصر حوالي (1600 ق. م) ودخل بعده بنو إسرائيل بـ (27 سنة) في عهد الأسرة (16) عندما قال لإخوته «وائتوني بأهلكم أجمعين». ورد في القرآن الكريم ما يفيد أن يوسف عليه السلام دعا أهل مصر إلى عبادة الله

---

(1) سفر التكوين، الاصحاح 12.
(2) سورة النحل، آية: 120.
(3) سورة يوسف،

حتى لا يصاب معبودهم بأذى، وكانت القطة عندهم هي إلٰهة الحب، وكانت أفعىٰ الكوبرا حارسة المقابر، وغير ذلك ولكل منها قصّةٌ وحكاية. .

7 ـ دوافع عبادة الحيوانات:

قبل أن تتوحد كلمة المصريين قديماً، كانت القبائل تتصارع فيما بينها فتنتصر قبائل وتنهزم أخرى، وكان يرمز المنتصرون لقراهم ببعض الحيوانات القوية ويتخذونها شعاراً لهم، وأما قرى أعدائهم فكانوا يرمزون لها ببعض الحيوانات الضعيفة. وقد استمرت تلك الرموز تدل على ما تشير إليه زمناً طويلاً، حتى نسي الناس المعنى وبقي الرمز، واقترنت أسماء تلك الحيوانات القوية والضعيفة بالتقديس والتأليه، فاتخذوها أرباباً مقدسةً لهم دون تمييز بين قويّ أو ضعيف وبدون النظر إلى ما ترمز إليه هذه الحيوانات أو تعنيه، وصارت عبادتها على أنها آلهة، لا أنها رموز تدل على غالب أو مغلوب. . . ويمكن القول بأن المصريين اتخذوا منها آلهة بسبب خوفهم منها، كأفعىٰ في الصحراء، والتمساح في النيل، وكانت صفة القدسيّة والألوهية للقوة الكامنة داخل هذه الحيوانات وليس للحيوانات ذاتها. إن هذه الحيوانات لم تكن تُعْبد لأنها آلهة، وإنما كانت رمزاً للآلهة وكان لكل إلٰه من آلهتهم رمز حيواني خاص به، فيرمز لآمون برأس كبش ولفتاح برأس عجل وأنوبيس برأس ابن آوى وحورس برأس صقر. . . الخ.

وتقديس الحيوانات ليس أمراً مطلقاً وعاماً، فلكل إقليم حيوانه المقدس، ويمكن أن يكون حيوان ما مقدساً في إقليم وغير مقدّس في إقليم آخر، فالتمساح مثلاً كان يعبد في طيبة بينما كان يطارد ويقتل في غيرها، وعندما سَرَت فكرة تقديس الحيوان إلى عامّة الناس لم يعبدوه على أنه رمز للآلهة، بل عبدوه على أنه من الآلهة نفسها. . . وهكذا كان. . .

ومن دوافع عبادة الحيوان أيضاً اعتقاد المصريين الأقدمين بأن الآلهة تحل في الأجسام ولا يمكن أن يتجرد العالم الروحاني من الجثمانية، ولا بدّ للروح من جثمان تحلّ فيه، حتى عند الموت فهي تفارقه ثم تعود إليه سريعاً، وكذلك

الآلهة لا بد لها من مأوى تأوي إليه في الحياة وجسم تحلّ فيه، فزعموها في الأحياء التي لها علاقة بالخصب والإنتاج والثمر والبذور، فقد حلّت في ثور أو في قط، أو غير ذلك، وعُبِدت هذه الحيوانات على أنها أوعية قد حلّت فيها الآلهة، وليست هي الآلهة نفسها.

عبادة العجل: يقول «هيرودوت» في وصف العجل «آبيس» الذي وافقت أوصافه العلامات عند الكهنة: «آبيس هذا عجل شاب لا تستطيع أمّه أن تلد غيره، ويقول المصريون أن بريقاً يهبط عليها من السماء وإن هذا البريق ينبئها بأنه الإله «آبيس». ويُعرف هذا العجل ببعض العلامات، فشعره أسود، وفي جبهته غرّة مثلثة بيضاء، وعلى ظهره صورة نسر، وتحت لسانه صورة عجل، وشعر ذيله مضاعف».

وهذا الوصف يعني أنه ليس كل الأبقار مقدسة، بل العجل «آبيس» وحده من بين البقر هو الإله، وقد اختير لصفات موجودة فيه ميزته عن غيره من الأبقار، وعلى مرور الزمن أصبح المصريون يعتقدون أن الآلهة تحل في هذا النوع كلّه من الحيوان، فالبقر كله مقدس والقطط صارت كلها مقدسة، وإذا مات الحيوان الإله عمّ الحزن كل مصر، ومن جهة أخرى فالكهنة لا يتركونه يعيش أكثر من (25 سنة)، فإذا بلغها يغرقونه في عينٍ مخصصةٍ للشمس، وقد دفعتهم عقيدة الحلول هذه إلى اعتقادهم أن الحيوانات المقدسة أوتيت علم الغيب، والتعريف بالمستقبل ولهم في ذلك أساطير وقصص خيالية عجيبة. . .

8 ـ مظاهر التوحيد في المعتقدات المصرية:

كثرت الآلهة في مصر القديمة بشكل يفوق الوصف من حيث العدد والنوع. وهذه الظاهرة غريبة في مثل هذا المجتمع الحضاري المتميز الذي لم يرْقَ ولم يزدهر إلا بتوحيد مظاهر الدين والعبادة، وتوحيد الآلهة. يقول العلامة «ماسيبرو» في وصف الإله الواحد في مصر «كان إله المصريين واحداً، فرداً كاملاً، عالماً بصيراً، لا يدرك بالحس، قائماً بنفسه حياً، له الملك في السماوات والأرض، لا يحتويه شيء، فهو أب الآباء، وأم الأمهات، لا يفنى ولا

الواحد.. وقد ورد ذلك على لسان يوسف ما قاله لصاحبي السجن، قال تعالى: **﴿إني تركت ملّة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون * واتّبعْتُ ملّة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرِك بالله من شيء، ذلك من فَضْل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون * يا صاحبي السجن: أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار * ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**[1]. هكذا كان يدعو الناس وهو في السجن إلى عبادة الله الواحد القهار، وكان يصد الناس وينهاهم عن كل ما اقترفوه من كفر أو إشراك بالله، وكان يقول لهم دائماً: **﴿قولوا آمنا بالله، وما أُنْزِل إلينا، وما أنزِلَ إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط﴾**[2]. هذا كلام حق على لسان يوسف النبي الصادق، وقد مكن الله ليوسف في أرض مصر حتى استلم خزانة الدولة وأصبح وزيراً للمالية عند فرعون، وصار له سلطان وجاه فقد آمن به من آمن، وكفر به من كفر. قال تعالى على لسان مؤمن من آل فرعون عندما حثهم على عدم قتل موسى: **﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات، فما زلتم في شك مما جاءكم به، حتى إذا هلك قلتم: لن يبعثَ الله من بعده رسولاً. كذلك يضلُّ الله من هو مسرف مرتاب﴾**[3] لقد كان يوسف نبياً صادقاً، أرسله الله إلى مصر، وشعب مصر لهدايتهم وإرشادهم وقد نشأ على أكمل الأوصاف، فقد علم بما علم من آبائه وأجداده الأنبياء كما علمه الله من تأويل الأحاديث..

سُئِل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم؟ قال رسول الله: «يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» صدق رسول الله.

2 ـ ورد في قاموس الكتاب المقدس عن قصة يوسف ما يلي: يوسف اسم عبري معناه «يزيد»، وهو بكر يعقوب من زوجته «راحيل»، والحادي عشر من أولاد يعقوب الإثني عشر، ولد في «فدان آرام»، وأثارت أحلامه غِيْرَة إخوته،

---

(1) سورة يوسف، آية: 37-40.

(2) سورة البقرة، آية: 136.

(3) سورة غافر، آية: 34.

فنقموا عليه وفكروا في وسيلة للتخلص منه، ولما بلغ السابعة عشر من عمره أرسله أبوه إلى «شكيم» حيث كان إخوته يرعون أغنامهم ليتفقد أحوالهم، ثم لحق بهم إلى «دوثان» وعندما اقترب منهم فكروا في قتله، ولكنهم عدلوا عن هذه الفكرة بسبب اقتراح أخيهم «رأوبين»، وطرحوه في بئر قديمة مهجورة لا ماء فيها، وقد بيع إلى قافلة إسماعيلية كانت في طريقها إلى مصر. أخذ الإسماعليون يوسف إلى مصر، وباعوه إلى «فوطيفار» خصي فرعون ورئيس الشرطة المصرية، فظهرت مقدرة العبد الشاب فوكله «فوطيفار» على كل بيته وعندما اتهمته امرأة «فوطيفار» ظلماً وبهتاناً، ألقي في السجن سنوات، وهناك اكتسب ثقة السجان فوكله على جميع المسجونين، وقد منحه الله القدرة على تفسير أحلام رئيس السقاة ورئيس الخبازين عند فرعون، وقد كانا في السجن، كما أنه تمكن من تفسير حِلْمَي فرعون، وذكر أنه سوف تأتي سبع سنين شبع وسبع سنين جوع، واقترح أن يعين شخص يجمع الفائض في سبع سنين الشبع ويخزنه لسني الجوع، فوافق فرعون على الاقتراح وعفا عنه، وقد عينه رئيساً لمخازنه، فأصبح يوسف في وظيفته هذه من الرؤساء في الدولة وثانياً في المرتبة بعد فرعون وكان يوسف في الثلاثين من عمره. أعطاه فرعون «أسنات» زوجة له وكانت من أسرة كهنوتية في «أون» أو عين شمس. ذهب إخوة يوسف إلى مصر لابتياع حنطة. ولم يعرفوا يوسف أما هو فعرفهم. وقد أسكن قومه في أرض «جاسان» كي لا يحتكوا بأهل البلاد ويبقوا منعزلين، مات يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين، وحُنِّطَتْ جثته وفقاً لعادات المصريين. وعندما خرج العبرانيون من مصر بقيادة موسى نقلوا رفاته حسب وصيته إلى أرض كنعان ونفذت الوصية ودفن نهائياً بالقرب من شكيم بجانب بئر يعقوب، وقيل أن جثته نقلت بعد ذلك إلى حبرون ودفن في مكفيلة مع أجداده... لم تختلف رواية التوراة كثيراً عما ورد في رواية القرآن الكريم، فكان نبياً صادقاً داعياً إلى عبادة الله حيث تعددت الآلهة في مصر وكثرت الأصنام والأوثان...

(جـ) دعوة موسى إلى فرعون:

ومن الدعوات إلى توحيد الله في مصر، دعوة موسى عليه السلام الذي قام

البشر، وإله الخير لأنه يبعث الحياة ويملأ العالم خيراً بوساطة أشعة الشمس الدافئة ويملؤه بركة، وأن الشمس هي مبعث الحياة، خلق الله حرارتها لتدفىء الناس وتبعث فيهم الحياة وفي الحيوانات القوة، وفي النباتات النمو والارتقاء. (شكل 14). . وتعد ثورة أخناتون الدينية خطوة رائعة نحو توحيد الآلهة حيث شملت كل أرض مصر من شمالها إلى جنوبها، وأثرت فيها منتهكة حرمة كل الآلهة القديمة، فارضةً إلهاً واحداً لا إله غيره، هو الإله «آتون» وأخذ يتتبع الكهنة وقضى على سحرهم وشعوذتهم وأخذ منهم أموالهم وألزمهم بعبادة الإله الواحد الجديد مرغمين.

يقول آرثر ويكال في كتابه «حياة أخناتون»: «إن أخناتون ألقى إلى النار بشتى كائنات العالم السحري من جان وعفاريت وأرواح، وأنصاف آلهة، وحتى أوزيريس نفسه ـ بكل بلاطه ـ ألقى بهم في اللهب وتحولوا إلى رماد. . ويضيف ويكال قائلاً: وفي أعقاب نشر هذه الديانة الجديدة مباشرة لم يبق ذرة من الخرافات في صلب هذه الديانة». .

ويعتقد أن عقيدة التوحيد الآتونية جاءت إلى مصر عن طريق الهكسوس العرب الذين حكموا في مصر حوالي قرنين من الزمن (1785-1580 ق. م) قبل عهد أخناتون مباشرة. .

كما يعتقد أن أتباع موسى عليه السلام كانوا يدينون بدين أخناتون، وأن موسى نفسه كان من أتباع هذه الديانة الجديدة، ويدعم ذلك القول وجود تشابه بين بعض قصائد أخناتون في تسبيحه الإله الواحد، وبين المزمور الرابع بعد المائة من التوراة، مع أن مبدأ التوحيد عند أخناتون يختلف عن مبدأ التوحيد الذي قامت عليه التوراة فيما بعد. .

فعقيدة أخناتون تستند إلى عبادة الله الواحد في رحاب المحبة والسلام عن طريق نشر الإخاء العالمي بين الإنسان وأخيه الإنسان، بينما تقوم التوراة على أساس عبادة الإله «يهوه» الخاص باليهود وحدهم باعتبارهم «الشعب المختار». . غادر أخناتون العاصمة طيبة إلى مدينة جديدة أنشأها لديانته دعاها

(أخت آتون) وبنى معبداً جديداً لآتون في تل العمارنة لتكون مركزاً دينياً لدينه الجديد ووضع الأناشيد للشمس آتون[1]. . .

وعندما مات أخناتون، وهو في الثلاثين من عمره حصلت الردّة من قبل رجال الدين التابعين للآلهة الأخرى، وأعاد توت عنخ آمون ـ صهر أخناتون ـ الاعتبار إلى المعتقدات الدينية الوثنية متعددة الآلهة التي يخالطها السحر والأرواح وعلى رأسهم أوزيريس وإيزيس. . ولم يكتب لديانة أخناتون التوحيدية أن تدوم طويلاً لضعف إيمان من جاء بعده. ومحا الكهنة لسم آتون، واسم أخناتون من كل المعابد والهياكل والجدران وقضوا على دين التوحيد تماماً. .

لقد رأى الكثير من العلماء في الديانة المصرية القديمة، بذور ديانة موحدة تسمو بمفاهيمها ومعتقداتها عن الآلهة المتعددة والوثنية، وترتقي إلى فكرة البعث والحساب وأن النتاج الحضاري المصري لم يكن إلا وليد حضارة دينية زاهرة وإن تعددت فيها الآلهة، إلا أنها كانت تؤمن بإله واحد قوي خالد، لا تمكن رؤيته وهو الذي خلق السموات والأرض وما عليها من مخلوقات وغيرها. . والمعتقدات المصرية شبيهة بالمعتقدات السماوية فيما يتعلق بوحدانية

---

(1) قصائد وأناشيد نظمها أخناتون يمجد فيها الإله آتون ويسبحه كرمز للوحدانية:

1 ـ أي آتون الحي، مصدر كل حياة
حين بزوغك في أفق السموات تغمر كل بلد بجمالك
فأنت رائع عظيم، مشع وعال فوق الأرض
تقبل بشعاعك الكون، وكل بلد خلقت
وعندما تغيب في الأفق الغربي من السماء
تغمر الكون ظلمات كما تغمر الميت
ويهجع الناس في مخادعهم
وتخرج الأساد من عرائنها
فتعم الظلمة، ويغمر الكون سكون
لأن مَن خلقها ذهب ليرتاح وراء أفقه
2 ـ إنك أنت الصانع الذي صنعت أعضاءك،
إنك أنت الذي تعطي الأشياء شكلها،
ولم يعطك شكلك أحد،
. . . فهذا رمز لوحدانية الإله الواحد والخالق العظيم. .

وعندما يمثل الميت أمام «أوزيريس» إله القيامة وتوزن عليه أعمانه في ميزان العدالة، تتمايل كفتا الميزان، وقد وضع في إحداها قلب الميّت، وفي الكفة الثانية ريشة تمثل الحق والعدل «معات»، وخوفاً من أن يكذب القلب صاحبه أو يشهد ضده، يردد الميت هذا القول: «يا قلب، لا تكن شاهداً ضدي، ولا ترجح الكفة عليّ أمام سيد الميزان»، ويشهد هذا الحساب والمحاكمة إثنان وأربعون قاضياً، منهم يمثل إحدى مقاطعات مصر آنذاك، فإذا توازنت كفتا الميزان فإن الميت ينعم باستمرار حياته في مملكة «أوزيريس» في الآخرة، بموجب القانون والعدالة، فيصدر الحكم التالي بحقه: «فليخرج فلان مبرأ.. وليذهب حيث شاء بالقرب من الأرواح والآلهة». وقد فاز بالنعيم ويقود «حورس الصقر» الروح لتمر أمام أوزيريس ثم تدخل حقول السعادة الأبدية، أما إذا رجحت كفة السيئات على الحسنات ابتلعه حيوان مسخ اسمه «الملتهمة». أو يحكم عليهم بأن يولدوا من جديد كخنازير أو حيوانات دنيئة أخرى وذلك بأمر من «تحتوت» الذي يقف خلف «أنوبيس» الذي له رأس ابن آوى، والذي يقوم بعملية الوزن في الميزان.

وهكذا تحاسب كل نفس بمفردها، فيكون مصيرها: إما أن يسمح لها بالعبور إلى مملكة أوزيريس ومملكة الأبرار وتصبح في مرتبة الآلهة، أو أن تلقى الدمار على الفور فتهلك..

10 ـ دوافع الاعتقاد في الحياة الآخرة:

كان عند المصريين القدماء مجموعة دوافع واعتبارات جعلتهم يؤمنون بالحياة الآخرة بعد الموت. منها: 1 ـ اعتبارهم أن الحياة الدنيا حلبة صراع بين المتناقضات، بين الخير والشر، بين الصالح والطالح، وبين البر والفاجر، وكثيراً ما كان ينتصر الشر على الخير، والباطل على الحق، وهذا مخالف لناموس الحياة، لذلك لا بد من حياة أخرى ينتصر فيها الخير على الشر، والحق على الباطل، والأبرار على الفجار، إنتصاراً أبدياً..

2 ـ اعتقادهم أن النفس الإنسانية تنفصل عن الجسم، وأن هذه النفس

ذات أربع شعب: إحداها الروح، والثانية العقل والإرادة، والثالثة صورة من الأثير، أو مادة أدق منه على هيئة الجسم تماماً، والرابعة هي الجوهر الخالد الذي يشترك فيه الإنسان مع الآلهة، وعندما يموت تظل الروح تتردد على الإنسان في قبره حتى يجتاز الحساب ويصل إلى مرحلة الثواب، ثم تعود إليه فيشعر بالحياة من جديد.

11 - رجال الدين «الكهنة»:

كان في مصر القديمة عدد كبير من الكهنة، لهم مراتب مختلفة وألقاب متنوعة، وكانوا يعدون إعداداً خاصاً لهذه المهمة، وهم نوعان:

(أ) الكاهنات من النساء: وهن كثيرات كاللواتي يعتبرون بمنزلة «خليلات الإله»، وأخريات يعشن عيشة النسك والانزواء، ويعتقد أن الوظائف العليا كانت من نصيب بنات الأسر الكبيرة أو سيدات القصور، وكانت الملكة أو «اليد المقدسة» كما كانت تسمى هي الكاهنة الأولى لمعبد الإله «آمون» في الكرنك في زمن الامبراطورية الحديثة، وكان ينوب عنها في حال غيابها كاهنة أخرى من مرتبة اجتماعية عالية تعرف باسم «الكاهنة الكبيرة».

(ب) الكهنة من الرجال: كان يرأس كهنوت الرجال كاهن أكبر يحمل ألقاباً مختلفة فكان يسمى «النبي الأول» أو «كبير الأنبياء» أو غير ذلك من الألقاب، وكان في كل معبد كاهن يرأسه يتبع الملك الذي يعينه، وكان رئيس الكهنة يتمتع بسلطان ونفوذ لا يعلوه إلا سلطان فرعون نفسه، وكان أكثر الكهنة نفوذاً وأعلاهم شأناً الكاهن الأكبر لمعبد آمون في الكرنك، وكان يتبع منصب الكاهن الأكبر عدد من أصحاب المراتب الدينية كالقراء والآباء المقدسين والأنبياء وكان بإمكان رجال الدين الانتقال والارتقاء من مرتبة إلى أخرى أعلى منها.

وهذا مثال يعود إلى زمن الفرعون رمسيس الثاني يتحدث عن ابن «نبي ثاني» من كهان الإله آمون يقول: «كان الغلام في سن الخامسة حين أدخله أبوه المدرسة الملحقة بالمعبد، وفي السنة السابعة عشرة انتقل إلى رتبة «طاهر» وفي

إلى الجسد بشرط أن يكون هذا الجسد محفوظاً سليماً غير تالفٍ ولا مشوهٍ، ولذلك بذل المصريون كل جهودهم لحماية موتاهم وصيانة أجسادهم من التلف والبلى ولحفظها من التحلل والفساد لأن البعث لا يكون إلا بالجسد السليم انطلاقاً من حكمتهم المفضلة (لنسع للبقاء، ولنتجنب الفناء)» **(شكل 16)**.

ومن هنا نشأت صناعة تحنيط الجسد المتوفّى، ودفنه في قبر يحوي كل ما يحتاج إليه وقد برع المصريون بالتحنيط وأصبح مهنة لها أصحابها والبارعون فيها، وقد كانوا يلقون أجساد موتاهم في الصحراء، فتجف ولا تبلى. وقد بدأت عملية التحنيط بلف الجسم الميت بالعصائب منذ زمن الامبراطورية الأولى، ثم تطور هذا الفن في العصور التالية، وأصبح هناك أكثر من طريقة للتحنيط. تختلف من حيث الإتقان والكلفة، وقد يضطر إلى إيفاد البعوث العلمية إلى بلاد بعيدة من أجل إحضار المواد اللازمة والعقاقير، كالراتنغ والبلسم وغير ذلك من المواد الأساسية التي تدخل في عملية التحنيط تستمر مدة سبعين يوماً، تبدأ بانتزاع أحشاء ودماغ المتوفّى وغسل داخله، وتعقيمه بمواد مختلفة كالقطران وغيره...

ثم تُترك الجثة مدة سبعين يوماً في الملح، ثم تغسل من جديد، وتلف بعصائب من الكتان وتوضع في تابوت خشبي مغلق لتبقى فيه إلى ما شاء الله.

أما الفقراء فيكتفى بنقع جثث موتاهم بمحلول من الماء والملح فقط ولذلك لا تعمر طويلاً.

الباب الرابع

الاديان في بلاد الرافدين وسورية

تمهيد :

كانت حضارة بلاد الرافدين بالغة الرقي والتطور متميزة عما حولها بالثبات والاستقرار وكان السومريون في طليعة الشعوب الحضارية في بلاد الرافدين وقد جاؤوا من أواسط آسيا منذ أكثر من (4000) سنة ق. م وامتزجوا بالشعوب السامية الأصيلة وكونوا حضارة سومرية زاهرة عامرة، وجاء بعدهم الآكاديون الذين استوعبوا الحضارة السومرية المتطورة. ثم تكونت الحضارة البابلية ثم الآشورية، وأصبحت بلاد الرافدين مركزاً حضارياً عالمياً انتشرت فيه الأفكار الكونية والأسطورية والعلمية وأبرز مظاهرها الدين والأفكار الدينية وتنوع الآلهة وكثرتها.

وقد أثرت تأثيراً واضحاً في البلدان المجاورة حتى وصل تأثيرها إلى الحضارة اليونانية التي تدين بمعظم أفكارها لشعوب أرض الرافدين في كل نواحي الحضارة وفروعها، وقد غابت معظم معالم هذه الأمبراطوريات الحضارية تحت الرمال فترة طويلة من الزمن ويهمنا منها الجانب الديني الذي سنتناوله بالدراسة والبحث لما له من أثر واضح في كل مظاهر الحياة حيث كان الدين خلاصة القيم الإنسانية.

الفصل الاول

1 ـ المعتقدات الدينية في بلاد الرافدين

(أ) السومريون: آمن السومريون بوجود عدد كبير من الآلهة وعبدوها تقليداً لمن سبقهم من البشر وتعدّ الديانة السومرية إحدى الديانات الهامة التي انتشرت في كثير من بقاع الشرق والتي كانت لها آلهة متشابهة، فقد عبد السومريون الإله «دموزى» وهو الإله «تموز» نفسه المذكور في التوراة أو الإله «أدونيس» الذي عبده الفنيقيون والسومريون. فالدين عند السومريين يعدّ عاملاً أساسياً ومسيطراً على كل ركن من أركان الحياة الإنسانية وأثرت الدوافع الدينية في كل مظهر من مظاهر الحياة وكانت معتقداتهم بدائية ككل شعب بدائي. فقد عبد السومريون مظاهر الطبيعة وعناصرها، ثم طوروا معتقداتهم البدائية هذه فعبدوا القوى الكامنة وراءها ثم جعلوا الآلهة على صورة البشر يتصفون بالقوة والضعف، وتعددت الآلهة عندهم بتعدد المدن حتى أصبح لكل مدينة إله يتزعمهم جميعاً أقواها وأعظمها مثل «مردوك» عند أهل بابل و«آشور» عند الآشوريين ومن أهم الآلهة عند السومريين: «نمو، إنليل، أوتو، أنانا، دموزى» سنعرفها فيما بعد.

(ب) الأكاديون: أما الدين الأكادي (2360 - 2180 ق. م) فهو متعدد الآلهة أيضاً وكانت لهم خصائص البشر لا يختلفون عنهم إلا في أنهم كانوا أكثر كمالاً

ويتم التنبؤ بفحص كبد الحيوان القربان الذي كان يقدم للآلهة، وكان التنجيم صورة من صور التنبؤ بالغيب متتبعين حركة الأجرام السماوية والأفلاك، ولهذا اشتهر البابليون بعلم الفلك وكان لهم مراصد حقيقة تقام على رؤوس الجبال منذ أقدم العصور. . .

والكهنة عند الآشوريين مقسّمون إلى طبقات حسب نوع عملهم وأهمية وظائفهم ومرتبتهم الكهنوتية فأرفع الطبقات الكهنوتية هم الكهان الذين يطهرون الناس عن طريق الأدعية والصلوات والطقوس السحرية ويأتي في المُرتبة الثانية الكهان الذين يختصون بقراءة الألواح المقدسة.

وفي آخر السلّم الكهنوتي يأتي المغنون والخدم ومن على شاكلتهم، وكان عدد الكاهنات الإناث قليلاً بسبب ظروف البلاد الحربية.

ويعدّ الملك أكبر الكهنة مقاماً، فهو ممثل الإله على الأرض والحاكم باسمه، وكان عامة الناس يقومون بتقديم القرابين للآلهة وإهدائها الهدايا حتى ترضى عنهم، وكانوا يعتقدون بالسحر كثيراً ويعملون به.

3 ـ الحياة الآخرة

كان الموتى من البابليين يدفنون في توابيت من الخزف أو في حصائر من البوص، وكانت توضع إلى جانبهم أشياء أو مؤن تساعدهم على الحياة بعد الموت، فقد كانوا يؤمنون بالبعث وبالحياة الآخرة، وكانت مقابر الملوك تتميز عن غيرها، ويمكن أن يحتوي القبر على جثتين أو أكثر مما يدل على أن حاشية الملك كانت تدفن معه لترافقه في الحياة الآخرة، ويمكن أن تدفن الملكة حيّة مع زوجها الميت. وقد ذكرت أساطير كثيرة عما وراء القبر وتحرك الأرواح ولم يكن إبراز فكرة الثواب والعقاب يوم الحساب واضحة، وكذلك الأمر عند الآشوريين، فهم لا يعرفون شيئاً واضحاً عن الحياة بعد الموت، وكانوا يعتقدون أن جزاء العمل الصالح وإرضاء الآلهة، حياة دنيوية طويلة. فقد كان البابليون يعتقدون أن روح الإنسان بعد الموت تَنْفُذُ من القبر وتنزل إلى العالم السفلي «أرولو Arollo» وهو مدينة كبيرة مهجورة يلفها الظلام، ويعيش فيها الموتى حياة

حزينة يأكلون التراب ويشربون المياه القذرة، ولا يمكن التخفيف من هذا البلاء إلا بالقرابين التي يقدمها أصدقاء الميت وأقرباؤه الأحياء. . أما الموتى الذين لا يرعاهم أحد والموتى الذين لم يدفنوا في قبور فإنهم يهيمون دون أن يقر لهم قرار، ويعودون إلى الأرض من حين إلى آخر، في صورة أرواح شريرة تزعج الناس وتخيفهم، فكان الحرمان من الدفن من أكبر العقوبات. أما الأخيار من البشر فتصعد أرواحهم إلى السماء لتلاقي الآلهة، فمصيرهم الاستقرار والخلود الذي تهبهم إياه الآلهة وتباركهم.

4 - من أساطير الأولين

لنستمع إلى أهم الأساطير التي قيلت فيما وراء القبر في أرض الرافدين، فهناك أسطورة نزول عشتر إلى العالم السفلي «أرولـو» حيث تنزل إلهة الحب إليه وتطلب مقابلته ملكته «أرشكجيل Ereshkigal» وفي طريقها إلى المملكة تمر بسبعة أبواب، وكان عليها أن تخلع ثوباً من ثيابها السبعة حتى تستطيع المرور منه. وعندما تدخل عشتر على الملكة تحييها هذه بستين مرضاً تصيبها. وفي تلك الأثناء يؤدي غياب إلٰهة الحب عشتر إلى توقف كل تجدد للحياة على الأرض، فتقلق الآلهة وترسل إلى ملكة العالم السفلي تسألها عشتر بعد أن يرشن ماء الحياة على عشتر تمضي راجعة إلى الأرض، وتستعيد أثوابها عند مرورها مرة أخرى خلال الأبواب السبعة، وبعودتها تتجدد الحياة على الأرض.

أسطورة أخرى تتعلق بما وراء القبر، هي أسطورة «نرجـل Nergel» وأرشكجيل. تقول الأسطورة أن «أرشكجيل» ملكة العالم السفلي لم تستطع حضور مأدبة للآلهة فأرسلت وزيرها «نمتر Nemtar»، ليطالب بنصيبها من الطعام والشراب، فلقي ترحيباً من كل الآلهة، ما عدا نرجيل الذي لم يقف احتراماً له، فأمرت الملكة وزيرها أن يأتي بالإله العنيد نرجيل إلى العالم السفلي، فينزل إليه، ولكنه استطاع التغلب على حرس الملكة وأمسك بأرشكجيل من شعرها وجرّها من العرش، فسألته الرحمة وعرضت عليه الزواج منها، فقبل العرض وبذلك أصبح ملكاً على العالم السفلي.

منهما الضباب «نمو» وهذه الآلهة البدئية الثلاث تبدأ بالتناسل، وتنجب عدداً من الآلهة الشابة التي تتناسل بدورها ليأتي جيل جديد من الآلهة يقوم بالثورة على هذه الآلهة البدئية فيموت «آبسو» على يد «أنكي» إله الماء الجديد، وتموت تعامة على يد مردوك سيد الآلهة الذي يقوم بشطر تعامة إلى شطرين يجعل الأول سماءً والثاني أرضاً، ثم يلتفت بعد ذلك لخلق بقية الكون وتنظيمه.

3 ـ إنكي **Enki**: إله المياه العذبة الباطنية عند البابليين، ويسمى «إيا Eia» عند السومريين وهو إله المكر والدهاء والحيلة، وإله الحكمة والمعرفة القديمة، يشبه الماء الساكن وهو إله السحر والقوى الغامضة وإليه تُعزى معظم الأساطير في خلق البشر.

4 ـ نمو **Nimo**: المياه الأولى التي انبثق عنها كل شيء عند السومريين.

5 ـ إنليل **Enlel**: إله الهواء والعاصفة عند السومريين يأتي في المرتبة الثانية بعد «آن» إله السماء ورئيس مجمع الآلهة، لأنه قام بتنظيم الكـون وإخراجه من لجة العماء والهيولى الأولى وأخذ سلطة «آن» وهيبته، وهو الذي فصل السماء عن الأرض بعد أن كانا ملتصقين في جبل واحد في قلب المحيط البدئي الأول، ظل كذلك عظيماً في مركزه حتى استولى مردوك على ذلك المركز في مجمع الآلهة البابلية.

6 ـ مردوك: ثاني إله بعد «آن» إله السماء عند البابليين ولكنه السيد الفعلي لجميع الآله، وأعلاهم شأناً فقد تفوق على آبائه وكل أقرانه ولم يحصل أي إله في أي مكان على ما ناله مردوك من السلطة والتقديس والتبجيل، فهو الذي تصدى لتعامة أم جميع الآلهة وشتت شملها ثم شقها نصفين فخلق بذلك السماء والأرض. وتابع عمليات الخلق الأخرى فخرج الكون من بين يديه كما نراه اليوم. وقد صارع قوى الشمس وقام بأعمال الخلق كلها التي استحق بها سلطاناً أبدياً على الآلهة والبشر والأكوان، وكان له خمسون اسماً تدل على مفاهيم توحيدية وكأن الآلهة جميعها اجتمعت في إله واحد تجسدت في شخصه الإلهي.

7 ـ **ننخرساج**: وهي الأرض الأم عند البابليين، انبثق عنها كل الأحياء من بشر ونبات وحيوان اسمها السومري «كي» ولها أسماء أخرى منها: ننماخ، ننتو، مامي، ماما. وهي لدى الكنعانيين عشيرة زوجة «إيل»، ورغم أن الأرض هي زوجة السماء في البداية إلا أنها تصبح زوجة للماء «إنكي» فيما بعد، ومن اتحادهما يحيا النبات والحيوان.

8 ـ **أنانا**: وهي إلٰهة الحب والخصب عند السومريين، واسمها «عشتار» عند البابليين تهبط إلى العالم السفلي لتحرير زوجها «تموز» الأسير هناك. وكانت إلٰهة الحب فارتبطت بعبادتها كثير من الطقوس الجنسية والاحتفالات الإباحية.. وعند الكنعانيين تتخذ اسم «عناة» في أوغاريت وعشتاروت في الشاطىء الجنوبي.

9 ـ **عشتار**: إلٰهة الحب والخصب عند البابليين، وهي كوكب الزهرة وابنة القمر، يقابلها عند الرومان «فينوس» وعند اليونان «افروريت»، وهي تشبه «عناة» في صفاتها كإلٰهة للخصب، وهي إلٰهة الحرب والمعارك، تنصر عبادها على أعدائهم. تمثل وهي مدججة بالسلاح واقفة على أسد متوثب، تلقب بالعذراء رغم كل غرامياتها الجنسية.

10 ـ **أوتو**: إلٰه الشمس عند السومريين وهو ابن القمر «سن» وحفيد «إنليل» الهواء الذي أنجب القمر من حبيبته «ننتليل»، والقمر بدوره أنجب الشمس من زوجته «ننجال» ويتخذ أوتو اسمه «شمش» عند البابليين، و «شبش» عند الكنعانيين.

11 ـ **شمش**: إلٰه الشمس عند البابليين، اعتبر إلٰهاً للعدالة وهو الذي أوحى لحمورابي بشريعته الشهيرة.

12 ـ **سن**: إلٰه القمر عند الرافدين، وهو ابن الإلٰه «إنليل» الهواء من حبيبته «ننليل» وله اسم آخر هو «نانا».

13 ـ **أريشكيجال**: إلٰهة العالم الأسفل وقد كانت فتاة عذبة وإلٰهة سماوية، اختطفها «كور» وهو وحش العالم الأسفل غنيمة لتعيش معه هناك. ولكن «كور»

قتل في إحدى معاركه الكثيرة، وتبقى «أريشكيجال» سيدة مطلقة للعالم الأسفل.

14 ـ نرجال: زوج أريشكيجال: ويحكم معها مملكة الموتى... وقد كان إلٰهاً سماوياً ولكنه هبط إلى العالم السفلي بأمر من ملكته عقوبة له لرفضه الوقوف في وجه رسل الملكة واحترامهم. ولكنها أحبته وتزوجته للشجاعة التي أظهرها عند نزوله فغدا سيداً لمملكة الظلام.

15 ـ دموزى ـ تموز: إلٰه راع تقدم لخطبة «أنانا» إلٰهة الحب عند السومريين، نافسه في ذلك الإلٰه المزارع «انكميرو» وتقدم كل منهما بقربان للإلٰهة من منتجاته، فقبلت «أنانا» تقدمة الراعي «دموزى» وتزوجته. ولم تنظر إلى تقدمة الفلاح «انكميرو»، ولعل ما جاء بالتوراة يشبه هذه الفكرة عندما يقبل الرب قرباناً من الراعي هابيل ولم ينظر إلى قابيل المزارع.

16 ـ حدد: إلٰه المطر والصواعق والسحاب والرعد وكل مظاهر الخصب في بلاد الرافدين.

17 ـ ايرا: إلٰه الطاعون والأوبئة الفاتكة والدمار عند البابليين وهمّه الدائم إشاعة الخراب والفوضى في العالم.

الفصل الثاني
المعتقدات الدينية عند الكنعانيين

1 - **تمهيد:**

أطلقت التوراة اسم بلاد كنعان على منطقة فلسطين وفينيقيا، كما أطلقت على شعبها اسم الكنعانيين وهم أسلاف بني إسرائيل، وقد ذكرت التوراة كثيراً من أسماء الآلهة الكنعانية وطقوسهم ومنذ اكتشاف مدينة أوغاريت على الساحل السوري، ظهر عدد من الآلهة الكنعانية الكثيرة، فكان لكل مدينة آلهتها الخاصة التي تدل من خلال أعمالها ووظائفها على أن الكنعانيين عبدوا الطبيعة وقدسوا آلهتها، وقد تموت الآلهة الكنعانية لأنها غير ثابتة ولا مستقرة، فهي كثيراً ما تتبادل صفاتها ووظائفها وصلاتها، وأحياناً جنسها، وربما يعود ذلك إلى انعدام الوحدة بين الكنعانيين أنفسهم، وقد عبد الكنعانيون العديد من الآلهة التي أخذوها عن المصريين، وقد أثّر الكنعانيون بدورهم في الديانة الإغريقية. ويعتبر الدين الكنعاني أقل تطوراً من الدين عند شعوب أرض الرافدين، في المستوى الحضاري لكثرة اهتمامه بالعناصر الجنسية ولقسوة بعض الطقوس عندهم. وقد كثرت الأساطير والخرافات في معتقدات الكنعانيين.

2 ـ التعريف بأهم الآلهة الكنعانية

(أ) إيل: وهو كبير الآلهة ورب السماء، يعتلي عرشه في السماء

السابعة. وقد شاعت عبادته عند جميع الشعوب السورية «الآرامية، الفينيقية، التدمرية» كما عبده العبرانيون في مطلع تاريخهم. وزوجته الإلٰهة «آثرت»، وقد ورد اسمه في التوراة، وهو أصل اسم «إيلوهيم» كما ذكرت زوجته باسم «آشيرا».

(ب) بعل: وهو أبرز الآلهة الكنعانية، ورب المطر والسحاب والعاصفة، وسيد الدورة الزراعية وله علاقة مباشرة بمعيشة الناس وحياتهم ورزقهم، وهو الذي ينظم الكون ويدبر أمره، بعد أن تغلب على المياه الأولى الممثلة بالإلٰه «يم» المحيط البدئي والهيولى والعماء.. وقد دخل في صراع دائم مع الإلٰه «موت»، انتهى الصراع بهزيمة بعل لولا مساعدة حبيبته «عناة» له، ليبعث من بين الموتى ويقهر الإلٰه «موت»، ثم يعود لصراعه من جديد كل سبع سنوات، ويؤدي اختفاء «بعل» وهزيمته إلى توقف الحياة على الأرض ويتكرر هذا الصراع للأبد ممثلاً تعاقب القحط والخصب منطبقاً على الدورة المناخية السورية.

(جـ) موت: وهو إلٰه مملكة الظلام والموت والعالم الأسفل، يدخل في صراع مع بعل، ويتبادل معه الحكم، وهو إلٰه الجدب والموت، يحل محل «بعل» في الصيف، ولكنه يطرد مرة أخرى بقدوم الخريف ليحكم «بعل» إلٰه المطر والخصب من أيلول حتى أيار.

(د) عناة: إلٰهة أوغاريتية، وهي حبيبة الإلٰه «بعل» وروح الخصوبة الكونية، وتلقب بالعذراء وهي ربة الحب والجنس وربة الخصب والحياة، وربة الحرب والدمار والكوارث والظلام وهي تملك الخصائص المتناقضة وكثيراً ما كانت تصوَّر بأنها متعطشة للدماء، يسرها ذبح الرجال وقتلهم. ولنستمع إلى ترتيلة تمثل انتقام «عناة» من خصم زوجها. هكذا جاءت الإلٰهة المحاربة عناة بالإلٰه «موت» وتذبحه:

«تقترب منه عناة العذراء..
وكما يهفو قلب البقرة إلى عجلها..
وقلب الشاة إلى حملها..

كذلك يهفو قلب عناة إلى بعل
وتمسك بـ «موت»، ابن إيل
وبالسيف تشقه.. وبالمذراة تذروه
وبالنار تحرقه.. وبالرحى تطحنه، وفي الحقل تبذره
فيأكل قطعه الطيور، وتفني أجزاءه العصافير جزءاً جزءاً...».

(هـ) عشيرة: وهي الأم الكبرى وزوجة إيل وكانت تسمى «إيلات» نسبة إلى إيل ومن ألقابها سيدة البحر، وما زال اسمها يطلق على «إيلات» في البحر الأحمر... عشتارت من الآلهة الثانوية في أوغاريت وهي ربّة الخصب والحرب أيضاً.

(و) شبش: وهي إلٰهة الشمس، عند البابليين يوجد الإلٰه المذكر «شمش».

(ز) داجون: إلٰه القمح وأبوه الإلٰه بعل، تحول إلى إلٰه بحري عند الفلسطينيين، تصوره التوراة على شكل إلٰه له ذيل سمكة..

(حـ) بارات: إلٰهة مدينة بيروت الفينيقية، وهي أحد أشكال الإلٰهة عشتاروت، حملها الفينيقيون معهم عبر مضيق جبل طارق، وأعطت اسمها لجزيرة بريطانيا.

(ط) أدونيس Adonise: وهو من الآلهة السورية ويمثل إلٰه المطر والسحاب والبرق والرعد وكل مظاهر الخصب الأخرى.. ومعناه السيد، واسمه عند البابليين تموز وهو اسم آخر للإلٰه بعل الكنعاني.. ويطرأ تحوير الأسطورة التي قالت إن أدونيس لم يمت كما مات الإلٰه بعل في صراعه مع الإلٰه «موت»، حيث ورد ذلك في لوح رأس شمرا، وإنما قتله خنزير بري في غابات لبنان، وكانت حبيبته في هذه المأساة عشتارت التي بحثت عن أدونيس حتى وجدته.. فتنهض من بين الأموات إلى عالم الحياة ويرافق رجوع الإلٰه عالم الأموات احتفالات عظيمة حيث يبدأ الناس بالرقص والشراب.. بعد أن قضوا فترة غيابه وموته في ندب وعويل.. كما تتخلل هذه الاحتفالات الممارسات الجنسية

تقليداً للقاء عشتاروت وأدونيس والإيحاء للتربة بالخصب والنماء..

3 ـ الكهنة عند الكنعانيين

لم تكن طبقة الكهان عندهم منظمةً تنظيماً دقيقاً وكافياً حتى تستطيع تنظيم الدين أصولياً كما كان في بلاد الرافدين، ومع ذلك كان للآلهة عندهم دور كبير، وللكهنة أنواع.. منها الكهنة الكبار وسدنة المعابد والنساء النادبات والبغايا المقدسات والمتنبئون وقد ورد ذلك في نصوص أوغاريت الأثرية أما مراكز العبادة فكانت تقام في العراء قرب الينابيع أو الأشجار، أو فوق التلال، مما يدل على أنها ديانة قريبة إلى الطبيعة والفطرة وكانت القرابين الكنعانية تقدم للآلهة من الحيوانات المألوفة ولكن وقت الكوارث الهائلة العامة كانت تقدم للآلهة قرابين من ضحايا البشر لعظمة المصيبة أو الكارثة، ويمكن تقديم قرابين من الأطفال عند تشييد المباني أحياناً. وكانوا يماسون عادة تدل على انخفاض مستوى الدين عندهم وهي زنا الطقوس التي تعد جزءاً من عبادة الخصوبة قد تطور الدين الكنعاني وبطل استعمال هذه العادة. وكان يستدل من الهدايا الموضوعة في القبور على عبادة الموتى وعلى الإيمان بالحياة الآخرة وإن كان الأمر غير واضح تماماً لديهم.

كثرت الآلهة عندهم وتعددت فقادتهم إلى الهلاك والدمار لأنها لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً. قال تعالى: ﴿**تبارك الذي نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً * الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدَّره تقديراً * واتخذوا من دونه آلهة لا يَخْلقُون شيئاً وهم يُخلَقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً**﴾[1].

---

(1) سورة الفرقان، آية: 1-3.

الباب الخامس

الديانات عند القبائل والشعوب البدائية

الفصل الاول

الديانات البدائية

انتشرت الديانات البدائية في أماكن متفرقة من العالم، حيث كانت توجد الأمم البدائية، والقبائل المتوحشة الهمجية وخاصة في المناطق المنعزلة جغرافياً وتختلف درجة البدائية من قبيلة إلى أخرى، فمنها ما يزال في أقصى درجات الهمجية والتخلف والانحطاط، ومنها قبائل حضارية وضعت بصماتها نسبياً على جدار التاريخ، فلها آثارها ومعالمها التي لم يبق منها إلا الذكريات والعبر.

يذكر عالم الأجناس البشرية «ايفارليستر» في كتابه «الإنسان والله والسحر» فكرة شاملة تقول: «إن أسلافنا البدائيين قد اعتقدوا بوجود إلٰه واحد ثم انحطوا بالتدريج بسبب النفوذ الشرير لسحرة القبائل وساحراتها، وتحولوا إلى عُبَّادٍ لآلهة متعددة». وحجته في ذلك رسوم الكهوف التي كانوا يقدمونها كقرابين في بعض الطقوس الدينية لآلهتهم.

فقد كان إنسان «نياندرتال» يصطاد الدببة، وكانت أخطر المخلوقات، منذ ما يزيد على ثمانين ألف سنة، وقد وجدت جماجم الدببة القرابين في كهف في سويسرا مما يدل على أن إنسان نياندرتال، كان له دين وآلهة يخشاهم أو يحترمهم أو يعبدهم فيقدم لهم القرابين والضحايا.

إن الأقوام البدائية حيثما كانت هي الأصيلة في أوطانها وكل من جاءهم بعد ذلك غازياً أو مستعمراً أو مبشراً ولكن التخلف المزمن عند هذه القبائل جعل

الأمر معكوساً، فقد اكتسح الأوروبيون واحتلوا بلادهم وعملوا على إبادتهم وإفنائهم من الوجود ليهنأوا بالحياة علىَ أنقاضهم وفوق أرضهم. وهذه الشعوب البدائية المقهورة توجد في مناطق واسعة من العالم، فهي موجودة في القارة الأمريكية من شمالها إلى جنوبها. وفي استراليا والأرخبيلات المجاورة في إفريقيا وفي الهند الصينية وجنوبي شرقي آسيا عند المغول وفي سيبريا السوفياتية، وغير ذلك.

ولهذه الشعوب على اختلاف أجناسها وثقافتها ديانات بدائية تتصف إجمالاً بأنها مادية ووثنية بعيدة عن الروحانيات يقوم أهلها بممارسة عباداتهم لمجموعة من التماثيل ينحتونها. أو من الأنصاب ينصبونها أو مراكز يقيمونها للطواف حولها للتعبّد والبركة أو للاستغاثة أو للاستخارة، وقد ازداد احتياج الإنسان للمزيد من الأرباب والآلهة كلما يزيد من توسيع نشاطاته فهو يحتاج إلى إله جديد يقدسه ويعبده لكل نوع من أنواع العمل. ولذلك نشأت عبادة قوى الطبيعة كالشمس والكواكب وغيرها وغالباً ما تكون لهم آلهة حيوانية كالدب والذئب والنمر والأفعى والغراب وغير ذلك. كلها تنحصر ضمن نطاقات الديانات البدائية المتنوعة التالية:

أولاً ـ الطوطمية:

وهي ديانة محلية بدائية تمارسها بعض القبائل البدائية المتوحشة، يعتقد كل فرد من أفرادها بتقديس أو باحترام كائنات حية أو غيرها، تؤخذ رمزاً للدلالة على معبود تلك القبيلة، ويؤمن بعلاقة نسب بينه وبين واحد من هذه الكائنات يسميه طوطمه. . شكل 17. وقد يكون هذا الطوطم حيواناً، أو نباتاً، أو جماداً، ويسود الاعتقاد على أنه يحمي صاحبه ويبعد عنه الأذى، وبالمقابل على صاحب الطوطم أن يقدسه أو يعبده أو يحترمه فإذا كان الطوطم حيواناً فلا يقدم على قتله أو تعذيبه، وإذا كان نباتاً فلا يقطعه ولا يأكله ولا يتلفه. إن الطوطمية تختلف عن الديانة الفتشية التي تقول بعبادة الحيوانات أو بعبادة النباتات الشائعة عند تلك القبائل. . فالطوطمية عبادة صنم بصورة حيوان مُعين تخصصت القبيلة في صيدهُ

بمهارة.. والفتشية هي تقديس نوع من أنواع الحيوانات أو النباتات وعبادته.. والطوطم بالنظر إلى جميع القبائل ثلاثة أشكال هي:

(أ) طوطم القبيلة:

وهو حيوان أو نبات أو أي شيء آخر يشترك في تقديسه أو عبادته كل أفراد القبيلة المعنية، يقسمون باسمه ويتخذونه مثلاً أعلى لهم، ويعتقدون أنه جدهم الأعلى، وأنهم من دم واحد، مرتبطون بعهود متبادلة ترجع إلى ذلك الطوطم، وله عندهم اعتبارات دينية واجتماعية: فالاعتبارات الدينية يراد بها العلاقة المتبادلة بين الرجل وطوطمه، فالرجل يحترم الطوطم، والطوطم بدوره يحميه ويحفظه من كل شر. أما الاعتبارات الاجتماعية فهي العلاقات المتبادلة بين أفراد القبيلة ذاتها التي يجمعها اسم الطوطم الواحد تجاه القبائل الأخرى المنسوبة إلى طوطمات أخرى. والطوطم من الوجهة الدينية يعدّ أباً للقبيلة وهي من نسله. ولكل قبيلة حديث خرافي عن طوطمها يتناقله أبناؤها أباً عن جد. ويتحدثون فيه عن كيفية انتقاله من الصبغة الحيوانية أو النباتية إلى الإنسانية..

فقبيلة السلحفاة من قبائل «الأيروكوا» من هنود أمريكا، يعتقد أفرادها بأنهم منحدرون من سلحافة سمينة استثقلت صدفتها فألقتها عن ظهرها ثم تحولت إلى إنسان ثم ولدت أولاداً، فتزايد عددهم وتكاثروا.

وقبيلة الحلزون يعتقدون أنهم منحدرون من الحلزون وأنثى الجندبادستر، حيث أن حلزوناً ذكراً خلع صدفته ونبت له يدان ورجلان ورأس، ثم تحول إلى رجل طويل القامة جميل الصورة، فتزوج أنثى الجندبادستر. وأولادهما هم أبناء القبيلة.

كما توجد قبائل تنسب إلى البط والأوز أو غيرها من الطيور المائية.

وقبائل أخرى تنسب إلى وحيد القرن أو فرس البحر أو إلى العقرب أو الثعبان وغير ذلك...

فكل من هذه الحيوانات يعدّ طوطماً للقبيلة التي تسمى باسمه، وهي

تحترمه وتقدسه فعلاً. فلا تؤذيه ولا تقتله، فقبيلة البط مثلاً لا تؤذي هذا الطير ولا تقتله إلا إذا جاع أحدهم، فيأكل البطة وهو يأسف ويستغفر لذنب ارتكبه. وإذا كان الطوطم نباتاً فإنهم يحترمونه ويتحاشون أن يدوسوه أو يأكلوه، فمن كان طوطمه الذرة مثلاً فأكْلها محرّم عليه وإذا كان طوطمهم شجرة حرموا إحراقها أو استغلالها.

وقبيلة الأيل من قبائل «الأوهاما» لا تأكل لحم الأيل ولا تلمس ذكر الأيل أبداً.

وقبيلة رأس الغزال لا تلمس جلد الغزال قط، فهم يحرّمون لمسه أو النظر إليه أو التلفظ باسم الطوطم، وإذا اضطروا إلى ذكر اسمه عمدوا إلى الكتابة أو الإشارة إلى ذلك.

فعند قبائل هنود «الدولاورس» في أميركا قبيلة تنسب إلى الذئب، وإذا اضطروا إلى ذكره عبّروا عُنه بقدم مستديرة، وقبيلة السلحفاة يرمز إليها بالزاحف، وقبيلة ديك الحبش يرمزون إليه بغير الماضغ حتى أن القبائل نفسها تعرف بهذه الألقاب والكنايات..

الوفاء عند الطوطم: يعتقد أبناء القبيلة الطوطمية أن الطوطم لا يؤذي صاحبه، فمن كان طوطمهم الثعبان مثلاً فهم لا يخافون لسعه، وكذلك العقرب أيضاً فهي تمر على جسد أحدهم ولا تؤذيه، وكذلك قبائل الذئاب وغيرها، وأما إذا لسع الثعبان أحدهم يوماً، قالوا: إنه مدّع كاذب.. وهم لا يحترمون من لا يراعي الطوطم ويتجنب أذاه وينبذونه جانباً ويعتقد ذوو الطوطم أنه يكفّ آذاه عن أصحابه أو عباده، وهم يتوقعون منه أن يحسن إليهم، ويدافع عنهم، فقبيلة الذئاب تعتقد أن الذئاب تدافع عنهم في ساحة القتال حتى أنهم يتوهمون أن الطوطم يمكن أن ينذر أصحابه بالخطر قبل وقوعه بإشارات أو برموز.. وإذا أرادوا التقرب إلى الطوطم ابتغاء رضاه وحمايته، فإنهم يتشبهون به فيقلدونه في مظهره وشكله وصورته وحركاته، ويلبسون جلده أو قسماً منه أو يتخذون جزءاً منه يعلقونه في أعناقهم أو أذرعهم على نحو التعاويذ والرقي عند الشعوب

الأخرى. فلا يخلو فرد من تعويذة تدل على علاقته بطوطمه.. حتى أن بعض عاداتهم تقترن بعبادة طوطمهم، فهم عند الولادة أو عن الزواج أو الوفاة يقيمون احتفالات تتوافق مع طوطمهم: فقبيلة الغزال الأحمر مثلاً إذا وُلد لهم طفل نقشوا ظهره بالحمرة.. وأما قبيلة الذئب فهم يصيحون عند الولادة «ولد لنا ذئب صغير»، ويخيطون بقميص الطفل قطعة من عين الذئب ومن قلبه، لحفظه وحمايته من الأذى، وفي جاوة: إذا تزوج واحد من قبيلة الكلب الأحمر دهنوا العروسين برماد عظم كلب أحمر. وقِس على ذلك سائر القبائل البدائية عند الهنود أو عند الزنوج أو المغول، بما يعتقدون به من أساطير وخرافات أصبحت جزءاً من حياتهم ومن طقوسهم يمارسونها وقت المناسبات. ومن الوجهة الاجتماعية، فأهل الطوطم الواحد يعدون أخوة وأخوات، يتعاونون في السرّاء والضرّاء، وهم يرتبطون بروابط أسرية متينة، بل هي أشد مما بين أفراد العائلة الواحدة في أيامنا هذه، ويتزوج الرجل امرأة من غير قبيلته ومن طوطم غير طوطمه، وربما نشأ الأولاد على طوطم آخر، وإذا نشبت حرب تعاون أهل الطوطم الواحد على أصحاب الطوطم المعادي، مهما كانت درجة القرابة، ويمكن أن ينفصل الزوج عن زوجته كما ينفصل الولد عن أمه وأبيه، فارتباطه بطوطمه أقوى من ارتباطه بقومه أو أسرته. ويعتقدون أن رجال الطوطم الواحد لا يتزوجون من نساء قبيلتهم ولا تتزوج نساء الطوطم الواحد برجال منها، ويجب أن يكون الزوج خارجياً ويعتقد أصحاب الطوطم الواحد أن الزواج من القبيلة نفسها مضرّ بالصحة حتى أنه ينخر العظام، ويعاقبون كل من يتزوج من طوطمه بالموت أو بالعذاب الشديد، وهم يتزوجون من نساء القبائل الأخرى نتيجة الغزو أو بالمراضاة أو نحو ذلك.. والأولاد عندهم يرثون غالباً طوطم أمهاتهم، والنسب يتصل بينهم بالأمهات وليس بالآباء..

٦

موت الطوطم: إذا مات حيوان من نوع طوطم القبيلة، احتفل كل أهل القبيلة بدفنه، وحزنوا عليه حزنهم على أي واحد منهم. فقبيلة البومة في «ساموا» إذا وجد أحدهم بومة ميتة فإنه يجلس بجانبها، ويأخذ في الندب والبكاء ويضرب جبينه بالحجارة حتى يسيل دمه، ثم يكفن البومة ويحملها إلى المدفن

كأنها واحد من أفراد أسرته، وتعتقد بعض القبائل أن من أهان طوطمه أو أساء إليه حلت به المصائب والنكبات، وتعتقد قبائل أخرى أن من يأكل طوطمه تصبح نساء قبيلته عواقر، وهناك من يعتقد أنهم يصابون بالأمراض وتحل بهم الكوارث، ومنهم من يعتقد أن من يأكل طوطمه سيلاقي الموت جزاء على فعلته، حيث يقيم الطوطم في بدنه ولا يزال يأكل منه حتى يموت. .

(ب) طوطم الجنس:

وهو ما يختص باحترامه أحد أفراد الجنسين من الذكور أو الإناث حيث يختص برجال القبيلة أو بنسائها. . ففي استراليا تخصّص بعض القبائل لذكورها طوطماً، ولإناثها طوطماً آخر، وكلاهما غير طوطم القبيلة العام.

(جـ) الطوطم الشخصي:

وهو ما يختص باحترامه الفرد الواحد، ولا يرثه أبناؤه من بعده، ويمكن أن يكون طوطم الرجل خاصاً به من غير طوطم القبيلة، وغير طوطم الرجال أمثاله. . .

هذه ديانات التزم بها هذا النوع من البشر وأخلص لها في عبادته، وقدم لها القرابين، وذبح الأضحيات إيماناً بها أو خوفاً منها، واتقاءً لشرها أو طمعاً في رضاها ونفعها ورحمتها. . وآمنوا بأن الخير والشر من عندها. . وهي لا تضر ولا تنفع. ومع ذلك أحبوها حباً جماً. . فما بالنا بخالق الكون ومدبر السموات والأرض ورازق العباد بغير حساب؟؟؟ أليس هو الأجدر بالعبادة، والأحق بالتقديس؟؟؟. . .

ثانياً ـ الشامانية:

ليست الشامانية ديناً مستقلاً، وإنما هي نوع من العبادة أو الاعتقاد الديني القديم، الشائع عند بعض الأمم المغولية، وخاصة في شمال آسيا، ويسمون صاحبها: «شامان» وهو الكاهن، وأكثر أعماله سحر، وشعوذة، وله نفوذ يشبه

نفوذ الطبيب الروحي عند الهنود، وهذا النفوذ مبني على اعتقاد الناس بأن الشامان أو الكاهن قادرٌ على أن يدفع الضر والأذى، أو يجلب الخير والمنفعة بتأثيره في الأرواح الصالحة أو الشريرة، وهذه الأرواح في اعتقادهم هي أرواح أسلافهم، وللشامان طقوس وفرائض سحرية أو كهنوتية يستخرج بها النيات. ويأتي بالمعجزات بتقديم القرابين، والأضاحي للأرواح، فهو من هذا القبيل تابع للعبادات الروحية وليس للوثنية. تنتشر الشامانية عند المغول وعند أهل سيبيريا الأصليين، وهم يؤلهون القوى الطبيعية ومظاهرها كالجبال والأودية والأمطار والصواعق، على أيدي كهّانهم الشامان، وهم الواسطة بينهم وبين تلك الأرواح، فكل المياه الجارية في منغوليا قد ألّهها الناس وعبدوها، ولكل جبلٍ من جبالهم خرافة دينية، ويلقبون أعلى قممها بألقاب الملوك..

وهم يخافون إلٰهاً يسمونه «وجه الماعز»، له رأس ماعز أو رأس ثور، عليه تاج من جماجم البشر، وقد اندلع اللهب من فمه وله أربع وعشرون يداً، قبض بها على أعضاء بشرية وعلى أدوات العذاب، يصبغون هذا الإلٰه بلون أزرق قاتم، وامرأته بلون أزرق فاتح، ويعرف هؤلاء باسم المغول الزرق، ويعد اللون السماوي عندهم من الألوان المقدسة. وإذا مات عندهم رئيس أو وجيه فهم يذبحون الذبائح باسمه ويعظمونه.. أما إذا مات الفقراء فيطرحون جثثهم للكلاب أو الوحوش الضارية أو النسور لتأكلها، ولذلك يسمي الصينيون النسور «قبور المغول». وإذا رأت الكلاب جنازة تتبعها لعلها تظفر بجثة الميت وتأكلها..

يذكر ليستر في كتابه «الإنسان والله والسحر» أن شامانات سيبيريا وهي المنطقة التي نبعت منها الكلمة أصلاً لم يكونوا أطباء سحرة أو ساحرات ولكنهم كانوا أقرب إلى الوسطاء بين الشعب والأرواح، والشامان يستثير نفسه حتى يصل إلى درجة من التهوس المقدس أو النشوة عن طريق دق الطبول والرقص، حتى يصل إلى الإغماء الذي يفترض فيه أن روح الرجل قد فارقت جسده.. وفي إغماءته تصدر عنه أصوات مختلف الطيور والحيوانات ويفترض فيه أنه قادر على فهم لغتها. ويصفهم «ميركا افياد» العالم بتاريخ العقائد بأنهم متخصصون في

النشوة، ويورد قائمة بالمنجزات التي يستطيعون تنفيذها من قراءة الأفكار والعرافة والسير على النار، واكتشاف اللصوص بالاستعانة بمرآة، وغير ذلك. .

يذكر «ليستر» وصفاً لاحتفال شعائري لإحدى القبائل يتضمن الرقص على دقات الطبول ومشاركة المتفرجين للراقصين بالتصفيق والإنشاد. حيث يندمج الجميع في حالة بعيدة تماماً عن حياتهم اليومية يقول «ليستر»: تتصاعد الثورة والهياج، متنقلة بسرعة كالشرارة من شخص إلى من يليه حتى يقترب الجميع من النشوة ويصبح كل واحد منهم مؤدّياً ومتفرجاً في الوقت نفسه طبيباً ومريضاً، سنداناً ومطرقة. إن الإنسان البدائي يؤمن تماماً بأن روح الشامان قد غادرت جسده وأنها في تلك اللحظة تتجول بين السموات أو في الجحيم. ويؤمن إيماناً كاملاً بكل ما يقوله له الشامان في حالة إغماءته. .

ومن الأساطير عند أهالي سيبريا الشمالية أسطورة تقول: إن أرواح السحرة المقدسين أو الشامان تولد في شجرة من نوع معين داخل أعشاش من أحجام مختلفة. ثم يأتي طائر ضخم كالنسر، فيضع بيضاً من الحديد في الأعشاش، وهذا البيض هو الذي يتحول إلى الشامان.

وتنتشر الشامانية كذلك عند هنود أمريكا، وخاصة في آلاسكا ويسمون صاحبها «طنجاق». وهو أدنى مرتبة من رفيقه الشامان في آسيا في سلّم الكهانة. وهو أشبه بمشعوذ أو راقٍ. وتعتقد قبائل شمال غرب أمريكا القدرة على التفريج بالتعزيم ونحوه. وقد يستخدمونه لإخراج الشياطين من المرضى أو في تسميم المحكوم عليهم. ونزع فروة الرأس من القتيل في الحرب، ونقل نص الحكم بالإعدام. . وغير ذلك.

ثالثاً ـ الديانة الفتشية «عبادة الأنصاب»:

وهي لفظ برتغالي الأصل، أطلقه البرتغاليون الذين نزلوا غربي إفريقيا قديماً. وتعني عبادة الأنصاب، حيث وجدوا أهلها يحملون على أذرعتهم وأعناقهم تعاويذ يقدسونها، ويطردون عنهم بها الأذى والشر. واسم التعويذة في اللغة البرتغالية تعني «فيتيشو» وقد أطلق على عبادة الأنصاب بشكل عام. وتنتشر

هذه العبادة عند كثير من الشعوب البدئية الفطرية في عقائدها الدينية وهم يقيمون الأنصاب أو التماثيل من الحجارة أو من الخشب أو من الطين أو الشجر وغير ذلك. ويعتقدون فيها الكرامة والقدرة فهي مقر للإله في تلك القرية أو البلدة أو حتى المنزل ويلجأون إليها في أوقات العسرة لقضاء حاجاتهم بالاستشارة أو الاستخارة أو الاستعاذة ويقدمون لها الذبائح والقرابين فإذا رأوا من إلههم في هذه الأنصاب ما يأملون من خير أو رعاية أو وقاية، بالغوا في احترامه وعبادته، واعتقدوا فيه الكرامة والتقديس. وإلا أبدلوا غيره من الأنصاب لأن الإله والروح قد غادرته وحلّت في نصب غيره.

فهل تعدّ هذه الشعوب البدائية من الشعوب المعنية بقوله تعالى: ﴿**ومن الناس مَن يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشدّ حباً لله، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أنَّ القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب**﴾[1].

(1) سورة البقرة، آية: 165.

الفصل الثاني
الديانات عند الزنوج

يعد الزنوج إجمالاً من أدنى طبقات البشر في سلّم الارتقاء والتطور الحضاري، وينقسمون جغرافياً إلى نوعين:

(أ) الزنوج الشرقيون ويقيمون في أوقيانوسيا وما حولها.

(ب) الزنوج الغربيون ويقيمون في إفريقيا.

أولاً ـ الزنوج الشرقيون:

وفيهم الكثير من الأمم البدائية المتوحشة، مثل: البابون، والميلانيز، والاستراليون، والتسمانيون القدماء، والاندامانيون والسامانغ، وأقزام الزنوج في ميلانيزيا. ولنستعرض المظاهر الدينية والمعتقدات عند هذه الشعوب والقبائل:

1 ـ قبائل البابوان:

ينتشرون في غانا الجديدة وميلانيزيا، ويمتازون بكثافة شعورهم ويتفاخرون بها، وهم من أحط أنواع البشرية. يعملون بالزراعة، ويصنعون الخزف، ويبنون السفن ويقيمون منازلهم إما على الشجر أو بأعمدة ينصبونها على الأرض. وأكثرهم من أكلة لحوم البشر ومشهورون بسفك الدماء والتوحش والخداع، وهم يقتلون النفس بلا أي سبب غير رغبتهم بالقتل وسفك الدماء وإذا

أسروا إنساناً ليأكلوا لحمه كسروا يديه ورجليه حتى يعجز عن الفرار ويتركونه لغذائهم وقت الحاجة، فمتى أرادوا الأكل كان لحم الفريسة طرياً، فيطبخون منه ما يريدون حسب حاجتهم ويتغذون بوجبة بشرية شهية.. وإذا أرادوا منع أسراهم من الفرار يثقبون كفي الرجل الأسير ويشدونها وراء ظهره بوتر أو بخيط متين يدخلونه من الثقبين ويربطونه، ثم ينقلونهم في قواربهم إلى منازلهم لتعذيبهم في احتفالاتهم، ثم يلقون الأسرى في الماء يستخرجونهم متى يريدون بأعمدة طويلة في رؤوسها صنانير من الحديد كالشناكل يغرسونها في لحومهم ويجذبونهم إلى البر ثم يضعونهم على الأرض، ويشدون أعناقهم إلى شجرة ليجلسوهم، ويبدأون بجلدهم وتعذيبهم ثم يلفونهم بورق جوز الهند الجاف، ويرفعونهم عن الأرض نحو مترين وهم مشدودن بالحبال إلى الشجرة، ثم يوقدون النار تحتهم حتى ينضج لحمهم، فتحترق الحبال وتسقط الجثث على الأرض وينقض عليهم الأكلة كالوحوش الكاسرة وفي أيديهم السكاكين يقطّعون يد الرجل أو فخذه ويأكلون منه، ولا يزال فيه رمق من حياة، وهم فرحون يرقصون ويصيحون بصخب وعشوائية وقد روى هذه العادة عنهم «القس شالمر» سنة 1895 م. ثم وقع هو نفسه في أسرهم وقتل بالطريقة نفسها.

الدين عند هذه القبائل المتوحشة: إن البابوان يعبدون آلهة شيطانية، لا تقل عنهم بشاعة وفظاعة، وهم يعتقدون أنها تطوف البلاد، وتظهر عليهم بشكل حيوان غريب يسمونه «اتيتيجي» له عين من الأمام، وعين من الوراء، وله ستة أصابع في كل يد، وتنتهي سبابة اليد اليمنى بظفر حاد، وتقيم هذه الآلهة في الكهوف، وتسطو على الناس. فتختار من لحومهم ما لذّ لها وطاب، بعد أن تتذوق اللحم قبل أن تأكله من قطعة صغيرة تنتشلها برأس ذلك الظفر الحاد، فإذا كان اللحم لذيذاً أمرت الآلهة بذلك الأسير فسوّي على النار، وأكلته.. وإذا لم يَسُغ لها طعم لحمه أطلقت سبيله. وليس كل الناس تؤكل لحومهم..

ومنهم من يعبد الأسلاف، وينحت السحرة لهم تماثيل على صورتهم توضع في إحدى زوايا المنزل، ويغطونه بالحصر، ويقدمون له الاحترام والقرابين، ويستخدمونه في كثير من أحوالهم العائلية ويصحبونه معهم في

الأسفار، ليحميهم من الأعداء وإذا بلغوا مأمنهم طرحوه بعيداً، كقطعةٍ من الخشب عديمة الفائدة والجدوى...

2 ـ الميلانيزيون:

يعتقد الميلانيزيون بعبادة الأرواح بعد الموت، وهذه الأرواح على فئتين: فئة صالحة، وفئة شريرة. وهم يزعمون أن الأرواح تذهب بعد الموت إلى غابة العليق، فهم يحتفلون للأرواح كلٍ خمسة أشهر احتفالاً يهيئون فيه الأطعمة والمأكولات، فيختبىء العجائز رجالاً ونساءً في كهف يمثلون فيه الأرواح. وهي ترتل ترتيلاً خاصاً، ثم يخرجون من الكهف وهم يرقصون رقصاً همجياً يخيفون فيه المحتفلين.. وينتهي بذلك الاحتفال.

وهم يعتقدون بآلهة متعددة تساعدهم في أزماتهم ويلجأون إليها وقت حاجتهم فلديهم اعتقاد بإلهٍ خاص للعيون يصلون إليه حتى يساعد عيونهم على رؤية النبال وهي تتساقط عليهم من الأعداء، وبإلهٍ خاص للآذان يستعينون به على استطلاع خبر الأعداء ومعرفة مكانهم، وعندهم آلهة تصنع الأمراض. فإذا مرض أحدهم نفخوا في بوق من صدف البحر صلاة لصانع المرض، ويعدونه بالهدايا، ويلتمسون منه أن لا يحرق بقايا الطعام، لاعتقادهم أن احتراقها يميت أصحابها.

وهناك صنف من الكهنة في كالدونيا. يزعمون أنهم ينزلون المطر، بنبش الجثث وسكب الماء عليها وعندهم كاهن لكل عائلة. وعلى رأسهم جميعاً الكاهن الأعظم.

3 ـ الاستراليون:

تميز الأستراليون بالانحطاط والهمجية بسبب عزلتهم داخل جزيرتهم عن سائر البشر، فهم إجمالاً من أقل الأمم شأناً، فلا يبنون لهم بيوتاً أو أكواخاً، بل يلجأون إلى أخصاص من ورق الشجر. وهم لا يحرثون ولا يزرعون، بل يأكلون من جذور الشجر وثمارها كما يأكلون الديدان والخنافس والجنادب ولحوم

الحيوانات، حتى الإنسان نفسه لا يسلم من شرهم فيأكلونه، وهم لا يلبسون ثياباً، بل يعيشون بالعراء. ويتقلدون من العظام حلياً في أنوفهم أو عقوداً من الصدف حول أعناقهم ويدقون الوشم على أجسادهم..

فما هو دينهم؟ يقال عنهم بأنهم لا دين لهم، كما يقال عنهم أيضاً بأنهم يؤمنون بإلٰهٍ واحد.. والمعروف عنهم أنهم لا يصلّون ولا يضحّون ولا يمارسون شيئاً من الطقوس الدينية، ولا يعرفون خالقاً، ولا يسجدون لصنمٍ، لكنهم يؤمنون بالأرواح الشريرة وينسبون إليها الأخطار التي تصيبهم وخاصة في الليل، لذلك فهم لا يمشون ليلاً إلا على ضوء المشاعل ليطردوا تلك الأرواح من طريقهم وهم يعتقدون بوجود الروح في الإنسان وفي الحيوان. وإنها تنتقل من جسم إلى آخر وصاحبها حيّ، وتزور قبر صاحبها الأول وأنها تقتات الطعام الملقى على الأرض، وأنها تستدفىء بالنار.. وإذا مات أحدهم بغتة نسبوا موته إلى سحر من عدوّه، يتتبعون خطاه ويبحثون عنه بطرق خاصة ومن مات ولم يدفن تحولت روحه إلى روح شريرة تهيم في الأرض، ويزعم بعضهم أن أرواحهم تستقر في جزر في خليج «سبنسر» وتقيهم فيها.. وإذا كان الميت رئيساً أو حاكماً مسؤولاً جعلوا جثته في شجرة وأحرقوها. ويغلب في الأرامل من النساء أن يحلقن رؤوسهن ويلبسن اللباس الأبيض حداداً على أزواجهن...

وهم يعتقدون أن الروح تظل بعد الموت حيّة وهي بعد ذلك إما أن تبقى تائهة وحدها وإما أن تسكن جسداً آخر وتستقر فيه. ومنهم من يعتقد أن الأرواح تصعد بعد الموت إلى منازل علوية في السماء، ويمكن أن تهبط إلى الأرض لتتفقد أجسادها.

وأما سكان جزر «فيجي» فيزعمون أن الآلهة عندهم تحب لحوم البشر، ومن دخل حرباً، وأكثرَ من القتلى فهو يقدم طعاماً للآلهة وقد يقتل الرجل امرأته إرضاء لآلهته الجشعة وإذا استطاع أحدهم قتل رفاقه عدّوه في مصاف الآلهة.. ومن آلهة الفيجيين «آوى» وهو بنظرهم خالق الناس. و «راتومينيولو» إلٰه العقم. ومن بين آلهتهم أصنام لها ثماني أذرع أو ثماني أعين أو ثمانون معدة أو غير ذلك

من غرائب الخلق والأساطير. وإذا مات أحد رؤسائهم قتلوا واحداً أو أكثر من نسائه أو من أصدقائه أو من أقاربه ليسيروا في خدمته إلى العالم الآخر، وقد تطلب نساء الميت القتل من تلقاء أنفسهن خوفاً من أن يعشن ذليلات أو جائعات بعد وفاته، وقبل دفن الميت يضعون في يده فأساً ليدافع بها عن نفسه، ويصحبونه بأسنان الحوت ليسترضي بها الأرواح..

ثانياً ـ الزنوج الغربيون:

يقصد بهم زنوج إفريقيا، وينتشرون غالباً في أواسط القارة وجنوبها، ولهم صفات عرقية مشتركة: فرؤوسهم مستديرة قصيرة لونهم أسود فاحم أو أسمر قاتم، شعرهم أسود قصير أجعد، قاماتهم متنوعة، فمنهم الطوال ومنهم الأقزام، والفكان بارزان، الأنوف قصيرة مفلطحة، والمناخر واسعة، العيون كبيرة سوداء ومستديرة اليدان طويلتان، القدمان عريضتان، ومع ذلك فهم أقوام متعددة منهم:

1 ـ الزنوج السودانيون:

تقع بلادهم في أواسط إفريقيا، ومنهم قبائل عديدة أمثال: المندنج، والجلوف، والسونغاري، والحوسا، والكانمبو، والكانوري، والهمج، والشلوك، والنوبيون، وغيرهم.

فأمّة المندنج في مالي وغانا وغيرها، لا تزال القبائل فيها تعرف بأسمائها الطوطمية. أي بأسماء الحيوانات التي يعتقدون أنهم انحدروا منها. وهي: 1 ـ البامبا «التمساح»، 2 ـ مالي «فرس النهر»، 3 ـ ساما «الفيل»، 4 ـ سا «الأفعى».

وأما قبائل الولوف فبالرغم من أنهم أصبحوا مسلمين وتهذبوا بالإسلام إلا أن لدى بعضهم اعتقاداً بأنهم يعيشون بسلام إلى يوم الدينونة. ثم يعودون إلى الأرض ويتمتعون بالمسرات رقصاً وغناء إلى الأبد. ويعتقد آخرون بهجرة الأرواح التي تتجمع في الهلال للتوسل إلى أرواح الليل والهواء. ويعتقدون

بوجود إلٰهين رئيسيين هما: إله العدل الذي يدافع عن المظلوم وينصر الضعيف. وإله الثروة الذي يختص بالشؤون المالية. وهم يحترمون الأفاعي لاعتقادهم أنها تتنكر بمظاهر مختلفة، ويقدمون لها القرابين من الطيور والخرفان وغير ذلك..

وقبائل الفلوب Felupe التي تنتشر غربي إفريقيا هم من الزنوج الأصليين أصحاب الوثنية ليس لهم نظام سياسي ولا اجتماعي، ولا يزال معظمهم يعتقد بسيادة الأم وتعرف بها الأنساب، ولها نفوذ واسع في القبيلة. ومع دخول المبشرين من المسيحيين والمسلمين لإقناعهم بعبادة الله، فلم ينجحوا كثيراً، وما يزالون محافظين على أصولهم الوثنية. وعندهم طائفة من العرّافين والسحرة فإذا اتهموا رجلاً بسرقة أتوه بقضيب من الحديد يحمى إلى درجة الاحمرار وقربوه من لسانه فإذا احترق ثبتت خيانته، وهكذا. وهم يعتقدون بوجود شياطين كثيرة يخافونها ويحسبون حسابها وينسبون إليها كل الأمراض والمصائب التي تحل بهم. كما يعتقدون بوجود كائن عظيم هو عندهم إله السماء والمطر والريح والعواصف.

وفي سيراليون توجد قبائل لا يعرفون الآلهة، وليس عندهم كهنة ولا أي نوع من أنواع العبادات ولكل قبيلة أو عائلة نصب «فيتش» خاص بها يعتقدون أن فيه القدرة على الخير والشر وتكثر هذه الأنصاب خارج القرى، وتكون منصوبة في أكواخ خاصة للعبادة، ويقدمون لها كل احترام، ويحملون إليها القرابين والأضاحي، وإذا أصابهم وباء أو حل بهم بلاء قدموا لهذا النصب الضحايا لتدفع عنهم هذا البلاء، وإذا أخفقت في دفعه عنهم وتقاعست عن نصرتهم تذهب هيبتها من نفوسهم فيطرحونها ويرذلونها..

وعند قبائل شاطىء الذهب نتعرف الإله «تاندو» وهو أكبر الآلهة عند قبائل «الأشانتي» وهو المبغض، ويقدم له الذبائح من البشر سبعة رجال وسبع نساء معاً، وهو يناصر أتباعه ويطلعهم على مكامن أعدائهم ويحميهم منه. وقد يظهر هذا الإله «البغض» بشكل غلام صغير يقف في طريق الأعداء ويعرض نفسه للأسر عنوة. فيأخذونه إلى بلادهم ليبعث إليها الأوبئة القاتلة كالطاعون أو

الجدري أو نحو ذلك.. وهم يخافون الأرواح الناقمة فيبذلون الأموال لاسترضائها، ويعتقدون أن كل حادث يسبب لهم الأذى مصدره الآلهة.

ويعتقدون بوجود إلٰهين كبيرين: أحدهما تعبده قبائل الشمال والثاني تعبده قبائل الجنوب. ويزعمون أن هذين الإلٰهين قد وكلا آلهة ثانوية أخرى لينوبوا عنهما في تدبير شؤون البشر في القرى.. وبعد أن دخل الأوروبيون إلى بلادهم اعتقدوا بإلٰه واحد كبير يسمونه «إلٰه السماء» وعدوه أعلى من جميع آلهتهم، وهو يترفع عن التدخل في شؤون البشر مباشرة. ويعتقدون أنه هو الذي أرسل إليهم وباء الجدري الذي حل بهم بعد دخول المستعمرين إلى بلادهم وأفنى العديد منهم. ويؤمنون بإلٰهين آخرين يتوسطان بين الآلهة الكبرى وآلهة القرى أحدهما أنثى وتبقى محتجبة بين نبات القطن، والثاني إلٰه سفاح يقيم على التلال أو في الغابات ذات التربة الحمراء وهو أكثر أذى من سائر الآلهة، فهو يفترس السياح المنفردين ويأكلهم، وإذا غضب هذا الإلٰه السفاح مرة فيندر أن يصفو مزاجه، وهم يعتقدون أن التراب الأحمر اكتسب لونه من الدماء التي سفكها هذا الإلٰه فيه، ولإرضائه يقدمون له القرابين والضحايا من أبناء البشر، وإذا وقع زلزال ضحّوا على أثره برجلين أو ثلاثة على اسمه لعله يشبع ويكف أذاه عنهم، فهم يزعمون أنه مرسل الزلزال.. وبالرغم من اعتناق بعض القبائل في شاطىء الذهب لدين الإسلام فهم لا يزالون يعتقدون بالوثنية فإذا وقعوا في أزمة أو حلت بهم نكبة يلجأون إلى العرّافين أو السحرة، بدلاً من اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى.. أما البقاع التي لم يدخلها الإسلام فيعدّ أهلها في أشد حالات الهمجية والوحشية والتخلف.

وعند قبيلة الباري يعتقد أهلها أنه لدى زعمائهم القدرة على إنزال المطر، فإذا لم يسقط المطر بادر زعيمهم واستسقى بقرابين من الماعز يقدمها للآلهة، وإذا لم تمطر ذبحوا لها ثوراً، واحتفلوا به احتفالاً راقصاً تُدَقّ فيه الطبول، ثم ينتظرون ثلاثة أسابيع، فإذا لم ينزل المطر قتلوا الأمير واقتسموا تركته. كما يعتقدون أن في زعمائهم القدرة على إمساك المطر بالصفير، وإيقاف العواصف والصواعق بمكنسة يكنسها بها، وإذا أخفق في ذلك قتلوه..

2 ـ قبائل البانتو Bantu:

ينتشرون على مساحاتٍ واسعةٍ في القسم الجنوبي من إفريقيا. ديانتهم أقرب ما تكون إلى الطوطمية، أو عبادة الأسلاف والأجداد. فهم في أوغندا مثلاً: لا يزالون على نظام البداوة يقسمون إلى قبائل وبطون، لكل منها طوطمها الخاص، ومن أنسابهم الطوطمية قبائل الفراش والتماسيح والأغنام وغيرها.

أما قبيلة «الواهوما» فمع أنها بدوية متنقلة إلا أن فيها بعض المظاهر التي تدل على مدنيتها وحضارتها القديمة، وتدل على أنهم قادمون من الحبشة، وهم يعتقدون أنه كان لهم كتابٌ مقدس، ساروا حسب تعليماته وعلى هداه، فأصبحوا في مقدمة الأمم إلا أنهم غفلوا عنه وأهملوه. فأكلته بقرة، ولا يزالون منذ ذلك الحين إذا ذبحوا بقرةً بحثوا في أحشائها عن ذلك الكتاب المقدس..

وقبائل «الواجرياما» المنتشرة في جنوب إفريقيا تعد من أحط شعوب البانتو حيث تظهر عندهم الطوطمية بشكلها الواضح، وهم يعتقدون بالسحر وليس لهم أنصاب ولا هياكل ولا كهّان، وتقوم ديانتهم على عبادة الأسلاف وغيرها من العبادات الأولية، ويعتقدون بأن للأرواح قدرة على عمل الخير والشر، وحتى يحافظوا على صداقتها ورضاها يكرمون أكبر الأقرباء سناً، وهم يسجدون لأرواح القبيلة كلها في احتفالاتٍ عمومية..

وتوجد قبائل «الزولو» إلى جانبهم في جنوب شرق إفريقيا، حيث يقضون معظم أوقاتهم يتحدثون عن مجدهم السالف، يذكرون أبطالهم القدماء ويتقلد الرجال الأشداء منهم الأسلحة مقلدين بذلك أبطالهم القدامى ولهم اهتمامٌ كبير في حفظ الأنساب ومعرفة الأصول، حيث يرجع كل منهم إلى رجلٍ حقيقي أو خرافي يعدّونه مؤسس القبيلة فيفتخرون به ويعتزون..

وقبائل «الهريرو» في جنوب غرب إفريقيا يدفنون أمواتهم من الأمراء باحتفالٍ شائق، بعد أن يكسروا الجثة بحجرٍ ويطووها من الرأس حتى الركبة، ثم تلف بجلد ثور كبير يذبح لهذه الغاية، ثم يدفنونها ووجهها نحو الشمال، تذكاراً للأرض التي جاءت منها، ثم يعلقون أسلحة الميت وثيابه بعمود أو

بغصن شجرة بحيث تظلل القبر، وإذا كان الميت امرأةً فقيرةً دفنوا معها أولادها الصغار ليخلصوهم من عذاب اليُتم ومرارة الحياة..

ومن قبائل البانتو كذلك قبائل «البوشمان والهوتنتوت» المنتشرة في إفريقيا الجنوبية، وهم أهل بداوةٍ وصيد يعيشون بلا روابط عصبية بين أفراد القبيلة أو الأمة، حتى أن الروابط العائلية تكاد تكون مفقودة عندهم خاصة «البوشمان» الذين لا توجد عندهم اعتقادات البتّة، وهم في أحط درجات المجتمعات حتى أنهم لا يعرفون حقيقة الموت، وهم قلما يميّزون الإنسان من الحيوان، ويعتقدون أن الجاموس يستطيع أن يرمي النبال كما يفعل الإنسان، وعندهم قصص وخرافات وحكايات غريبة وخاصة عن الحيوانات فهم يقلدون أصواتها ويتشبهون بها..

وكذلك قبائل «الفالبان Valpans» الموجودة جنوب روديسيا، تعدّ من أحط أنواع البشر أيضاً. ويسميهم جيرانهم «بالقوم الأردياء» كما يطلقون عليهم اسم البطون السنجابية بسبب اللون الذي تكتسبه أبدانهم بسبب زحفهم على الأربعة عند دخولهم إلى منازلهم تحت الأرض ولكن لونهم الأصلي هو الأسود القاتم، وهم أقزام كما هو الحال عند البغمة..

ويعدّهم أهل الزولو كلاباً أو عقباناً، فهم يأكلون اللحوم البشرية. حيث يسْطون على شيوخهم وضعفائهم فيأكلونهم كما تفعل بعض القبائل في الأمازون..

وهم يسكنون نقراً في الصخور أو كهوفاً في الجبال ولا يعرف لهم دين أو شبه دين حيث لم يتمكن أحد من مخالطتهم ودراسة أحوالهم وطبائعهم بشكل دقيق.. ويسود عندهم نظام حكم عائلي. ويسيطر فيهم الرجال الأقوياء البنية شأن الحيوانات الضارية في الغابات، ويطبق عندهم «قانون الغاب» على حقيقته..

الفصل الثالث

القبائل المغولية البدائية

تنتشر هذه الأقوام على مساحاتٍ واسعةٍ في شرق وجنوب شرق آسيا. موزّعة على بلاد التيبت وأواسط آسيا، ومنغوليا، ومنشوريا، وسيبيريا، وفي اليابان، وكوريا، وجزيرة فورموزة، والهند الصينية، وماليزيا، والفيلبين، وغيرها. ولهذه الشعوب صفات خاصة مشتركة ميزتهم من غيرهم من البشر. فهم من الجنس الأصفر ولسنا في معرض الخوض في صفاتهم، وإنما نقتصر حديثنا على معتقداتهم، ودياناتهم الخاصة، وأهم المجموعات المغولية هي:

أولاً ـ المغول التتر:

وهم من الأمم الواسعة الانتشار، سُمّوا بذلك نسبة إلى طائفة منهم تسمى «تاتا» وجمعها «تتر»، وهي طائفة مغولية صغيرة. لكنها صارت أمة مرهوبة الجانب على يد القائد «جنكيزخان» ومنهم المغول الأصليون الذين يقيمون في منغوليا وما حولها. ومن فروعهم: الكاموك في الغرب، والشراء في الشرق والبوريات حول بحيرة بايكال في سيبيريا. ومعظمهم من البوذيين في الظاهر، لكنهم من عبدة الطبيعة ومظاهرها، ويتم ذلك على أيدي كهانهم من الشامان. فهم الوسيلة بينهم وبين الأرواح التي يعتقدون بها، ومن الشعوب المُغولية أيضاً: التنغوس، واليابان، والكوريون، والمنشو.

انتقلت روحه بعد موته إلى كلبه. ولذلك فهم يهتمون بتغذية كلابهم لأن فيها أرواح أهلهم وأصدقائهم وأحبائهم ويمكن أن يخرجوا الروح من الكلب بالصلاة على يد الشامان «الكاهن» ثم يذبحون الكلب على قبر سيده فالروح تتصرف عند ذلك تحت الأرض وتبقى حية كما كانت في الحياة الدنيا. وهم يعبدون الدب، فإذا اصطادوه في الشتاء احتفظوا به طويلاً حتى يسمن ويكبر. ثم يقطعونه ويأكلونه باحتفال شائق ومهيب.

ثالثاً ـ المغول الأتراك «الغربيون»:

وهم أحد فرعي طائفة المغول التتر، وقد كثر اختلاطهم بالشعوب القوقازية، ومن شعوبهم البدائية المتأخرة..

ففي سيبيريا يوجد «الياقوت» وهم نصارى اسماً، يقيمون على ضفاف نهر لينا، يتأثرون بالشامانية فهم يحترمون قوى الطبيعة ولا يعبدون إلٰهاً عظيماً، ولا يعرفون عن الله شيئاً. يعيشون في منطقة باردة حيث يعدو أبناؤهم على الجليد وهم عراة ودرجة الحرارة دون الصفر. وكل شيء متجمد وهم لا يبالون.

وقبائل «الكَرْج» توجد في جبال بامير وتيان شان، يسمون بالقوزاق أي الفرسان، وقد دخلوا الإسلام، ولكن تمسكهم بالإسلام ضعيف حيث تقتصر عبادتهم على بعض الصلوات والشعائر، يمازجها كثير من المعتقدات الشامانية، وهم يعتقدون أن لكلٍ منهم روحين، تهتمان بشؤونه، إحداهما: ملكٌ على كتفه اليمنى، يوحي إليه الأفكار الصالحة وفعل الخير. والأخرى: شيطانٌ على كتفه اليسرى يُحَسِّنُ إليه السيئات وفعل الشر. فإذا أطاع الملاك نال ثواباً، وإن هو أطاع الشيطان نال عقاباً.

رابعاً ـ المغول في بلاد التيبت «الشرقيون»:

تعد بلاد التيبت مهد الإنسان المغولي. ويتميز سكانها بصفاتٍ عرقيةٍ مميزة، وهم يدينون بالبوذية، وهم بطبيعتهم بسطاء لا يميلون إلى التفاخر

بنسبهم أو بأصلهم. فهم يعتقدون أن جدهم «ملك القرود». وقد ورثوا عنه الذكاء والإخلاص والحنان.. وأن جدتهم «الغول» وقد ورثوا عنها القسوة والشهوة، وأكل اللحوم وحُب التجارة والجندية وخشونة العيش..

وتوجد عندهم طبقة من الكهنة يغلب فيهم الرياء والدهاء مع غطاءٍ من البوذية تحته خرافات الوثنية وشيءُ من اللّامية، وتشتهر عاصمتهم «لهاسا» ومعناها «أرض الإله» بأنها مركز ديانة أهل التيبت. ويحجون إليها لكثرة ما فيها من بيوت العبادة البوذية والأديرة، ويأتي إليها الحجّاج من أقصى البلاد ويلتمسون غفران خطاياهم من «بوذا الحي»، ويتوسلون إليه أن يعد لهم تقمصاً سعيداً ثم يعودون إلى بلادهم بالآثار المقدسة والتحف المباركة، ومما يخدعهم به الباعة بأنها من بقايا بوذا فهي من أظافره أو من عظامه، أو من عصاه، أو من بيته.. وغير ذلك من الأوهام.

خامساً ـ المغول في بلاد الهند الصينية:

ما يزالون يعتقدون بإله أعظم أو بشيطان أعظم يقدمون له الذبائح والقرابين وهم لا يتوقعون منه خيراً كثيراً، ولا يريدون منه إلا النجاة من الأوبئة والقحط، وهم يعبدون الأرواح ويسمونها «نات»، ومن هذه الأرواح ما هو خاص بالبيت أو بالعائلة أو بالقبيلة أو بالحقل أو بالهواء أو بالغابات أو التلال.. ولكل من هذه الأرواح مجال وجودها وعملها، وهي إجمالاً لا تصنع إلا الشر والأذى، أما إذا قدموا لها القرابين وأكرموها فإنها تكف عنهم الأذى وتدفع عنهم البلاء والوباء، وإذا جاءهم الشر أو أي مكروهٍ نسبوه إلى تلك الأرواح المخيفة.. وهم يعتقدون بالعين الشريرة، ويرون في بعضها سحراً حقيقياً يمكن أن يؤذي بمجرد النظر إليه ويعتقدون أن من يموت حتف أنفه فهو سعيد في «بلاد الموتى» وأما من مات مقتولاً فهو شقي حتى ينتقم له ثم يسعد بعد ذلك، ومن قتل في طلب الثأر يصبح عبداً للقاتل بعد مماته.. ويعدّون أن عمل الخير أو العمل الصالح ليس مصدراً للسعادة، وأن الشر ليس مصدراً للشقاء، وإنما يكون الإنسان سعيداً بعدد الذين قتلهم في حياته، فيكثر خدمه وعبيده بعد مماته، ويعدّون الحياة

ويطعمون هذا الغلام من المواد المعطّشة مثل الملح والفلفل والزنجبيل وغير ذلك، حتى يكاد يموت من العطش. ثم يحضرون له الماء ويضعونه أمامه دون أن يتمكن من الحصول عليه، حتى يقسم لهم بنصرة قبيلتهم في العالم الآخر. فإذا أقسم بذلك عدّوه وعداً منه، وصبّوا في حلقه رصاصاً ذائباً بدلاً من الماء، فيموت الغلام وهو على قَسَمِه وعلى وعْده.

وعند جيرانهم قبائل «النياس Nias» وهم من عبد الأنصاب والأرواح الشريرة. ولا صورة عندهم للروح المنفصلة عن الجسم، وهم ينصبون أنصاباً صغيرة حجرية أو خشبية تحميهم من الأمراض والمصائب ولديهم إله أعظم يسمى «لوبولاتجي» يقيم في الهواء، أو في شجرة باسقة تنثر في الفضاء ثماراً، إذا ظلت معلقة في الهواء صارت أرواحاً، وإذا سقطت على الأرض صارت بشراً، ويحسبون حساب الأرواح الشرّيرة التي تسبب لهم المصائب. وهم ينسبون الزلازل والمد والجزر والخسوف والكسوف وغير ذلك من حوادث الطبيعة إلى أعمال الشيطان، ويعدّون المذنّبات نجوماً لها أذناب يتعلق بها الشياطين يطوفون العالم ليرجموه بالمصائب والشرور والآلام..

وخلاصة القول: فإن هذه القبائل المغولية على كثرتها تعدّ من الشعوب المتخلفة حضارياً واجتماعياً وعقائدياً، وهي متشابهة في كثير من صفاتها، إلا أنه يبقى لكل منها عادات وتقاليد تميزها عن غيرها من القبائل، انفردت بها وعُرفت من خلال ممارستها.

الفصل الرابع
الهنود الحمر في أمريكا

تمهيد:

عندما وصل كولومبوس إلى العالم الجديد في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، وجد شعوباً وقبائل كثيرة في تلك البلاد المجهولة، فظن واهماً أنه وصل إلى هدفه المنشود، إلى بلاد الهند، بلاد التوابل والبهارات، فدعا تلك البلاد باسم «الهند» وأطلق على شعوبها اسم الهنود، وعندما ظهر خطأ كولومبوس سميت البلاد الجديدة باسم «أميركا» نسبة إلى المكتشف «امريكوفوسبوتشي». وسمّي سكانها باسم هنود أميركا أو الهنود الحمر، تمييزاً لهم عن الهنود الشرقيين في بلاد آسيا.. أما أصلهم فالأرجح أنهم نزحوا من نصف الكرة الشرقي منذ العصر الجليدي أو قبله، ويمكن إرجاع نسبهم إلى أصلين امتزجا فتولد منهما الجنس الهندي الأميركي المعروف، وذلك بسبب اختلافاتهم العرقية والجسدية.

فالأصل الأول: نزح من أوروبا، وهم أصحاب الرؤوس المستطيلة.

والأصل الثاني: نزح من مغول آسيا عبر مضيق بهرنغ، وهم أصحاب الرؤوس المستديرة.

وكذلك فهم يتمتعون بصفاتٍ عرقيةٍ مشتركة، فالرأس مختلف بين الاستدارة والطول، والفك غليظ بارز قليلاً، الوجنات بارزة أيضاً، الأنف كبير

وقبائل «الرؤوس المسطحة» التي تنتشر بين الجبال الصخرية والمحيط الهادي غرباً، وهم يسطحون رؤوس أطفالهم صغاراً عنوة.

وقبائل «الشوشون» أو الأفاعي، وينتشرون في سهول كاليفورنيا وتكساس..

وقبائل أخرى متعددة تنتشر في أميركا الشمالية منها قبائل «الألغونكو، والتاراهومار، والأيروكيو، والجنكديان، والساليش، والبوني، والبوبلو، وغيرها». وتنتشر هذه القبائل التي تعيش أدنى درجات الحضارة والحياة إلى جانب الشعوب الأميركية التي تمثل طليعة شعوب العالم حضارة وحياة، فيا للغرابة والعجب!!.

وقبائل «البوبلو» تعدّ أرقى هنود الشمال، وهم ينتشرون في أريزونا والمكسيك وتشكل هذه القبائل شعوباً مختلفة شكلاً ولغةً ولكنهم متحدون في عاداتهم وتقاليدهم وطقوسهم، ويشكلون الحلقة الواصلة بين هنود الشمال البدائيين وهنود الجنوب الأكثر حضارة وتطوراً.

وتمتاز مجموعة البوبلو بتعاليم رمزية تظهر في احتفالاتهم السنوية كرقص الثعابين وغيرها، وتنتشر عبادة الأفاعي في سهول المسيسبي وفي المكسيك والبيرو، كما أنهم يعبدون آلهة متعددة تنسب إليها أعمال مختلفة، وهم يحترمون هذه الآلهة الحيوانية بطقوس راقية يمثلونها بحيوانات حيّة، وأهم معبوداتهم هذه: الثعابين والأفاعي السامة وبخاصة ذات الأجراس التي لها دور كبير في احتفالاتهم كالاستسقاء وغير ذلك، لأن بلادهم كثيرة الجدب والجفاف..

ثانياً ـ قبائل أميركا الوسطى:

وهي قبائل قديمة تميزت على غيرها بقيام حضارات متقدمة لمجموعتين من الأمم؛ تعرف الأولى باسم الأزتيك وتوجد في سهول المكسيك، وهم يعتقدون أنهم جاؤوا من الكهوف السبعة في أقصى الشمال ولما وصلوا مقرهم

الحالي بنوا مدينة مكسيكو قبل مجيء الأسبان إليها بمئتي عام. وتعرف الثانية باسم المايا وتوجد في غواتيمالا ويوكاتان. وكانت أمة «التولتوك» قد سبقتهم في هذه البلاد وهي على جانب كبير من الحضارة والرقي، فقد بنوا الأهرامات وخلفوا الآثار الفنية العجيبة وهم أول من أسس مملكة متمدنة في تلك المناطق، في القرن السادس أو السابع الميلادي.

وقد تميزت هذه الأمة بصفات خاصة، وبآثار ضخمة دلت عليها. تلك الآثار التي تشبه ما خلّفه الفراعنة في مصر من جمال البناء وفخامة العمران التي تنم عن عبقرية بشرية فذّة، وبخاصة تلك الآثار في مدينة متلا Mitla عاصمة الزابوتك..

أما آلهتهم فقد تميزت بكثرة عددها، وعدم وجود زعيم ديني لها، حيث كان عند «المايا» خمسة عشر إلٰهاً على شكل البشر، ونحو نصفهم بأشكال حيوانية، وفي جملتها هي آلهة الموت والليل والشمس والقمر، والحرب والأفعى والماء والعواصف وغيرها.

أما «الأزتيك» فلا يختلفون عن المايا في هذه الناحية إلا أنهم كانوا يعتقدون بما يشبه «ملك الملوك» أو إلٰه الآلهة. ويعدّونه الإلٰه الأعظم، وهم لا يقدمون له القرابين لأنه باعتبارهم في غِنى عنها، وهو أسمى وأرفع من ذلك...

ثالثاً ـ قبائل أميركا الجنوبية:

يوجد العديد من القبائل البدائية الهمجية، ولا يستثنى منهم إلا شعوب البيرو، الذين أسسوا حضارة الأنكا. تلك الحضارة التاريخية المشهودة.. أما تلك القبائل فلديهم معبود أول هو الشمس، وهو رئيس كل معبوداتهم، ولديهم إلٰه سرّي يسمونه «الإلٰه المجهول» وهو غير مرئي..

من هذه القبائل «الموسكا» الذين يعيشون قرب بنما وفي كولومبيا. ولهم تقاليد تدل على أنهم مدينون بارتقائهم الاجتماعي والسياسي إلى كائن خرافي يسمى «بوتشيكا» وهو وسط بين الآلهة والبشر. جاء قديماً من الشرق فعلّمهم كل

الجنوب الأميركي وجزر الهند الغربية عادة شائعة عندهم تمارس بلا وازع ديني ولا رادع أخلاقي. ومما يروى عن هذه القبائل قصص كثيرة تقشعر لها الأبدان.

فقبائل «الكاتيو» في كولومبيا يسمّنون أسراهم للاتجار بهم، وبيعهم كالمواشي.

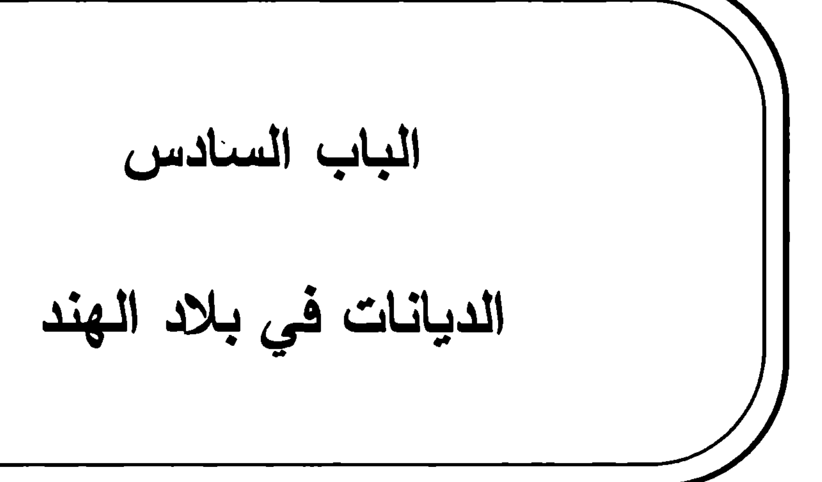
وقبائل «الداديون» بجوارهم يسرقون نساء أعدائهم، ويستولدونهنّ ويربّون أولادهن حتى الرابعة عشرة، ثم يأكلونها بلذّة وشهية ثم يأكلون النساء بعد ذلك..

وقبائل «الكولوما» من سكان الأمازون الأعلى يأكلون موتاهم ويطحنون عظامهم، ويتناولونها مع أشربتهم المختمرة، وحجتهم في ذلك أن من الأفضل لتلك البقايا من الجثث أن تحفظ في أحشاء الأصدقاء من أن تبتلعها الأرض.

وأما عند قبائل «الكريب» فأحشاء الأحياء هي مقابر للموتىٰ في أميركا الوسطى وخاصة في غريناداد فقد شوهد الرجل يأكل جثة امرأته، والأخ يأكل لحم أخيه فعلاً، وابن يتلذذ بوجبة شهية من لحم أبيه الميت. أما الأسرىٰ عندهم فكانوا يأكلونهم بشراهة ومنهم بعد أن يشووهم على النار الهادئة.

وقبائل «البوتوك» التي مرّ ذكرها معنا في شرق البرازيل، فهم يعدّون لحم الإنسان ألذّ المأكولات وأطيبها حيث يطبخونه في حلل ضخمة ويلتهمون كل أعضاء الضحية البشرية إلا الرؤوس التي كانوا يحتفظون بها للزهو والمفاخرة وللزينة كذلك، كما يصنعون من الأسنان والأصابع العقود يعلقونها في أعناقهم وعلى صدورهم.

وهذا غيض من فيض أمثال القبائل الهمجية التي تتعايش إلى جانب الشعوب المتحضرة التي تعمل على قهرها وإفنائها. وهنا لا بد من التساؤل: هل يمكن أن نعدّ هذه الأقوام المتوحشة ذات الطبيعة الهمجية لها صفات الإنسانية؟ وهل مثل هذه الأقوام تلتزم بعبادة إلٰه أو باحترامه على الأقل. إن مثل هذه الشعوب البدائية الفطرية لا تخرج عن كونها مجتمعاً بهيمياً غير منظم تسيطر فيه القوة والغريزة ولا تؤمن بنظام ولا بإلٰه ولا بدين. ولا يعرفون من الحياة الدنيا إلا مفاسدها وإن ظهر عند قلة منهم بعض الطفرات الحضارية الفجّة..



الباب السادس

الديانات في بلاد الهند

الفصل الاول
الديانة الهندية القديمة

1 ـ تمهيد:

الهند بلاد الأساطير والعجائب، وعلى أرضها تتنوع الألوان البشرية، وتتعدد اللغات وفيها تكثر المِلَل والنِّحَل، وتختلف الأديان وتتنوع، وهي تحتوي على المتناقضات في كل شيء وتعدّ بلاد الهند من الأمم العريقة تاريخياً وحضارياً، فلها تاريخ مجيد وحضارة قديمة زاهرة، استمرت بشكل متواصل قرابة خمسة وأربعين قرناً من الزمن، هذا ما دلّت عليه الآثار والحفريات في حوض السند، هذه البقعة من العالم التي شهدت ولادة حضارة رائعة منذ القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد، على يد سكان البلاد الأصليين وهم «الدرافيديون».

ومنذ حوالي عام (1600 ق. م) تعرضت الهند لغزوات خارجية هي الأولى من نوعها، قامت بها عناصر آرية، جاءت عبر ممرات طبيعية أمثال: ممر خيبر، وممر بولان في شمال غرب البلاد، كان الآريون يعملون في الزراعة والرعي في بلادهم، فأدخلوا إلى الهند نظاماً اجتماعياً طبقياً متميزاً، وبقيت الهند مقسّمة في أيامهم إلى ممالك وإمارات تتصارع فيما بينها، الأمر الذي أدى إلى قيام إصلاحات دينية اجتماعية داخل البلاد على يد البوذية والجينية وغيرها، كما أدخل الآريون معهم موجودات بلادهم كالحصان والعربة ذات العجلات والسفن الشراعية وفن تصنيع الحديد وغير ذلك...

سمّيت فترة وجود الآريين في الهند (عصر الڤيدا). وفيه تكونت الحضارة المتقدمة، ودخلت إلى الهند ديانة جديدة، فرضتها القبائل الآرية الغازية، على الأمم السالفة والشعوب الأصيلة، فطمسوا معالم حضارتهم، وقوّضوا دعائمَها، ولم يتركوهم أحراراً في ممارسة ديانتهم القديمة، بل نسخوا كل آلهتهم الكثيرة، واستبدلوا بها آلهة آرية جديدة، كانوا يعبدونها في بلادهم.

فما هي الديانة الهندية القديمة قبل الغزو الآري؟

2 ـ الديانة القديمة:

إن أقدم ديانات الهند كانت طوطمية لأرواح كثيرة كانت تسكن الصخور والجبال ومجاري الماء والنجوم والأشجار والحيوانات، وغير ذلك..

لقد عبد الهنود أقوى الآلهة وأشدها بأساً، المتمثلة في قوى الطبيعة وعناصرها كالسماء والأرض والشمس والنار، والرياح والماء والجنس، وقد شخّصوا هذه العناصر، فجعلوا السماء أباً، والأرض أماً، وبقيت النار فترة طويلة أهم الآلهة الهندية القديمة، فهي المعبود المقدس الذي تُقَدَّم إليه القرابين من خبز وخمر وأعشاب.. ويتولى الكهنة وهم سدنة معابد النيران القيام بما يقتضيه التقديم من طقوس ورسوم في تلك الديانة. وكانت الشمس الإلٰه الآخر الذي يشارك إلٰه النار في التقديس والألوهية، لِمَا تفيضُ به على الكون من أشعة مضيئة وحرارة تنعش الأجسام.

وكان إلٰه المطر، وإلٰه الريح، وإلٰه العاصفة إضافة إلى آلهة أخرى حيوانية مثل تنّين مفزع، أو وحشٍ هائل.. من آلهة قدماء الهنود. وتعددت الطوائف، فبعد أن كان الهنود يؤمنون بأن عدد الطوائف أربع فقط، أصبح عددها تسعة عشر ألف طائفة أو يزيد. وزاد كذلك عدد الآلهة فبعد أن كان الهنود يعبدون ثلاثة وثلاثين إلٰهاً، في كل الهند في فترة عصر الڤيدا هي آلهة طبيعية، أصبح لديهم عدة مئات من الآلهة المتنوعة حتى أن بعضهم لا يزال يؤمن إلى يومنا هذا بعبادة الثعابين وبعضهم يؤمن بآلهة وأصنام متعددة الرؤوس والأقدام والأيدي،

ومعبودات أخرى لها رأس الفيل أو رأس البشر، وكثير منهم يعبدون الأبقار والثيران والقردة وغير ذلك..

وقد آمن الهنود القدماء بالعالم الآخر أي عالم الأموات، فإذا مات الأخيار منهم ورضيت عنهم الآلهة تُمْنَح أرواحهم معرفة الغيب، والقُدرة على التأثير في الكون والمشاركة في تصريفه وتدبير أمره بمجرد مغادرتها الأجسام.. وقد استمرت هذه الديانة القديمة سائدة في بلاد الهند حتى جاءت الديانة الجديدة مع الغزو الآري لبلادهم.. وقد تنوعت الآلهة الهندية القديمة بتنوع مظاهر الطبيعة وقواها المعبودة، منها: «فارونا» إلٰه السماء.. «برينيفي» إلٰه الأرض.. «آجني» إلٰه النار.. «بارجانيا» إلٰه المطر.. «فايو» إلٰه الريح.. «آندرا» إلٰه العاصفة.. «أوشاس» إلٰه الفجر.. وأمَّا إلٰه الشمس هو «سوربا» أو «مترا» أو «فشنوا».. «سوما» إلٰه النبات المقدس الذي يسكر عصيره كل الناس والآلهة.. «فيفاسغات» إلٰه ضوء الشمس.. «براجاباتي» إلٰه جميع الأحياء.. أمَّا «براهما» فهو خالق كل شيء، وهو الذي ابتلع براجاباتي داخل جوفه الكبير...

الفصل الثاني

1 ـ الديانة الهندوسية:

وهي الديانة السائدة في بلاد الهند، وتختلف عن الأديان المعروفة اختلافاً كبيراً، فهي أسلوب حياتي، وسلوك دنيوي. وليست ديناً سماوياً، وهي لا تنتسب إلى نبي أو رسول، وليس لها كتاب منزل، بل هي دين متطور يحتوي مجموعة من الأفكار والتقاليد والشعائر نمت على مَرِّ السنين والأجيال، تقوم على فكرة خلود الروح، وعلى حرية الفرد في اختيار سبيله في الحياة، وطريقته في العبادة، وهي تجمع بين الوثنية الساذجة والآراء الفلسفية السامية والزهد الصادق.

وترجع في نشأتها إلىٰ الغزو الآري للهند حوالي (1500 ق. م) حيث جاءت معهم، وأقدم كتاب يمثل أفكار الآريين وعقائدهم هو كتاب «الڤيدا» وتعني المعرفة، أي المعرفة التي توصل المخلوق لكسب رضا الخالق وهي مجموعة أغاني دينية، تُنْشَد أمام الآلهة الآرية، عند تقديم الأضاحي لها والتقرب منها، وتشتمل الڤيدا على أساطير وقصص قديمة وعلى توسلات ومدائح موجهة إلىٰ الآلهة، وأقدم الآلهة التي ذكرتها أسفار «الڤيدا» هي قوىٰ الطبيعة وعناصرها، وكان أهمها آلهة النار، فالشعلة المقدسة التي ترفع القربان إلىٰ السماء العليا، ويظهر التوحيد في بعض أناشيدهم الدينية، فقد ورد في كتاب «الڤيدا» مَا يلي:

«إنني أنَا الله، نورُ الشمسِ، وضَوءُ القمرَ، وبريق اللهب، ووميض البرق، وصوت الرياح، أنا الرائحة الطيبة التي تنبعث في أنحاء الكون، والأصل الأزلي لجميع الكائنات.. أنا حياة كل موجود، وصلاح الصالح.. أنا الأول والأخير، والحياة والموت لكل كائن...».

وهذا هو «براهما» يقول بصوت هادر متكبر، ولكن الله أكبر منه.. وأعظم من في الوجود.. يقول الإله براهما: «أنَا أقوى من السماء، وأعظم من الأرض، وأرفع من كل هذه الأجرام والكواكب حولي، أنا أعلىٰ من جميع هذه الأشياء.. أنا الكُلُّ في الكُلِّ.. أفعلُ ما أريد.. وأخلق كل ما يخطر لي.. أنا جوهر العالم الواحد الشامل.. لست بالذكر ولا بالأنثى.. إنما أنا روح غير مشخص في صفاته.. أحتوي كل شيء.. وأكمن في كل شيء لا تدركني الحواس، لأنني أنا حقيقة الحقيقة.. أنا.. براهما».

لقد كانت آلهتهم على شكل البشر في صورة الجسم وفي دوافع العمل أيضاً، ولم يكن للديانة الفيدية في بدايتها معابد ولا أصنام، بل كانت مذابح القرابين تنصب عند تقديم كل قربان. وقلّما نجد هندوسياً لا يعبد عدداً من الآلهة، فالعالم عندهم زاخر بالآلهة، حتى أنه يكاد يتوجّه بصلاته إلى كل شيء، فكل شيء بنظرهم إله معبود.. وهم يتفاءلون بالكوكب (زحل)، ويعدّونه رمزاً للطالع الحسن، كما اعتقدوا بالكواكب السبعة[1]. (الشكل رقم 18).

وعندما جاء الآريّون الزراعيون إلى الهند، كانوا يستخدمون البقرة دون أن يقدّسوها، وكانوا يأكلون من لحومها قدر ما يستطيعون، ويهبون جزءاً منها للكهنة أو للآلهة ولكنهم حرّموا ذلك فيما بعد لتأثرهم بالبوذية.. فالهندوسية هي التي شرّعت أساليب الحياة الهندية ووضعت تقاليدها ونظامها الاجتماعي والاقتصادي، ونظام تعدد الطبقات، وفصل بعضها عن بعض..

---

(1) الكواكب السبعة: رافي (الشمس). شاندرا (القمر). مانجالا (المريخ). بودا (عطارد). براهسباتي (جوبيتير ـ المشتري). سوكرا (الزهرة). ساني (زحل).

وهي التي تقرر مركز الإنسان الاجتماعي من المهد إلى اللحد، حيث لا يستطيع الهندوسي أن يخرج عن حدود طبقته، مهما بذل من جهود.. أو أن يحطّم الجدران التي تفصل بين الطبقات الاجتماعية الموضوعة.. ويقوم مبدأ الفصل الطبقي على نظام يسمى «فارنا»، ومعناه اللون أي أنه يقوم على أساس الاختلاف في اللون وهو تمييز عنصري بغيض تمقته الأديان والشرائع..

ويشكل البراهمة (وهم رجال الدين) الطبقة الممتازة في المجتمع الهندوسي، ولهم وحدهم حق إقامة الشعائر الهندوسية، وهي شعائر معقدة لا يحفظها غيرهم، ولا يحق لغيرهم تعليمها.. وتطلق كلمة البراهمي على كل من ينتسب إليها.. ومن يدخل في طبقة الكهنة أو البراهمة عليه أن يجتاز أربع مراحل تعليمية:

1 ـ مرحلة التلمذة: ويتعلم فيها الطالب أسفار الفيدا وشروحها.

2 ـ المرحلة التي يصبح فيها الطالب رب عائلة، وتبتدىء من السن الخامسة والعشرين..

3 ـ مرحلة النّسك والعبادة: حيث يهيم المتعلم في الغابات بحثاً عن الحقيقة ويقتات مما يجود عليه الناس..

4 ـ المرحلة التي يصبح فيها المتعلم فقيراً، زاهداً، متجولاً، وهي أسمى الدّرجات عندما يخرج من حكم الجسد. وتتحكم فيه الروح فقط، ويتقرب إلى الآلهة..

وكان التعليم ينقل شفهياً، حتى لا تصل المعرفة المكتوبة إلى الطبقات الدنيا.. وهذا يعني أن البراهمة لا يؤمنون بالتوحيد المطلق.. وهم في ذلك شأن العرب في الجاهلية.. وينتسب البراهمة إلى رجل منهم يقال له (براهم)، وقد أنكر النبوّات ونفى وجودها أصلاً، وهو يقول: «إن أكبر الكبائر في الرسالة اتباع رجل، هو مثلك في الصورة والنفس والعقل، يأكل مما تأكل، ويشرب مما تشرب، حتى تكون بالنسبة إليه كجماد يتصرف فيك رَفْعاً ووضْعاً، أو كحيوان

يصرفك أماماً وخلْفاً. . أو كعبد يتقدم إليك أمراً ونهياً. . فأي تمييز عليك؟ وما دليله على صدق دعواه؟.

هذا ما قاله المشركون بحق الرسول الكريم محمد ﷺ، عندما لم يجدوا فيه علة أو عيباً يعيبونه به: ﴿وقالوا مالِ هذا الرسول يأكل الطعامَ، ويمشي في الأسواق، لولا أنزلَ إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾[1] ويعتقد الهنود أن بعض آلهتهم حلّت في إنسان اسمه (كريشنه) الذي ولد حوالي (4800 ق. م). والتقى فيه الإله بالإنسان، (كما يعبر المسيحيون عن السيد المسيح حيث يقولون إن الإله يتجسد في عيسى المسيح). ويصفون كريشنه بأنه البطل الوديع المليء ألوهية لإنّه قَدَّم شخصه فداء للخليقة عن ذنبها الأول. . ويقولون إن عمله هذا لا يقدر على فعلته أحدٌ سواه، ويذكرون عنه من الأساطير والخرافات ما يشبه ما جاء عن المسيح في الأناجيل. . فقد عمل على تهذيب أبناء جلدته، وحضّهم على التمسك بالأخلاق الفاضلة والابتعاد عن الشر. . من أقوال كريشنه: «إنّ الجسد الذي تهبط إليه النفس شيء زائل، أما النفس التي لا تدركها العين فهي أبدية». ويقول أيضاً: «إذا انحلّ الجسدُ بالموت، طارت النفس التي تتغلب عليها الحكمة إلىٰ الطبقات العليا، التي يرى فيها الأتقياء الله، ويدركون كماله، وإذا كانت الشهوات متغلبة على النفس فإنها ترد ثانية إلى الأرض».

يقولون عن كريشنه: إنه ولد من عذراء مخطوبة اسمها «ديفالي». ويصفونه بأنه الإلٰه وأن ولادته أحيطت بالعجائب، فالأرض سبّحت، وظهر نجمه في السماء، وترنحت الأرواح طرباً وفرحاً، ورتل السحاب بأنغام مطربة، وقد ولدته أمه في غار فأضاء عند ولادته نور عظيم، وصار وجه أمه يرسل أشعة مجد ونور، وهو يشبه بقصته هذه قصة السيد المسيح عيسى ابن مريم. .

2 ـ الحيوانات المقدسة في الهند:

إلىٰ جانب الآلهة المعروفة عند الهنود، توجد القردة والأفاعي، فهي

---

(1) سورة الفرقان، آية: 7.

مصادر الرعب التي ترمز لطبيعة الآلهة ولعل أخطر هذه الأفاعي المقدسة، أفعى تسمى «ناجا». ولها عند الهندوس منزلة خاصة فعضّة واحدة منها تؤدي إلىٰ موت سريع.. لهذا فهم يقيمون احتفالاً دينياً كل عام، تقدم لها منه ولكل الأفاعي من نوعها قرابين من اللبن واللوز، وتوضع عند مداخل جحورها اتقاءً لشرها. وأكبر مراكز عبادة الأفاعي في شرقي «ميسور»، حيث تسكن في معابد هذا الإقليم جموع زاخرة من الأفاعي، ويقوم عدد من الكهنة بإطعامها ورعايتها والاهتمام بها.

وكذلك التماسيح والنمور والطواويس والببغاوات والفئران، لها جميعها قدسية عند الهندوس والهندوسي لا يرى فارقاً بين الإنسان والحيوان، فلكل منهما روح وهذه الأرواح تمضي متنقلة بين الإنسـان والحيوان عن طـريق التناسخ..

أما البقرة فهي خير معبود عند الهندوس وهي أكثر الحيوانات قدسية عندهم، ولها تماثيل في كل معبد أو منزل أو ميدان، ولها مطلق الحرية في ارتياد الطرقات والمحلات العامة والخاصة كيف تشاء، ولا يحل للهندوسي أكل لحمها مهما كانت الأسباب، ولا يجوز له استغلال جلدها في أي صناعة من الصناعات. وتكون الطاقة الكبرى إذا اعتدى أحد عليها أو نَهَرَهَا، وإذا ماتت، دفنت بإجلال وتقديس مع أعظم طقوس الدين. ولله في خلقه شؤون...

3 ـ العقائد الهندوسية:

أهمها:

1 ـ عقيدة التناسخ:

وهي انتقال الروح من جسد إلى آخر يؤثر ذلك على عمل الإنسان، فإن كان صالحاً انتقل إلى مخلوق صالح، وإن كان فاسداً انتقل إلى نسل غير صالح. وقد تنتقل الروح إلى حيوان أيضاً وتستمر الروح في الانتقال من جسد إلى آخر، إلى أن يشاء الله لها أن ترفع بعد تطهيرها من الآثام، والوصول إلى

أسمى مرتبة وهي الاتصال بالروح الأسمى. ويرتبط بعقيدة التناسخ هذه إيمان الهندوس بأن أعمال الإنسان تتبعه من حياة إلى أخرى، فأعماله الصالحة تنفعه في حياته التالية، وسيكون له حظ أوفر.. ولهذا يفسر الهندوس اختلاف الحظوظ بين الناس وتباين أقدارهم ومنازلهم، فهم يتقبلون الشر أو المصائب إذا حلت بهم على أنها جزاء عادل، وهذه العقيدة تعرف «بالكرْما»، ومعناها العمل الذي لا بد منه في الحياة، وقد كانت عاملاً أساسياً في استمرار بعض المظالم الاجتماعية، مثل: نجاسة المنبوذين، واحتقار الأرامل، وغير ذلك.

2 ـ عقيدة تقديس الروح وعبادتها:

فهي من أعظم ما يؤثر في حياة الهندوس الدينية، تقول السيدة أمينة السعيد في كتابها «مشاهدات في الهند» ما يلي: «تقوم الهندوسية أصلاً على عبادة الروح وتقديسها، حتى لو كانت لأحقر الحيوانات أو الحشرات، لهذا فهم يرفضون قتل الحيوان أو تعذيبه حتى لو كان يسبب الضرر لبني البشر.. وللأشجار الكبيرة قدسيتها أيضاً، فقطع الأغصان أو تشذيب الشجرة أمر غير مسموح به، فتنمو الأشجار على فطرتها، وتتكاثف أغصانها حتى تعيق المرور في بعض الأحيان..» وجاء في كتاب ملامح الهند والباكستان[1] ما يلي: «وأساس الهندوسية هو فكر الروح العالمية، وليس العالم المادي إلاّ غطاءً زائفاً يحجب الحقيقة الروحية تحت قناع المادة».

3 ـ عقيدة تقديس البقرة حتى العبادة:

فالهندوسي لا يمكن أن يؤذي بقرة مهما فعلت.. وليس له أن يأخذ منها إلاّ اللبن والروث والبول، فهو يستعمل الروث وقوداً، أما اللبن والبول فهي من الأشياء المباركة عندهم، ولا يشعر الهندوسي بنفور مطلقاً من بول البقرة بل يصفونه شفاء للناس من الأمراض في بعض الحالات. ولهذا تنتقل البقرة في

---

(1) تأليف د. محمد عبد المنعم شرقاوي و د. محمد محمود الصياد.

شوارع المدن كيفما تشاء وتأكل من المزروعات ما تريد، ولا يجوز ذبحها أو أكل لحمها وهم ينفرون من كل من يفعل ذلك أو يعاكسها..

4 ـ عقيدة تقديس نهر الغانج:

حيث أن غاية الواحد منهم أن تحرق جثته ويُلقى رمادها في ذلك النهر المقدس، وعندما يغتسلون في مياهه يعتقدون أنه يطهرهم من جميع الذنوب والآثام ويطلقون عليه اسم «جانجا ماثا» أي الغانج الأم، فهو عندهم بمثابة الأم، ويؤمه في الأعياد الدينية حجاجاً من أقاصي الهند للاغتسال في مياهه ومعظمهم يأتون مشياً على الأقدام. (شكل 19). يصف العالم «جوليان هكسلي» احتشاد الحجاج عام 1954 في أحد الأعياد الدينية الهندوسية الكبيرة في المدينة المقدسة «الله آباد» حيث زاد عددهم عن أربعة ملايين حاج جاءوا للاغتسال في مياه الغانج فيقول: «إنني لا أنسى منظر هذه الأكوام من النمل البشري وقد تكاتفوا في بقع خاصة، وهم يتحركون نحو جسور مؤقتة أقيمت على قوارب فوق مياه النهر للوصول إلى أماكن المياه المقدسة، وقد تحول المنظر إلى مأساة فظيعة عندما خرج الجمهور من كل سيطرة وداس تحت أقدامه أربعمائة من الناس العاجزين فراحوا شهداء العقيدة الدينية». وقد أثرت البوذية في الهندوسية وقد ترك الهندوس عادة الزواج من زوجات كثيرة واكتفوا بزوجة واحدة..

وأخذوا عن البوذية فكرة تحريم قتل الحيوان والامتناع عن أكل اللحوم وتحريم الخمور وتركوا عادة تقديم القرابين للآلهة، وأخذوا كذلك مبدأ الخدمة العامة، ومن مبادىء البوذية التي انتقلت إلى الهندوسية عقيدة السلام وتجنب العنف.. وكان غاندي من أحسن المعلمين الذي أثروا في الثقافة والعقيدة الهندوسية، ودعا إلى اتباع الوسائل السلمية والابتعاد عن العنف للوصول إلى الحق الإنساني.

4 ـ تعاليم الديانة البرهمية:

وهي: 1 ـ الكائن الإلهي. 2 ـ مقابلة الإساءة بالإحسان. 3 ـ القناعة.

4 ـ الاستقامة. 5 ـ الطهارة. 6 ـ كبح جماح الحواس. 7 ـ معرفة الفيدا. 8 ـ الصبر. 9 ـ الصدق. 10 ـ اجتناب الغضب.

وهي الوصايا العشر للديانة البرهمية. .

5 ـ الآلهة الهندوسية:

يتكلم الهندوس عن آلهة لا يحصى عددها، ومع ذلك يقولون بالتوحيد وعبادة الإله الواحد ويخلصون له، ويقدمون له القرابين، ويسمونه رب الأرباب، حتى وصلوا في القرن التاسع قبل الميلاد إلى الاعتقاد بإله واحد، بيده مقادير الكون، وهو الإله «براهما» خالق كل شيء، والجد الأكبر لكل الآلهة، وهو إله الآله. (شكل 20). إن الهندوسية دين معقد، ويتعذر على الإنسان أن يصل إلى حقيقته وجوهره. ويعود سبب تعقيد هذه الديانة إلى أنها خليط من أديان ومعتقدات كثيرة منذ بدايتها حيث سادت لديهم عبادة قوى الطبيعة وعناصرها، وعادة تأليه الأبطال، وإحاطة أسمائهم بالتقديس والمعجزات والخرافات الأسطورية.

جاء في كتاب «ملاح الهند والباكستان» ما يلي: «تختلف الآلهة في أخلاقها، وفي ألوان العبادة التي تتطلبها. فالآلهة «كالي» تعشق الدماء، وتُعْبَد بتقديم قرابين الماعز لها. بينما ترضى الآلهة اللطيفة «لاكشمي» إلهة الثروة (شكل 21) بما يُقَدّم إليها من الفاكهة والزهور. بينما يمثل بعضها الآخر مثل الآلهة «ماريما» إلهة الجدري بقية من العبادات القديمة للأرواح الشريرة، وبعضها الآخر كالآلهة «راما» والآلهة «كريستا» ليستا سوى ملوك رفعوا إلى درجة الآلهة. وبعض الآلهة كالإله فشنو (إله الشمس) ينحدر من آلهة الطبيعة الآرية. .».

ويعتقد أن منشأ الوثنية في الديانة البراهمية هو أنهم كانوا يعبدون القوى المؤثرة في الكون وتقلباته. ثم جسّدوا تلك القوى، فاعتقدوا بحلولها في بعض الأجسام، فعبدوا الأصنام لحلولها فيها. . وتعددت الآلهة عندهم، فوصلت إلى

ثلاثة وثلاثين إلٰهاً، ثم أصاب عقائدهم التغيير والتبديل. فاعتقدوا أخيراً بالثالوث الإلٰهي المُشَكَّل من:

1 ـ براهما:

وهو الإلٰه الخالق، مانح الحياة وسيد الآلهة، وهو القوي القادر الذي تصدر عنه جميع الأفعال. (شكل 20) وهو يمثل إلٰه الخير، وهو الذي يرجو رحمته وكرمه وعطفه جميع الأحياء وينسبون إليه الشمس التي يكون بها الدفء وانتعاش الأجسام. وتجري بسببها الحياة في النبات والحيوان ويعتقد أنه خالق الكون على طريقته، فقد أخذ براهما يتأمل ويفكر طويلاً. فنشأ عن تفكيره هذا فكرة مخصبة، تطورت إلى بذرة ذهبية ومن تلك البيضة وُلِدَ براهما خالق كل شيء، فهو الخالق والمخلوق!.

2 ـ الإلٰه فيشنو:

الحافظ، وهو إلٰه الحب الذي كثيراً ما ينقلب إلى إنسان ليقدم العون إلى بني البشر، ويجعل من نفسه أرضاً ليستقر عليها الحيوان، وماءً ليغذيهم ويجعلها ناراً وريحاً لينميهم وينشئهم، ويجعلها قلباً لكل واحد منهم، ويعدّون كل معاني الخير والسموّ هي من فيض فيشنو كما قال البيروني. وأعظم ما يتجسد فيه فيشنو هو شخصية كريشنة، وله زوجة اسمها «لاكشمي». (شكل 21).

3 ـ الإلٰه شيفا:

ومعناه «العطوف»، ولكنه في الحقيقة هو المُهلِك المدمّر. وهو إلٰه الشر القسوة والخراب. وهو مسبب الهرم بعد الشباب، واصفرار الأوراق الخضراء، وجفاف مياه الأنهار وغورها، وينسبون إليه النار باعتبار عنصر دمار وخراب. فهي لا تُبْقي ولا تَذْر. وهو الذي يسبب الكوارث والأوبئة والفيضانات والمجاعات، وهو الذي يضع نهايةً لكل شيء، ولذلك يخشاه عباده فيقدمون له الأضاحي الكثيرة، ولو كانت من البشر حتى يرضىٰ عنهم ويكف الأذى والبلاء. وله تماثيل

منحوتة في الصخر تمثله وهو يضع فوق رأسه عدداً من الجماجم، وتحيط به أرواح الشر وهو يمارس رقصة العبوس والضراوة، التي تنتهي بتحطيم العالم ونهايته، وله زوجة اسمها «كالي» (شكل 22).

هذه الآلهة الثلاثة أقانيم لإله واحد، وهو الروح الأعظم واسمه «أتما». ودون هذه الآلهة آلهة أخرى أدنى منها سلطاناً وقوة وعبادة، ولكن البراهمة وهم رجال الدين يرجعون كل شيء إلى الآلهة الثلاثة ويمكن أن يرجعوا كل شيء إلى إله واحد. .

6 ـ مراكز العبادة:

تنتشر معابد الهندوس في كل مكان من الهند، يذهب إليها الناس للدعاء والابتهال، ولكن لا تقام بها صلوات جماعية كما في المساجد أو الكنائس، بل إن الصلوات تقام في مناسباتٍ خاصة يقوم بها البراهمة وحدهم ويبقى المعبد في نظرهم مكاناً مقدساً حتى لو تهدم وأصبح أطلالاً تأوي إليها الطيور، وقد قامت وسط الغابات أديرة ومعابد كثيرة يعيش فيها الزّهاد تحت رئاسة معلم ديني يرشدهم إلى أمور الروح وترك ما عداها. .

وقد تأثرت الهندوسية بالأديان الأخرى، ويشبّه بعضهم الهندوسية بقطعة من الإسفنج التي تمتص الماء دون أن تتغير معالمها الظاهرية. . فقد تأثرت بالبوذية وبالإسلام وغيرهما، وقد انتشرت البراهمية خارج حدود الهند، فقد توجه البراهميون بحراً إلى الجزر القريبة منهم. مثل سومطرة وجاوا وكمبوديا وغيرها. . وأقاموا فيها ممالك ومستعمرات هندوسية، ظلت تسود فيها حتى سطع نور الإسلام في تلك الجزر سنة (1250 م). وقد خلّف الهندوس معابداً وآثاراً كثيرة في هذه الجزر، لا يزال بعضها قائماً حتى اليوم.

7 ـ النظام الطبقي في الديانة الهندوسية:

جاء في شرائع «مينو» التي وُضِعت قبل الميلاد بثلاثة قرون. والتي عُدَّت مرجعاً دينيّاً ومدنياً للهند «لصلاح هذا العالم وفلاحه تخَلَق الإله الأعظم براهما،

الفرق الأربع من وجهه وذراعيه وفخذه وقدميه». ولهذا فالناس ليسوا سواسية في الديانة الهندوسية، لا من حيث العبادة أو الزهادة أو طلب الزُلفى.. وهم يختلفون من حيث الطبقات والأعمال التي يمارسونها، فقد قسمّ الناس من حيث مهمتهم وأصولهم وأنسابهم إلى أربع طبقات وقد كان التقسيم الطبقي يقوم على أساس اللون أو المواليد. وتنتقل الطبقة إلى الخلف والأعقاب بالولادة والأنساب.. وهذه الطبقات هي:

(أ) **الطبقة الأولى**: وهي طبقة البراهمة وهم رجال الدين، وهم يزعمون أنه خُلِقوا من رأس الإله براهما، أو من فمه، لذلك فهم أعلى الناس، وهم خلاصة الجنس البشري وعقله المفكر ورأسه المدبر. فهم في المجتمع كموقع الرأس من الجسد. وإليهم فقط عُهِدَ بقراءة أسفار الڤيدا المقدسة وتعليمها. والبرهمي يعدّ كل ما في العالم مُلْكاً له وهو خليق بكل احترام كيفما كان وضعه، لأن كل برهمي إلٰه.. وإذا ما غضب يستطيع أن يسحق الملك وجيشه جميعاً بتلاوة لعنات ونصوص مسحورة. ومن حاول ضرب برهمي سيصلى عذاب النار لمئة عام، ومن ضربه فعلاً حقت عليه الجحيم ألف عام.

(ب) **الطبقة الثانية**: وهي طبقة الجند و«الكشترية». وهم يزعمون أنهم خُلِقوا من مناكب براهما ومن يديه، فهم الحماة والغزاة، وهم القوة الضاربة، ومرتبتهم تلي مرتبة البراهمة، وعليهم أن يقرأوا في الكتب المقدسة دون أن يعلموها لأحد..

(جـ) **الطبقة الثالثة**: وهي طبقة الزراع والتجار «الويشيون». ويزعمون أنهم خُلِقوا من ركبتي براهما أو فخذيه، وعليهم تحصيل أرزاقهم بجهدهم. ويقومون بتربية المواشي «لأن إلٰه المخلوقات عهد بالمخلوقات إلى البرهمي والكشترى، وعهد بالماشية وتربيتها إلى الويش» وعليه أن يطعم كل المخلوقات..

(د) **الطبقة الرابعة**: وهم الخدم والأسرى «الشودرا»، ويزعمون أنهم خلقوا من قدمي الإلٰه براهما. وهي طبقة حقيرة، وما عليهم إلا الامتثال لأوامر

البراهمية الأسياد وخدمتهم. . ولكل من هذه الطبقات صفات خاصة تتناسب مع وضعهم الاجتماعي. والكل بارع ومهتم في حدود طبقته. وتحت هذه الطبقات الأربع تأتي طبقة المحرومين وأبناء الزني والأنجاس ويعدّون من المنبوذين، وهم في أحط درك، ولا يجوز التزاوج بين طبقتين متتاليتين. . وليس للمنبوذين وجود في طبقات المجتمع الهندي، وهم من الهنود الأصليين، ولا يحملون الدم الآري ويسمّون زنوج الهنود وليس لهم حقوق الإنسان، وديانتهم بدائية تنحصر في عبادة الأرواح. .

وأعظم الآلهة عندهم تكون على شكل كومة من الحجارة. أو في هيئة أخرى ساذجة. . وهذا الإله هو الذي يمنح الخصوبة للعواقر، ويحمي المحصول من الآفات. .

8 ـ الحياة الآخرة:

من عادات الهندوس الوثنية حرق الأجسام بعد الوفاة عند أبناء الطبقة العليا منهم، وذلك لسببين:

1 ـ لاعتقادهم أن النار في اشتعالها تعلو شعلتها إلى أعلى بخط عمودي على أفقية الأرض، والعمود أقرب المستقيمات بين السطوح والخطوط، لهذا تتجه الروح بالاحتراق إلى الأعلى باتجاه عمودي. فتصعد إلى السماء في الملكوت الأعلى في أقرب وقت وأقصر زمن.

2 ـ تخليص الروح من غلاف الجسم تخليصاً تاماً عند الاحتراق. حيث يعتقدون أن في الجسم نقطة بها يكون الإنسان، ويتحول بالاحتراق إلى ذرات صغيرة فتتخلص الروح من الجسد وتعلو عنه لتتصل بجسم آخر. أو أنها تسمو إلى درجة الملائكة، إن كانت قد وصلت إلى درجة الخلاص. وعندما تتخلص الروح من الجسد أمامها ثلاثة عوالم:

أولهما: عالم الملائكة أو العالم الأعلى الذي تصعده الروح إن كانت تستحق الصعود إليه بعملها الصالح. وتسمو إلى الملكوت الأعلى.

ثانيهما: عالم الناس، وهو العالم الحالي لبني البشر، فالروح تعود إليه للحلول في جسم إنساني آخر، لتكتسب عمل الخير، ولتتجنب عمل الشر.

ثالثهما: عالم جهنم وهو لمرتكبي الخطايا الواقعين في الذنوب، وليس هناك جهنم واحدة، بل لكل أصحاب ذنب جهنم خاصة بهم تتناسب مع حجم ذنوبهم، فالروح التي تصعد إلى أعلى ولم تنزل إلى أسفل، تعود إلى جسم آخر لتحل فيه. والبعث عندهم في الحياة الآخرة، تكون للأرواح وليس للأجساد، فهي إما في الملكوت الأعلى وإما في النار..

9 - الكتب الهندوسية المقدسة:

(أ) **الفيدا**: وهي أقدم الكتب الهندوسية، وجدت قبل خمسة عشر قرناً قبل الميلاد، وقد دخلت مع الفاتحين الآريين باعتبارها من أصول ديانتهم. ويقال أنها أقدم من التوراة بآلاف السنين فهي قديمة جداً. والفيدا مجموعة أسفار ليس في كلام البشر ما يشبهها، ويزعم الهندوس أن البشر عاجزون عن أن يأتوا بمثلها. ولكن البيروني يقول: «إن خاصتهم يقولون إن في مقدورهم أن يأتوا بمثلها، ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراماً لها وتقديساً..» وتعد الفيدا سفراً كبيراً يحوي كنزاً ثميناً من المعلومات حول ديانة الهندو الأساسية. وللفيدا أربع مجموعات لكل منها منهج خاص في القراءة، وتلحين خاص في الإلقاء، وتتلى كل مجموعة منها في موضوع خاص بها، ولا يتلى غيرها. وهي:

1 - فيدا الأناشيد «الديجافيدا». ترتل عند تقديم القرابين للنار، ولها ثلاثة مناهج للتلاوة.

2 - فيدا النغمات «السامافيدا». ترتل عند صنع شراب السوما المقدس وتناوله، وله نغم خاص به.

3 - فيدا القرابين «الياجورفيدا». ترتل عند تقديم القرابين، ولكنه مختلف عن فيدا الأناشيد في النغم والتلحين..

4 - الآثار فيدا. تتلى عند السحر والتعاويذ، ولها لحن خاص بها.

(ب) البرهميات: وهي كتب من النثر، ليس منظومة كالفيدا، يسميها البيروني «البيرانات» وهي أقسام كثيرة مختلفة الموضوعات، فمنها ما يحتوي على أحكام شريعتهم، ومنها ما هو خاص بمطالعات النسّاك الذين يهيمون في الأحراش والغابات، ويرغبون في التخلصْ من المادة لينعموا بحرية الروح، ومنها كتب في أصول عقائدهم، تذكر فيها نشأة العالم، وكيف ظهرت آلهتهم، وكيف خلق الإنسان، وكيف وجدت المخلوقات؟ وتبحث في علاقة الإنسان بالآلهة والكون..

(جـ) اليوبانشاد: وهي من الأسفار المقدسة التي تقول: «إن جوهر النفس ليس هو الجسم ولا العقل، ولا الذات الفردية، ولكنه الوجود العميق الصامت الذي لا صورة له. والكامن في دخيلة أنفسنا، واسمه (أتمان)، أما جوهر العالم الواحد الشاملَ الكامن في كل شيء، والذي لا تدركه الحواس، واسمه (براهما)».

10 ـ تناسخ الأرواح «التقمص»:

يعتقد الهندوس أن النفس خالدة، لا تبيد ولا تفنىٰ، وأنها تنتقل من جسم إلى آخر، فيحصل تناسخ الأرواح، وهو الطابع الذي تميزت به الديانة البرهمية.. يقول البيروني في ذلك: «كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين، والتثليث علامة النصرانية، والاسبات علامة اليهودية، كذلك التناسخ عَلَم النِحلة الهندية ومن لم ينتحله لم يكُ منها». فالنفس عندهم خالدة لا يصيبها الفناء ولا البِلىٰ، حسب أقوال كتبهم.. يقول البيروني بما تشهد كتبهم «.. إن الأرواح غير مائتة، ولا متغيرة، وإنما تتردد في الأبدان على تغاير الإنسان من الطفولة إلى الشباب والكهولة ثم الشيخوخة التي عُقباها موت البدن، ثم العوْد له».. ويتساءل البيروني قائلاً: «كيف يَذْكُر الموت والقتل من يعرف أن النفس أبدية الوجود، لا عن ولادة، ولا إلى تلف أو عدم؟.. بل هي ثابتة وقائمة، لا سيف يقطعها، ولا نار تحرقها، ولا ماء يغصها، ولا ريح توبسها؟ لكنها تنتقل من بدنها نحو آخر، كما يستبدل البدن اللباس إذا بلي، فما

عليك لنفس لا تبيد؟».

فالهندوس مع اعتقادهم بخلود الروح إلا أنهم يؤمنون بأن الأرواح تنتقل في الأجسام متدرجة في الرقي من جسم إلى آخر حتى تصل إلى الكمال المطلق، وتكون في صف الروحانيات المتجردة، وهي الملائكة، وتكون غير محجوبة عن التصرف في السموات والأرض وتدبير الكون، وهم يعتقدون أن الروح الواحدة تحلّ في عدة أجسام، وأن الشخص تكون روحه قد حلّت في مئات من الأجسام قبله.

يقول البيروني عن أحد ملوكهم أنه رسم لقومه أن يحرقوا جثته بعد موته في موضع لم يحرق فيه ميت قط، وبحثوا عن هذا الموضوع فأعياهم حتى وجدوا صخرة من البحر ناتئة. فظنوا أنهم ظفروا بالبغية، فقال لهم باسديو: إن هذا الملك أحرق على هذه مرات كثيرة.. فافعلوا ما تريدون، فإنما قصد إعلامكم، وقد قضيت حاجته..». وتخطر بالبال تساؤلات عدة منها: ما الذي يحدث للروح عندما يموت الإنسان؟ يقول الكهنة الهندوس: عندما يموت الإنسان تخرج روحه من جسده، وتدخل على الفور جسد طفل وُلِدَ لتوّه.. فإذا كان الإنسان من الذين يعيشون حياة صالحة وُلِدَ في طائفة أعلى، وإذا كان يعيش حياة فاسدة مليئة بالشر وُلِدَ في طائفة أدنى.. وعليه نتساءل: ما الذي يحدث للإنسان إذا هو استمر يعيش حياة فاسدة بعد حياة أخرى أكثر فساداً؟.

فيجيب الكهنة: مثل هذا الإنسان يظل يولد في طائفة أدنى من طائفته مرة بعد أخرى، وقد يولد عليلاً ليظل يشقىٰ طوال حياته عقاباً له على ما أساء، ولا مانع من أن يولد حيواناً أعجم، وقد يولد الإنسان السيّء فيلاً فإذا صار فيلاً شريراً فإنه بعد موته يولد مرة أخرى كلباً، وإذا صار كلباً شريراً ظل ينحدر كلما ولد حتى يولد برغوثاً أو بعوضة».

إذاً.. ما الذي يحدث لو أن الإنسان استمر يعيش حياة فاضلة حياة بعد أخرى أكثر صلاحاً؟.

يجيب الكهنة: مثل هذا الإنسان يظل يولد في طائفة أعلى حتى يصبح

كاهناً برهمياً. . وبعدها لا يولد مرة أخرى، وهنا تنتهي دورة الحياة. . وكما جاءت أرواح الكائنات من براهما روح العالم، فإنها تعود إلى روح العالم وتتحد مع براهما وهي أعظم سعادة تتمنّاها الروح، وتسمّى (النيرڤانا). .

11 - فروع الديانة الهندوسية:

تفرق البراهمة أصنافاً منها:

(أ) **أصحاب البَدَدَة**: معنى «البد» عند الهندوس شخص لا يولد ولا يتكلم ولا يأكل، ولا يشرب ولا يهرم ولا يموت، وأول بد ظهر في العالم اسمه «شاكمين» ومعناه السيد الشريف. . ودون مرتبة البد مرتبة (البوديسعية) وتعني: الإنسان الطالب سبيل الحق، ويصل إلى هذه المرتبة بالصبر وبالامتناع والتخلي عن الدنيا والعزوف عن شهواتها وملذاتها. .

وباجتناب الذنوب العشرة وهي: قتل كل ذي روح، أكل أموال الناس بالباطل، الزنا، الكذب، النميمة، البذاء، الشتم، شفاعة الألقاب، السفه، الجحد لجزاء الآخرة.

وباتباع الخصال العشرة وهي: الجود والكرم، والعفو عن المسيء، والتعفف عن الشهوات، الدينونة الإيمان بالتخلص من الحياة الدنيا الفانية إلى ذلك العالم الدائم الوجود، رياضة العقل بالعلم، والأدب وكثرة النظر إلى عواقب الأمور، القوة على تصريف النفس في طلب العليات، لين القلب وطيب الحديث مع الناس، حسن المعاشرة مع الإخوان بإيثار اختيارهم على اختيار نفسه الإعراض عن الخلق بالكليّة والتوجه إلى الخالق بالكليّة، بذل الروح شوقاً إلى الحق ووصولاً إلى جناب الحق.

(ب) **أصحاب الفكرة والوهم**: وهم الذين يعلمون بالفلك والنجوم وأحكامها المنسوبة إليهم. ويعدّون زحل السعد الأكبر لرفعة مكانه وكبر حجمه، وهم يعظمون الفكر ويعدّونه المتوسط المحسوس والمعقول. . ويقولون إن للوهم أثراً عجيباً في تصريف الأجسام والتصرف في النفوس، فإذا وقع الوهم

على الرجل قتله في الحال، وإذا تجرد الوهم عمل أعمالاً عجيبة، وكانت عاداتهم إذا أصابهم أمراً أن يجتمع أربعون رجلاً من المهذبين المخلصين المتفقين على رأي واحد فيتجلى لهم إلٰههم ويندفع عنهم البلاء..

(جـ) **أصحاب التناسخ**: وقد مرّ ذكرهم في البحث نفسه.. ومن الهنود من يقول بالروحانيات أمثال: البلستوية، الباهودية، الكابلية، البَهادونية، ومنهم من يقول بعبادة الأصنام المختلفة مثل: المهالكيّة، البرْكَسْهيكية، الدهكينية، والجَلْهكيّة، أي عبَّاد الماء، والأكنواطْريّة، أي عباد النار ومنهم الحكماء الذين عملوا على الطريقة اليونانية علماً وعملاً أمثال برخمنين وغيره[1].

ومنهم من يقول بعبادة الهياكل والكواكب وهم عبدة الشمس وعبدة القمر.

وهذه واحدة من عشرات الأديان السائدة في بلاد الهند الواسعة.

---

(1) للمزيد من المعلومات راجع كتاب الملل والنحل، محمد عبد الكريم شهرستاني..

الفصل الثالث

الديانة الجينية

1 ـ نشأتها:

نشأت احتجاجاً على المعتقدات الهندوسية القديمة. وفي القرن السادس قبل الميلاد وهي دين هندي قوامه تحرير الروح بالمعرفة والإيمان والسلوك الحسن، وهي تستمد عقيدتها من الهندوسية أصلاً، ساهم في تأسيسها أربعة وعشرون قديساً. كان آخرهم وأكثرهم أثراً مهافيرا «البطل العظيم» الذي يعد المؤسس الفعلي لهذا الدين، وقد قام بثورة ضد البراهمة. وأنكر ما جاء في الهندوسية من نظام طبقي، وعدم الاعتراف بسلطة الفيدا، والكتب المقدسة القديمة. . . تقوم هذه الديانة على الإعتقاد بأن كل ماهو موجود في الكون أزلي حتى المادة. وتتشابه مع البوذية في كل هذا، إضافة إلى نُكران دعاء الكهنة البراهمة بأنهم وحدهم أصحاب الحق في إقامة الطقوس الدينية. وقد ساعد على انتشار مذهب الجينية والبوذية معاً بأن كليهما يعلّمان الشعب بلغته الخاصة المسمّاة براكريت Prakrit، وليس باللغة السنسكريتية التي كانت لغة الكهان في الشعائر الدينية. وقد اهتم المذهبان بالأخلاق، والسلوك الحسن والعمل الصالح والمعرفة الصحيحة. ولم يقيما وزناً للطقوس والشعائر الدينية عامة. . وقد جعل كل منهما أساس تعاليمه تقوم على أن خلاص الروح لا يكون إلّا بالأخلاق الفاضلة القويمة، والإيمان الصحيح والسلوك السليم. وكان اتباعهما يعيشون

ويتساوون في الحقوق، ولا فرق بين شخص وآخر نسبه أو طبقته. ولكن الفرق بينهما بالموهبة والقدرة والعمل، فقد أزال بوذا الفوارق الطبقية، وتلاقى الناس في مذهبه عند الوحدة الإنسانية من غير اعتبار للاختلاف العنصري. ولا فضل لأحد إلا بالمعرفة وسيطرة الإرادة الإنسانية سيطرة تامة..

ويعتقد كل بوذي أنه قادر على أن يملك طريق بوذا عن طريق التأمل وعمق التفكير من خلال المراحل المتتابعة للاستنارة حتى يصل في النهاية إلى الحكمة الكاملة..

2 ـ تعاليم البوذية:

يوصي بوذا أتباعه بالتغلب على الغضب بالشفقة، وعلى الشر بالخير، وعلى الكراهية بالحب، وعدم إلحاق الأذى بأحد، وتؤكد تعاليم بوذا على الاعتماد على النفس وصدق العزيمة، ويؤكد لأتباعه، بأنه ليس من أحد في الأرض ولا في السماء قادر على أن يمد لهم يد العون أو ينجيهم من نتائج أعمالهم السيئة، فالكل مجزي بعمله..

ويمكن تلخيص تعاليم بوذا بالحقائق النبيلة الأربع التالية وهي:

1 ـ أن الحياة معاناة: يتبين لنا من خلال تجاربنا الخاصة بأن الحياة لا تخلو من المعاناة. وهذه المعاناة سببها الشقاء، ومصادر الشقاء في العالم سبعة هي: الولادة، الشيخوخة، المرض، الموت، مصاحبة العدو، مفارقة الصديق، الاخفاق في التماس ما تَطلبه النفس. وهذه كلها من مظاهر المعاناة التي تعد جزءاً من أسلوب حياتنا العامة وفي هذا المجال يقول بوذا: «إن سر هذه المتاعب كلها هو رغبتنا في الحياة وسر الراحة هو قتل تلك الرغبة».

2 ـ والحقيقة الثانية: هي الأصل في منشأ المعاناة، وعدم وجود السعادة، وهي ناجمة عن التمسك بالحياة. يقول بوذا: «إن منشأ هذه المعاناة الحتمية يرجع إلى الرغبات التي تمتلىء بها نفوسنا للحصول على أشياء، خاصة لنا، إننا نرغب دائماً في شيء ما، مثل السعادة، أو الأمان، أو القوة، أو الجمال، أو

الثراء..». أي أن سبب الشقاء وعدم السعادة هو: الأنانية الإنسانية وحب الشهوات والرغبات.

3 ـ والحقيقة الثالثة: هي حقيقة التخلص من المعاناة، ولا يتم إلا بالكف عن التعلّق بالحياة والتخلص من الأنانية وحب الشهوات والرغبات الجامحة في نفوسنا.. وتسمى هذه الحالة «النيرفانا» أو الصفاء الروحي.

4 ـ والحقيقة الرابعة: وهي أن طريق التخلص من الأنانية والشهوات ومتاع الدنيا يوجب على الإنسان اتباع الطريق النبيل ذي الفروع الثمانية، وهي:

(أ) الإدراك السليم للحقائق الأربعة النبيلة.

(ب) التفكير السليم الخالي من كل نزعة هوى، أو جموح شهوة، أو اضطراب في الأماني والأحلام.

(جـ) الفعل السليم الذي يسلكه الإنسان في سبيل حياة مستقيمة سائرة على مقتضى السلوك والعلم والحق.

(د) الكلام السليم أي قول الصدق بدون زور أو بهتان.

(هـ) المعيشة السليمة القائمة على هجر اللذّات تماماً، والمتطابقة مع السلوك القويم والعلم السليم.

(و) السلوك السليم.

(ز) الملاحظة السليمة.

(حـ) التركيز السليم.

وقد وصف بوذا هذه الفروع الثمانية بقوله المشهور «يجمعها كلها السير في الطهارة»، إن هذا الطريق بفروعه الثمانية يؤدي إلى الراحة، والمعرفة، والسعادة، والتحرر من الألم والشقاء. وقد اتخذت عجلة المبادىء البوذية هذه رمزاً للبوذية. وتمثل محاورها الطرق الثمانية التي توصل من يسلكها إلى النيرفانا. ويمكن تلخيص هذه الحقائق في ثلاث مجموعات أخلاقية هي:

1 ـ السيـلا: ومعناها السلوك الأخلاقي، وتتطلب قواعدها: عدم الكذب

أو السرقة أو القتل أو السماح بمزاولة مهنة غير شريفة كبيع الأسلحه والممنوعات.

2 ـ السماد هي: ومعناها التأمل وتدريب العقل للسيطرة على الأفكار بالسهولة نفسها للسيطرة على الأفعال والأقوال وعلى كيفية تركيز الفكر على موضوع معيّن.

3 ـ البراجنا: ومعناها الحكمة، وهي نتيجة لما يُبذل من جهد في سبيل تحقيق السيلا والسمادهي.

3 ـ ما هي النيرفانا؟

وهي كلمة متعددة المعاني والقصد، فهي تعني الاندماج في الوحدة الشاملة، أو الصفاء الروحي، أو الهدف الأسمى، أو الملاذ الأعلى..

ويقال بأنّها الاندماج في الله والفناء فيه ـ مع العلم أن البوذية لا تؤمن بإلٰه مطلقاً ـ وهي المرحلة التي يصل إليها البوذي في حياته عندما يتحرر تماماً من دورة العودة إلى الحياة أي بعد أن يتجرد من كل أمانيه وجهالاته. وعندما تتكسر جميع القيود التي تكبّل الإنسان وتمنعه من الوصول إلى درجة الكمال الإنساني، وعندما تتحطم قيود الشهوة ويصبح الإنسان في صراط القديسين ويتحرر من كل القيود: كالرغبة في البقاء، والكبرياء، والاعتداد بالنفس، والجهل، يصل إلى النيرفانا.

فالذات أو النفس لا وجود لها في تعاليم بوذا. فإذا مات الجسد زالت الأماني وتلاشت الرغبات. وكل عمل يأتيه الإنسان له ثمرته حتماً. وكل عمل يقوم به البوذي في طور من أطوار الوجود المتكررة «التناسخ» تقرره الأعمال التي يأتيها في الوجود الأسبق، وهي بمثابة كفارة. فالنيرفانا في حد ذاتها اذن ليست موتاً، بل هي حالة في السلام المقيم والقداسة الكاملة، والتجرد من الأماني والرغبات. ومن كل الأشياء التي تغري الإنسان بالتشبث بهذا الكيان المستقل. وهي جنة البوذيين التي ينعمون فيها بعد مرورهم في الطريق الوسط ذي الشعب

الثمان.. ويعتقد بوذا أن الذين يبلغون «النيرفانا» في جهادهم الأخلاقي قليلون جداً...

4 ـ مبادىء البوذية:

(أ) **التناسخ**: «التقمص» تؤمن البوذية بالتناسخ وحلول الأرواح في أجساد أخرى ويزعم البوذيون أن زعيمهم بوذا قبل أن يصبح الرجل المستنير تقمصت روحه (530) جسداً منها (42) حالة تقمص في أجساد آلهة، و (80) حالة في أجساد ملوك وأنه في بعض فترات التقمص ربما كان لصاً، أو مقامراً، أو حصاناً، أو ثعباناً، أو ضفدعة!! ولكنه مع ذلك كان في كل هذه الدورات عاقلاً حكيماً. ويعتقد البوذيون أن الموت الجسدي لا يُنهي وجود الإنسان، فالميت يبعث من جديد في شخص آخر أو في إله أو في حيوان.. والتقمص من وجهة نظر التعاليم البوذية الأخلاقية ليس خيراً، وإنما هو شرّ،لأن الوجود كيفما كانت صورته فهو عذاب وألم، وإذا الإنسان لم يتغلب على آلامه الدنيوية فعليه أن يهجر كل ملذاتها. ولكن هل ينتهي بالموت الجسدي كل ألم أو عذاب؟؟..

تُعرِّف البوذية الموت بأنه «نهاية مؤقتة لظاهرة مؤقتة»، وأنه ليس إفناء كاملاً للإنسان، والبوذي المؤمن يعدّ الوفاة حادثة وقتية وهي مرحلة انتقال بين حياتين.

ويعود سبب التقمصات الحديثة إلى التعلق بالحياة الدنيا، أما التوقف عن التناسخ فمقتصر على كل من يتحمل كافة الآلام برضى واستكانة، ويقطع كل صلاته بالحياة الدنيا، ويتخلى عن كل رغباته وأهوائه لكن بوذا يقول: إن الحياة في وجود مستمر، وإن الأرواح في تناسخ مستمر إلى ما لا نهاية.

(ب) **الروحانية في البوذية**: لم تتعرض تعاليم بوذا للألوهية من قريب أو من بعيد، لا بالنفي ولا بالتأكيد، وكانت فكرته عن الدين خُلُقِيَّة صرْفة، تقتصر على سلوك الناس دون اهتمام بالطقوس الدينية وشعائر العبادة أو باللاهوت وما وراء الطبيعة، حتى ساءت علاقته مع رجال الدين.. ورفض بوذا نظام الطبقية، ومبدأ التضحية في سبيل الآلهة، وآمن بوذا بمبدأ التقمص كطريق لتحقيق النيرفانا والحصول على السعادة الكلية بعد الموت. وقد اهتمت البوذية ببث

التعاليم الخلقية، فحثّت على طهارة النفس وتجنّب الشر، واتباع السلوك الحسن، والحياة النظيفة وحب الخير وانكار الذات، وقد عارضت السحر والخرافات التي كانت جزءاً من بعض الديانات الهندية القديمة. . .

لم يكن بوذا إلهاً ولم يدّع الألوهية، حتى أنه لم توجد أية آلهة في الديانة البوذية، ولكن الناس في الهند اتخذوا من بوذا إلٰهاً بعد موته. . وأخذوا يعبدونه، ويقيمون له الهياكل والتماثيل الضخمة، كالتمثال الذهبي في بانكوك (شكل 25)، الذي يعترف النسّاك بذنوبهم أمامه. وقد زعم بعض الكهنة ألوهية بوذا، وقالوا: إن الإلٰه الأعظم تجسّد فيه ليخلّص العالم من خطاياه، ويمنح الغبطة للحزانىٰ. والراحة للمتعبين، مع أن بوذا نفسه كان يوصي أتباعه قائلاً:

«لا تؤمنوا بي كممثل لله على الأرض، ولا تعتبروني إلٰهاً، فإنما أنا إنسان مثلكم أنشد الحقيقة الأبدية فإذا كان كلامي موافقاً للعقل والمنطق فاتبعوني».
يقول بعض المؤرخين إن بوذا أنكر وجود إله قد أنشأ الأكوان. بينما يقول آخرون إن جميع أتباع بوذا ومنتحلي ملته كانوا يؤمنون بقوة مسيطرة على العالم.
وإجمالاً نقول إن البوذية لم تهتم بالبحث عما وراء الطبيعة من حيث وجود الخالق والروح والملائكة. ويعترف بوذا نفسه بأنه لا يدري عن الإلٰه شيئاً. ولم يحاول قط أن يخوض فيه، وقد أنكر الصلاة، وأكدّ عدم جدواها. . .

5 ـ الرذيلة في البوذية:

إن طريق الفضيلة هو طريق الخلاص من الآلام والشقاء، ومن الأنانية والشهوات، وهو سلوك الصراط المستقيم، أي اتباع الطريق النبيل بفروعه الثمانية. أما الرذيلة عندهم فمنشؤها اللذات والانهماك فيها وما تدعو إليه، وترجع الرذائل إلى أصول ثلاثة:

1 ـ الاستسلام للملذات الذي يجعل الحياة كلها في ألم مستمر وشقاء دائم.

2 ـ سوء النية في طلب الأشياء، الذي يولّد الغش والكذب والنميمة، من

أجل الوصول إلى تحقيق الغرض الفاسد الذي يمكّن اللذّة في القلب واستيلائه عليه.

3 ـ الغباء، وعدم إدراك الأمور على الوجه الصحيح، وهذا ناجم عن سيطرة الشهوات على النفس، حتى أن العقل لم يعد يرى إلاّ ما تعكسه الشهوات عليه...

وتنص كتب البوذية على عشر رذائل، جاء النهي عنها على شكل وصايا.

6 ـ الوَصايا العشر البوذية:

1 ـ لا تقتل أحدا. 2 ـ لا تسرق، ولا تغتصب، ولا تأخذ ما لم تُعْطَ. 3 ـ لا تكذب. 4 ـ لا تشرب خمراً، ولا تتناول مسكراً. 5 ـ لا تزنِ، ولا تخالف العفّة. 6 ـ لا تأكل طعاماً نضج قبل أوانه. 7 ـ لا تتخذ طيباً، ولا تكلل رأسك بالزهر. 8 ـ لا ترقص، ولا تحضر مرقصاً، ولا حفل غناء. 9 ـ لا تقتن فراشاً وثيراً، ولا أرائك فخمة، ولا وسائد، ولا حشايا وثيرة. 10 ـ لا تأخذ ذهباً ولا فضة...

هذه الوصايا التي يأخذ بها البوذي حتى يروّض إرادته على ترك الملذات، والعكوف على المجاهدة وتهذيب الذات، وتخفيف ويلات الحياة، وعدم الإقدام على أن يملك شيئاً، وأن لا يقتني شيئاً فهو يطلب طعامه يوماً بعد يوم، ولا يدّخر من يومه إلى غده، ويصرف ما في الجيب حتى يأتيه ما في الغيب...

7 ـ الكتب المقدسة عند البوذيين:

هي كتب ليست منزلة، ولا يدّعون تنزيلها، ولا ينسبون ما جاء فيها إلى وحي أو جانب إلهي، بل هي عبارات منسوبة إلى بوذا قولاً أو فعلاً، أو نقل ما أقرّه أتباعه من أقوال وأفعال..

وتختلف نصوص كتبهم بسبب انقسامهم في نِحَلِهم، وقد تفرقوا إلى فرقتين. وهم:

1 ـ أهل المذهب الشمالي «المهايانا»: وتعني العجلة الكبيرة. وقد دوِّنت كتبهم باللغة السنسكريتية، وانتشرت انتشاراً كبيراً، عدلت فيها البوذية القديمة، وجعلتها قريبة من فهم معتنقيها وأساس هذه العقيدة المهايانية: أنها تمثل كائناً سامياً خالداً، أي تمثل «بوذا مطلقاً» يظهر في القديسين في أجيال مختلفة، وانتشرت في الصين في القرن الرابع والخامس بعد الميلاد. كما انتشرت في اليابان والتيبت والنيبال وغيرها.

2 ـ أهل المذهب الجنوبي «الهينايانا»: وتعني العجلة الصغيرة. وقد دوِّنت تعاليم بوذا في اللغة الباليّة القديمة، وسمي الشرع باسمها: «الشرع البالي». كما وصفه بوذا.. وتعد هذه النصوص الأصح نسباً والأصدق قولاً، والأكثر بعداً عن الأوهام، وتنتشر في الهند ـ الصينية وسريلانكا وغيرها.. وتأتي الكتب البوذية إجمالاً في ثلاثة مجموعات هي:

(أ) الكتب التي تشتمل على مجموعة قوانين البوذية، ومسالكها ونظامها، وقد جمعت سنة (350 ق.م) وهي ثلاثة أقسام. أولها: يتضمن العقوبة المفروضة على البوذي لما يقترفه من ذنوب ومخالفات وفيه 127 فقرة. ثانيها: يتضمن التعليمات الواجب اتباعها لتربية النفس على ما يدعو إليه البوذيون، وفيه قرارات المجالس البوذية المنعقدة في ما بين سنتي (380-320 ق. م). ثالثها: يتضمن خلاصة القسمين السابقين ليكون في متناول الناس، وفيه خلاصته للسلوك القويم الذي يدعو إليه البوذيون.

(ب) الكتب التي تشمل على مجموعة الخطب التي ألقاها بوذا ووصاياه. ومجموعة من الأحاديث والقصص والأشعار والأمثال، مكتوبة في لغة سهلة توضح التعاليم البوذية، وفيها الحقائق الأربعة والمبادىء الثمان...

(جـ) الكتاب الذي يحتوي بيان أصل المذهب والفكرة التي نبع منها، والفلسفة التي قامت عليها الديانة البوذية، والأصل الذي استُنبِطت منه تعاليمها، وفيه بحوث تدور حول الخير والشر، واللذة والألم، فهو كتاب الشرع والتعليقات التي وضعها العلماء البوذيون.

وقد ترجمت هذه الكتب إلى اللغات الحية. لما فيها من كلمات غنية بمعاني الأخلاق والسلوك القويم وهي تقدم دليلاً مرشداً في كل نواحي النشاط الفكري والخلقي والروحي..

8 ـ فروع البوذية:

بالرغم من صعوبة اتباع تعاليم بوذا، فقد انتشرت في معظم آسيا. وبعد وفاة بوذا سنة (483 ق.م) انقسمت البوذية إلى فرعين:

(أ) هينايانا **Hinaiana** أو العجلة الصغيرة، وقد اتخذت مركزها في سريلانكا، كما انتشرت في الجنوب في بورما، وسيام ولاوس كبوديا، وغيرها.. ويرتدي كهنتها ثوباً أصفر اللون، ويحلقون رؤوسهم وعليهم الالتزام بعدد من القواعد الكهنوتية شديدة التعقيد. مثلاً: لا يُسمح لهم تناول أي طعام بعد منتصف النهار، ولا يسمح لهم بحمل أي نقود أو ملكية، وهي أصفى أشكال البوذية. وأتباعها يعتبرون أن بوذا ليس إلا مجرد رجل وضع بعض القواعد للسلوك، وهو ليس إلٰهاً يُعبد. ولا تزال توجد في سريلانكا أشهر آثار بوذا وهو إحدى أسنانه...

(ب) ماهايانا **Mahaiana**: أو العجلة الكبيرة، وانتشرت في الشمال نحو منغوليا والتيبت والصين واليابان وجاوه وسومطرة وغيرها.. وهي شكل منحرف للبوذية، وأتباعها يعتبرون بوذا إلٰهاً. ويعبُدون الروح التي ألْهمت بوذا، وهم يؤمنون بالملائكة والشياطين، وتؤمن بعض طوائفهم بوجوه الجنة والجحيم، وأنه لا بد من مرور الروح بهما قبل أن تصل مرتبة «النيرفانا» وتعددت المذاهب البوذية عند أهل الشمال مثل مذهب «اللاّما» في التيبت، وكهنة «الزن» في اليابان..

9 ـ المذاهب البوذية:

(أ) مذهب اللامية: كان من معتقدات أهل التيبت الأسطورية قبل دخول البوذية إليهم أن جدهم «ملك القرود» الذي ورثوا عنه الحنوّ والذكاء والإخلاص. وأن جدتهم «الغول» التي ورثوا عنها القساوة والشهوة وروح

تربّى بوذا في جو من البذخ والترف، ولا يعرف شيئاً عن الفقر والبؤس، وقد توفرت له كل وسائل الحياة والمسرات في قصره وحدائقه الغنّاء وكانت أمّه «مايا» ابنة أحد الملوك المجاورين وعندما حملت به أمه أرادت أن تنتقل إلى مقر أبيها لتضع حملها حسب العادة في ذلك الزمان. ولكن المخاض فاجأها في الطريق، فوضعت طفلها في ظل بعض الأشجار في الغابة، ونشأ الطفل وترعرع في قصره وسط مباهج الحياة، وتوفرت له كل وسائل الحياة والمسرّات حتى أنه لم يكن يعرف في الدنيا غير ذلك.

ماتت أمّه وهو طفل صغير. ونشأ في قصر أبيه وقضى سنوات طفولته الأولى فيه حتى بلغ اثنتي عشر عاماً، وكان قوي البنية، فسمّوه «ساكيا» وتعني القوي. ثم عهد به والده إلى كبار الكهنة ليعلّموه أسرار الديانة البراهمية، اضافة إلى ما ينبغي أن يتعلمه أمير سيخلف أباه يوماً على العرش. وظهرت مواهبه العقلية والفكرية فلقّبوه «ساكيا الحكيم».

ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره، تزوج من ابنة عمه الجميلة الفاتنة «يازود هارا» وعاش معها حياة سعيدة، ولكنها كانت عاقراً، وبدأ الأمير يحس أول لدغات الألم والحرمان. فأخذ يسأل نفسه عن سر الحياة التي لا يستطيع أقوى الناس فيها أن يحصل على كل ما يريد، وأن يحقّق رغباته كلها.. بلغ بوذا التاسعة والعشرين من عمره، ولم يكن يعرف شيئاً عن آلام البشرية من فقر ومرض وشيخوخة. وكان يظن أن كل الناس يعيشون بمثل سعادته هو...

خرج ذات يوم من قصره العامر، بعربة متوجهاً إلى المدينة وسط الأحراش التي تحيط ببلدته مصطحباً معه تابعه «كانا»، فقابل لأول مرة في حياته شيخاً فانياً، أثقلت السنون كاهله وأحنت الأيام ظهره، فتأثر «جوتاما»، لمنظره منزعجاً، فهمس في أذنيه تابعه قائلاً: «هذه طريق الحياة يا مولاي». وبعد قليل، وهو في طريقه وقع نظره على متسوّل قد شوهه البرص، وهدّه الفقر والجوع والذّل، فهمس تابعه في أذنه مرة أخرى قائلاً: «هذه طريق الحياة يا سيدي». ثم وقع نظره على جثّة شخص عارية ملقاة على الطريق وقد جافت

ونتنت. فأسرع «كانا» يقول لسيده الذي كاد يُغمى عليه من هول ما رأى: «هذه هي نهاية الحياة يا سيدي»...

هذه المناظر الثلاث جعلته حزيناً كئيباً لأنه اطلع لأول مرة على شقاء الناس وتفاهة الحياة، واصطدم لأول مرة بحقيقة كون العالم الذي يتضمن الآلام والمآسي الكثيرة.

ويقال بأن جوتاما شاهد هذه المناظر المؤلمة الثلاث في أحد الأحلام في أثناء نومه.

ولتوّه قرر بوذا محاولة اكتشاف المعاناة في هذا العالم، وكيفية التغلب عليها، فانسلّ خِلْسةً من قصره في الليلة نفسها، متوجهاً إلى الغابة حيث قضى عدة سنوات يدرس فيها على أيدي عدد من المعلّمين من نسّاك البراهمة الذين لقنوه كيف يؤدي تمرينات التأمل والتفكير والتقشف. ولكن لم يستطع أحد منهم أن يعلّمه الحكمة التي كان يبحث عنها، فقرر أن يسير منفرداً دون مساعدة أحد، وظل في حل وترحال محاولاً اكتشاف كنه الحياة والموت، والسعادة والشقاء حتى وصل إلى مكان في شمالي الهند يعرف باسم «بودجايا». حيث بقي جالساً تحت شجرة تين وارفة الظلال، سميت شجرة الحكمة، أو الشجرة المقدسة وقد أصبحت موضع تقديس عند البوذية واتخذوها لهم شعاراً. بقي تحتها بضعة أيام مستغرقاً في التأمل والبحث عن الحقيقة، إلى أن تكشّفت أمامه حكمة التنوير الرائعة التي أصبحت تعرف باسم «رسالة التنوير الكبرى».

وأشرق عليه نور الحق يُنبئه: أن شقاء الحياة وآلامها منبعث من رغبات النفس.

هذه هي التي يبحث عنها، والتي تعني وضع حدّ لآلام البشرية ومعاناتها، وأن الإنسان قادر أن يكون سيد رغباته وليس أسيراً لها...

(ب) هل كان بوذا نبياً؟؟

لم يدّع بوذا أنه رسول، أو نبي مرسل، بل كان ينهى أتباعه عن زعمهم

ثمانية (مرت معنا). وقد ركز على المبادىء الفاضلة الخمسة الأساسية في البوذية. لا تقتل لا تزن. لا تسرق، لا تكذب، لا تشرب مسكراً. . . هذا هو بوذا. . وهذه تعاليمه ومبادئه الخلقية الفاضلة، وقد كان له أثر كبير في كل بلاد آسيا الجنوبية والشرقية، وليس ثمة رجل أقوى منه في تلك البلاد.

ولم يعرف التاريخ أميراً غيره تنازل عن مباهج الحياة وملذاتها، وعن عزها وسلطانها وجاهها وعاش متسولاً يبكي آلام البشرية ومشاكلها محاولاً إنقاذها منها وإسعادها.

يقول بوذا: «أن كل من يحيّ كبار السن ويحترمهم تطول حياته وتزداد سعادته قوته وجماله» فهل طالت حياته؟؟ مات بوذا وهو في الثمانين من عمره، وأُحرِقَ جسده بعد موته بثمانية أيام». . . ومن حكمه أنه قال: «كما أنه لا فرق بين جسم الأمير وجسم المتسوّل الفقير. كذلك لا فرق بين روحيهما. وكل منهما أهل لإدراك الحقيقة، والانتفاع بها، وتخليص نفسه». فما رأي بوذا بالنساء؟ عندما كان على فراش الموت سأله «أناندا» أحد تلاميذه هذا السؤال: كيف نتصرف أيها السيد مع النساء؟؟

أجاب بوذا: «لا تروهن ولا تحدّثونهن يا أناندا» وتابع قوله: «وإذا تحدثت إليكم واحدة منهن، لا تكترث ولا تلْقِ بالاً إلى ما تقول يا أناندا».

لقد عاش بوذا عظيماً، ومات عظيماً، وتبلّغ رسالته مئات من ملايين البشر، ولم يزل خالداً بينهم إلى الأبد. . . .

الفصل الخامس
الاصلاح الديني في الهند

1 ـ تمهيد :

تعدّدت الديانات في الهند بتعدد اللغات وتعدد الأقوام والشعوب. ففيها أكثر من ثمانين ديانة ومذهباً. وتنتشر فوق أرضها الآلاف من المعابد أو الهياكل. وفيها الملايين من السحرة والمشعوذين، ومن البقر السائب، والأفاعي الراقصة المتنوعة، وفيها مئات الأطنان من البخور والبهار، وغير ذلك من الأمور التي لا تُصدق وقد بلغ عدد الهنود اليوم حوالي 800 مليوناً من البشر. وقد ظهر فيهم بعض المصلحين الذين قاموا بإصلاح وتعديل الديانات الكبرى، ومن بينهم السيخ، فمن هم السيخ؟ وما هي معتقداتهم؟...

2 ـ السيخ :

من أقل الفئات البشرية انتشاراً أو توزيعاً. وهم آخر العقائد التي ظهرت في الهند وأحدثهم، ولا يصل تاريخ وجودهم إلى 500 سنة. وهم أقل العقائد أتباعاً في الهند يتراوح عددهم بين 15-20 مليون نسمة يعيش معظمهم في إقليم البنجاب وفي منطقة هاريانا وفي دلهي أيضاً، وتوجد منهم أقليات في ماليزيا، وسنغافورة وفي شرق إفريقيا وفي أطراف الخليج العربي كما توجد أقليات أخرى في الولايات المتحدة وانكلترا وكندا. والسيخ في الأصل هم فرع من الهندوسية البرهمية، وعندما وصل الإسلام إلى الهند آمن به عدد كبير من الهنود. وبدأ

المصلحون الهندوس يدرسون الإسلام الذي يدعو إلى عبادة الإله الواحد فحاولوا إدخال التوحيد في عقيدتهم البرهمية فظهرت مذاهب جديدة جاء بها المصلحون من أمثال: ناناك، كبير، ديانندا، وغيرهم. .

3 ـ العقيدة عند السيخ: «القواعد الخمسة»:

تتلخص عقيدتهم في مبدأين هما: وحدة الله، وأخوّة الناس ومساواتهم، فالله عند السيخ واحد أحد، والناس عندهم متآخون جميعاً، بل الأديان جميعها دين واحد. وقد تأثر دينهم بالهندوسية، وأخذ منها فكرة التقمص، والنيرفانا، ووحدة الكون، ورفض ناناك فكرة التزهد والرهبنة عند الهندوس، كما نبذ فكرة الحج والاغتسال في الأنهار المقدسة والتسوّل والبطالة، واستنكر التركيب الطبقي بين الناس. وأخذ من الدين الإسلامي فكرة التوحيد توحيداً مطلقاً خالصاً تاماً. كما أخذ منه فكرة الإله وصفاته، فالإله رحمن رحيم محبٌ لعباده هادم الآلام يحب الفقراء ويعطف عليهم، كما أخذ أيضاً بعض النواحي الأخلاقية فنهى عن قتل الأولاد، وعن دفن الزوجات مع أزواجهم، وعن زواج الأولاد ممّن هم دون سن البلوغ ولتطبيق العقيدة عند السيخ فهم يضعون لدينهم خمسة أركان هي:

1 ـ الكيسا Kesa: أي أن رجل السيخ لا يقصّ شعره أبداً مهما طال، ولا يمسّ شعرةً منه بمقصّ، حتى أنهم يلفّون شعر رؤوسهم تحت عمامةٍ يتميزون بها. حتى الأطفال في المدارس لا يقصّون شعرهم. اقتداءً بشمشون الجبار الذي اشتهر بقدرته في شعر رأسه.

2 ـ الكانغا Kanga: وهي الضفائر المجدولة فوق الرأس تعويضاً عن المشط. ليكونوا على أهبة الاستعداد للنجدة. .

3 ـ الكاتش Katch: وهي السراويل البيضاء القصيرة تحت الملابس. بخلاف عادة الهنود الذين لا يلبسونها ويكتفون بلبس السراويل البيضاء الطويلة. . .

4 ـ الكارا Kara : وهي السوار الفولاذي في اليد اليمنى. على أساس أنه يذكّرهم بالله ويبعد الشيطان.

5 ـ الكابريان Kaberian : وهو السيف ذو الحدين الذي يحملونه معهم دائماً..

ومن شعائر وطقوس المذهب السيخي: تحريم الخمر والتدخين. والنهوض باكراً. وأخذ حمام بارد.

إضافة إلى أنهم يطلقون شعر الرأس واللحية. ويمشطون شعرهم مرتين كل يوم، ولهم كتاب مقدس يحفظونه في معبدهم الذهبي في «أمريتسار» مركزهم الرئيسي. وقد اعتادوا على قراءته يومياً. وأن يحملوا منه نسخة في مقدمة الجيوش المحاربة، ومن عبادتهم التأمل في اسم الله. والصلوات في الصباح والمساء، وتلاوة بعض الأقوال المأثورة. وقد سمح لهم ناناك أكل اللحوم شرط أن يُذْبَح الحيوان ضربة واحدة من سيفٍ حاد..

4«أمريتسار» عاصمة السيخ:

ومعناها بركة الخُلْد، وهي بقعة من الأرض منحها السلطان «أكبر» لأحد زعماء السيخ وهو الغورو. «رام داس» عام (1577 م). قامت فيها مدينة أمر تيسار العظيمة. وأقيم فيها «المعبد الذهبي» وهو المكان المقدس الذي يحجّ إليه السيخ وهو من أجمل معابد الهند ومن أروع المباني في العالم. يأتي إليه السيخ لتقديم الصلوات «لصاحب المواهب» المقدس والكتاب الموضوع فوق المذبح الكبير..

وتقع أمر تيسار في البنجاب الهندية الشرقية، أما القسم الغربي من بنجاب فمعظم سكانه من المسلمين وقد ضم إلى باكستان مؤخراً...

5 ـ مؤسس ديانة السيخ «ناناك»: (1469-1539 م):

يعتقد السيخ أن «ناناك» هو مؤسس مذهبهم، وهو في الأصل هندوسي..

ناناك: ولد ناناك عام (1469 م) في مدينة «تالوندي»، بإقليم لاهور بالهند من أصل هندوسي وتوفي عام (1539 م). . وقد نشأ في عائلة متوسطة فقيرة، وأراد والده أن يجعل منه رجلاً ثرياً عن طريق التجارة، لكنه أبى ذلك، وألقى بثروته وماله إلى الفقراء. كان متميزاً في طفولته بخاصة فردية، كان يحب العزلة والتأمل في الكون فعدّوه مريضاً نفسياً، ولكنه تفوق على غيره. وقد عمل محاسباً في ديوان «سلطان بور» وتصادق مع أحد المسلمين، وعمل خادماً عند شريف من شرفاء المسلمين، وكوّن مع صديقه «ماردانا» فرقة إنشاد دينية، فكان ناناك يؤلف الأناشيد الصوفية، ويقوم ماردانا بتلحينها، ثم أسّسا مطعماً تعاونياً مسلماً ـ هندوسياً لمختلف الطبقات من أبناء البشر لينشر المحبة بينهم. ولمّا بلغ الخامسة والثلاثين من عمره زعم أن الله تجلّى عليه في «سلطان بور» فقد رأى رؤيا كأن يداً تمدّ إليه بكوزٍ من الماء، وكأن أبواب الجنة فُتِحَت له وأن صوتاً يناديه قائلاً: «اذهب وردد إسمي، واجعل الناس يرددونه، ثابر على الصراط المستقيم في الاسم والصدقات والطهارة وذلك خدمة لي ولاسمي ولذكراي». لذلك كان يقول لأبيه «يا أبي أنا مُلْهمٌ من الرب وعليّ تأدية الأمانة». حمل ناناك هذا القول وسار به يدعو الناس إلى دين جديد، وقد اختفى مدة ثلاثة أيام كان يستحم في النهر. ثم ظهر معلناً أنه: «لاهندوس ولا مسلمين». لقد اهتدى إلى الدين الصحيح وأصبح «غورو» أي معلّم العقيدة الجديدة. وبدأ يبشر بها بين الناس وينتقل من مكان إلى آخر حتى يقال أنه بلغ مكة المكرمة. لقد رفض «ناناك» كل ما تراكم على الهندوسية من وثنيّات، ورفض تعدد الآلهة وكثرة الخرافات الموروثة عندهم ودعا إلى عقيدة توحيديّة تتصف بالبساطة والنظام. وتقول بعبادة الإله الواحد وتأثر بالمظهر العلمي للمساواة بين المسلمين فثار ضد الهندوسية ورجال الدين من البراهمة فكان دينه الجديد الذي يجمع بين الهندوسية والإسلام. هو دين السيخ الذي يدعو إلى وحدة الله وعبادته. ويقوم هذا الدين على مفهوم الفيدا الهندوسي، وهو مفهوم روحي صوفي يرمز إلى الله وقد أضاف إليه المعلم ناناك صفات الوحدانية والخلق فصار هو الرمز الواحد «أوم كار» أي الله الواحد القهار وهو الحق وهو الخالد الذي لا تدركه الأبصار. .

وأصبح السيخ يستخدمون أسماء إسلامية وهندية للإله وأصبحت كلمة «هايل غورو» الكلمة المرادفة لاسم الله من بعد المعلم ناناك وهو المعلم الأول. وقد توالى بعده تسعة معلمين كان أولهم «آنغاددين» حمل كل واحد منهم لقب غورو Goro أي المعلم. ويعدُّ كل واحد منهم عند السيخ ظل وراء ظل الله وتنتقل الروح من أحدهم إلى الآخر انتقال النور. وتنسب إليهم المعجزات والقوى الخارقة.. وفي موقع كل معجزة حصلت معبد يُبنى ورهبان يُصلّون وذهب يُغطي القباب..

أما قصص الخوارق فتحولت أناشيد للألوهية، والمعابد لا حصر لها وكان أولها المعبد الذهبي في مدينة «أمريتسـار». وقد جمع المعلم الخامس «أرجان» أقوال ناناك وعظاته، وأشعار «كبير» و «أماناند» في كتاب واحد سمّاه (صاحب المواهب). الذي أصبح الكتاب المقدس لأتباع ناناك الذين سمّوا أنفسهم بالسّيخ أي المريدين. وقد قُتِل الغورو العاشر «هارغوبند» سنة (1708 م) في «مهاراشترا» بعد أن أعلن أنّه خاتم المعلمين، إلا أن بعض الفرق من السيخ لا يقبلون ذلك ويعتقدون أن لديهم دائماً غورو ـ معلم ـ حيّ موجود. ومن الذين قاموا ببعض الإصلاحات الدينية في الهند الشاعر الهندي: كبير، ديانانداً...

6 ـ المصلح الديني كبير: (1440-1518 م):

ولد «كبير» يتيماً من أبيه، وواجهت أمّه الفقر واليتم، فوضعته في سلة فوق سطح الماء حتى مرّ به رجل مسلم يعمل نسّاجا اسمه «نيرو» ومعه زوجته «تيما» واتخذاه ولداً لهما وسمّياه «كبير». أرسل النسّاج ابنه كبير إلى أفضل المدارس والمعلمين في «بنارس» لتربيته أحسن تربية. وقد تعلم أصول الدين الإسلامي والبرهمي، واستمروا في دراسته، وتعلم النسيج حتى أصبح نساجاً بارعاً، وعالماً حاذقاً، وأباً صالحاً، وشاعراً عظيماً، ملأت شهرته الآفاق فقد وُلد برهمياً ونشأ نشأة إسلامية...

كان يدعو في شعره دائماً إلى التوحيد، وعبادة الله وحده، فقد كان في

الأصل مسلماً ولكنه تتلمذ على يد هندوسي، وقد تعلم الكثير عن الشاعر الهندي «رامانندا» الذي كان يدعو إلىٰ عبادة الإلٰه الواحد. وقد دعا إلىٰ المساواة بين الناسِ جميعاً. وأنهم أخوة فلا فرق بين برهمي وكاهن وتاجر ومنبوذ. فالتف الناس حوله، وكثر أتباعه، وانتشرت أشعاره التي تحمل عقيدته الكاملة التي تدعوا إلىٰ التخلي عن التكبر والغرور ونبذ الطائفية، وهجر الأصنام وعبادتها، والإيمان بإلٰه واحد لا شريك له. فقد قام بالتوفيق في العقيدة بين الهندوسيين والإسلام، وكانِ يعالج في شعرِهِ القضايا الدينية، فهو يقول في شِعرِهِ هذا النشيد على لسان الإلٰه:

«يا عبدي، إلىٰ أين تذهب باحثاً عني؟ وأنا في جوارك، أنا لست في معبد ولا في جامع، ولست في شعائر ولا مواكب، إن كنت حقاً تطلبني وتريد لقائي فانظر إليّ فإنك ستراني..»

ومِع ذلك فقد سخط عليه المسلمون لما في شِعرِهِ من مخالفات للإسلام، ولم يرضَ عنه الهندوس أيضاً لمخالفته عقيدتهم، ولذلك نُفي من موطنه «بنارس». وقضىٰ شطراً من حياته يتجول بين البلدان إلىٰ أن مات فجأة في «ماجهار» عام (1518 م)، وعمره (79) عاماً. وقد حضر وفاته تلاميذه من المسلمين والهندوس، وتنازع الطرفان جثته مدّعياً كل منهما أنه ينتمي إلىٰ دينه. حتى سمعوا منادياً يدعوهم إلىٰ رفع الغطاء عن الجثة، فلما رفعوا الغطاء، لم يجدوا الجثة، بل وجدوا مكانها كوماً من الزهور وأوراق الورد، فاقتسمها الطرفان ودفن المسلمون نصيبهم حسب شعائرهم الإسلامية. وحمل الهندوس نصيبهم إلى بنارس، وأحرقوه، ونثروا رماده في مياه الخانج المقدس.

وقد جمع أتباعه ومريدوه حِكَمَه وأشعاره في كتاب سمّوه «بيجاك».

ويعدّ هذا الكتاب المصدر الرئيسي لإصلاح الهندوسية وقيام مذهب السيخ. وقد بلغ أتباعه أكثر من مليون نسمة من الهنود..

7 ـ المصلح الديني ديانادا:

ظهر في الهند وهو من أصل هندوسي، رفض الأصنام وعبادتها ودرس

العقائد المختلفة ليبحث فيها عن حقيقة ما يؤمن به الناس وقد اختفى عن أهله والناس، يبحث عن معلم يهديه إلى حقيقة الدين، واجتمع بكثير من رجال الدين الهنود. ولكنه لم يقتنع بتعاليمهم ومعتقداتهم، حتى ذهب إلىٰ نهر الغانج المقدس، ليدرس مع الرجال المقدسين المجتمعين حول أقدس الأنهار، فالتقى بمن آمن منهم بنبذ الأصنام وعدم عبادتها، فآمن بهم، ودعا إلىٰ عبادة الإلٰه الواحد. وقد تفرغ لدراسة الإنجيل لمدة عامين. ودراسة تعاليم الراجا «راموهان» الذي لم يكن راضياً عن تعاليم البرهمية.. وحاول دمج بعض التعاليم المسيحية في العقيدة الهندوسية. آمن دياناندا بالإلٰه الواحد وتخلّى عن عبادة الآلهة المتعددة ونبذ الطوائف حيث أنه ليست هناك طوائف بالوراثة أو الفطرة وآمن بأن من يتوب يغفر الله له خطاياه. ولكنه ظل مؤمناً بفكرة التجسد والنيرفانا كما بشرت بهما البراهمية عند الهندوس.

أسس مع رسالته ومريديه جمعية دينية سمّاها «آرياساماج» أي جمعية النبلاء. وحمل رسالته من بعده أتباعه، وانتشر أمرهم في أنحاء البلاد حتى زاد عددهم في الهند عن سبعين مليوناً من البشر.

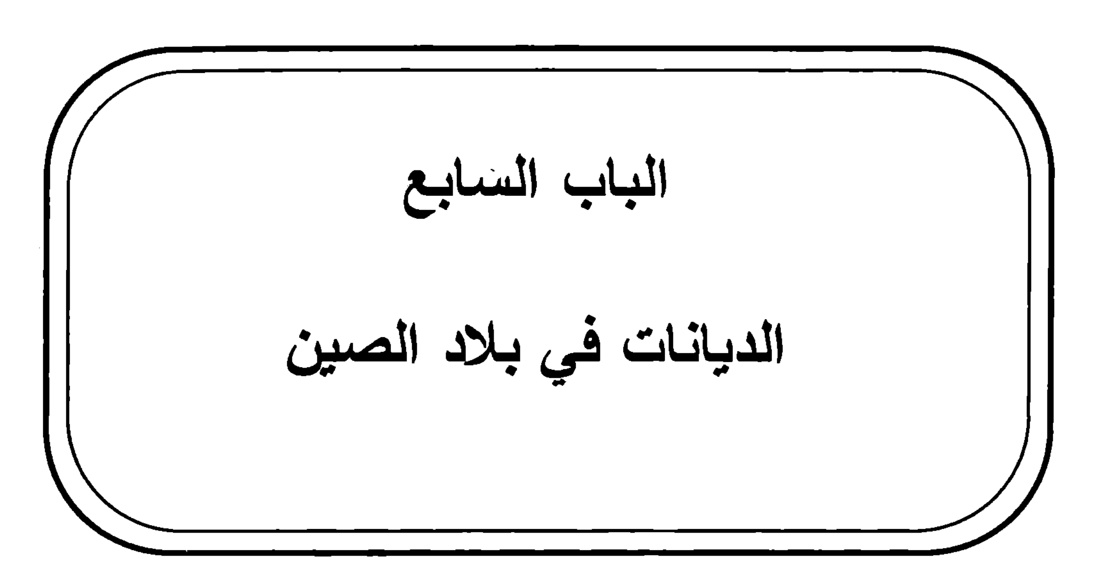
8 ـ دولة السيخ (1792-1849 م):

عندما تولّى زعامة السيخ «كوفيندسينغ» صرف همه الديني إلىٰ تدريب أتباعه عسكرياً مدة عشرين عاماً في جبال الهملايا تعودوا حياة الخشونة والحروب. ثم نزل بهم إلىٰ البنجاب لملاقاة جيوش المسلمين هناك وقد هلك من أتباعه رجال السيخ الآلاف من المقاتلين. ولا يزال السيخ حتى الآن فخورين بتاريخهم كمقاتلين أشداء. وفي عام (1792 م) شكلت دولة السيخ بزعامة «رانجنغ» في النبجاب. الذي جند السيخ وأغار على لاهور وأمرتيسار واستولى عليهما وأقام في «أمريتسار» المعبد الذهبي، وجعلها مقراً له. وفي سنة (1809 م) عقد هدنة مع الإنكليز حدد فيها بلاده بنهر ستلج. رحّب الإنكليز بالصلح معه لأنه رجل قوي يستطيع أن يكون حاجزاً بين الإنكليز والأفغان الذين يشكلون خطراً على الوجود الإنكليزي في الهند. وتوثقت العلاقة بين السيخ

«رانجتسينغ» والإنكليز. وانضم السيخ إلى الإنكليز في حربهم ضد الأفغان عام (1838 م). وفي عام (1839 م) توفي الشيخ رانجت سنغ ويقال أنه عندما أحرقت جثته تبعه في النار أربع زوجات وسبع جواري وقد كانت عادة إحراق الأرامل موجودة رغم مخالفتها لتعاليم السيخ وبعد وفاته عادت الخلافات بين السيخ والانكليز، ووقعت حروب انتهت بزوال دولة السيخ عام (1849 م) وحين جرى تقسيم الهند فَضَّلَ السيخ الالتحاق بها. . .

وقد كان لهم شأن كبير في حياة الهند، وما يزالون، لما يتصفون به من شجاعة وإقدام، ولخطورتهم في الهند لأنهم يشكلون عنصراً هاماً وقوياً في الجيش الهندي. ولأن منطقة البنجاب هي منطقة إنتاج القمح لمعظم الهنود. وعلى أيديهم تم اغتيال رئيسة وزراء الهند السيدة (انديرا غاندي) عام (1985 م).

وما زال خطرهم يهدد بلاد الهند بالتقسيم، فهم يحاولون الإنفصال عن الهند وإعلان الاستقلال، وفي كل يوم لهم مشكلة جديدة مع الحكومة في البلاد. . وهم يرفعون شعارهم القائل: «بأنهم ليسوا خرافاً تعلّق من رقابها للشنق».



الباب السابع

الديانات في بلاد الصين

تمهيـــد:

تعد الصين من أرقى بلاد العالم، وأقدمها في الفلسفة الإنسانية، والمذهبية الدينية، وقد ظهر فيها عدد من الفلاسفة والحكماء الذين قامت تعليماتهم وأفكارهم وفلسفتهم على السلوك القويم للإنسان، وقد عُرفت النفس الصينية بأنها أقدر النفوس على تحويل الفرضيات الخلقية إلى أخلاق عملية.. وقد تركز المجتمع الصيني على خليط عجيب من الدين والأخلاق والفلسفة، والصينيون من أكثر الشعوب تمسكاً بالخرافات، وأكثرها تشككاً، وأعظمها تُقى، وأبعدها تحرراً من سلطة رجال الدين. ولهذا امتزجت الفلسفة الصينية بالدين وتوافقت معه فقامت الفلسفة على الأخلاق الفاضلة، وتنظيم السلوك الإنساني وإصلاح الأخلاق العملية، بينما قام الدّين على الاشراك بالله والوثنية، وأخذ يدعو إلى حسن المعاملة بين الناس، فهو سلوك إنساني وفلسفة أخلاقية وتنظيم اجتماعي، ولذلك اتخذ الصينيون الأخلاق الفاضلة مذهباً في السلوك القويم وديناً تدعو إليه آلهتهم حسب اعتقادهم، وعملت فلسفتهم ودينهم على إقامة بنيان قوي من الأخلاق والسلوك الحسن وإن كان دينهم في عقائده وأسسه وشعائره لا يمت إلى الحق والمنطق بصلة، وقد بلغت الأخلاق عند الصينيين درجات من السمو والرفعة أدهشت العلماء عندما درسوها، واطّلعوا عليها،

وخاصة ما وجدوه عندهم من حكم ووصايا وآراء خلقية سامية موروثة، ولهذا ظن العلماء أن الصينيين لا بد وأنه قد بُعِثَ فيهم رُسل، وأخذوا يقارنون بين التوراة والكتب الصينية في الأخلاق والحكم والوصايا، وهذا أمر ممكن لأن الله سبحانه وتعالى لا يترك مثل هذه الجماعات البشريّة الكبيرة من غير رسول يهديهم أو يدعوهم إلى عبادة الله وحده، «وإن كان غير معروف أي رسول منهم»، وهذا لا يعني عدم وجود أنبياء أو رسل في تلك البلاد الرحبة، وأنهم لن يُتركوا سُدى من غير هداية أو إرشاد.. قال تعالى: **﴿ورسُلاً قَدْ قصصْناهم عليك من قبلُ ورُسلاً لم نقصُصْهم عليك ﴾**[1].

---

(1) سورة النساء، الآية: 164.

الفصل الاول

أولاً: الديانة الصينية القديمة:

قامت في الصين تعاليم دينية وثنية قديمة، قبل أن يظهر المصلحون الأخلاقيون، أمثال: «لاوتزو» «كونفوشيوس»، وقد عبدوا مظاهر الطبيعة، لأنهم خافوا منها، وعجزوا عن تفسيرها وقد كانت السماء والأرض في هذا الدين البدائي شطرين في وحدة كونية عظيمة، عملها الأساسي هو التكاثر والنمو، وكانت السماء التي تشمل كل المخلوقات وكل الأشياء هي الإله الأعظم في نظرهم، وقد اعتقد الصينيون القدماء بعبادة ثلاثة مظاهر هي:

عبادة السماء، عبادة قوى الطبيعة، وعبادة أرواح السلف.

1 - عبادة السماء:

عبد الصينيون القدماء السماء باعتبارها الإله الأعظم، وحاكم الحكّام ورب الأرباب. . ولا يقصدون بها القبّة الزرقاء المعروفة لنا، بل يقصدون بها الأفلاك ومداراتها، والقُوى المسيطرة عليها والتي تسيرها في مداراتها، وهم يعبدونها لاعتقادهم أنها عالم حيّ متحرك حسب نظام محكم ودقيق، وإن كل القوى المسيّرة في العالم، إنما هي خاضعة لسلطان السماء، التي لها السيطرة العليا على كل القوى والمادة والأشياء جميعها. . واعتقد كونفوشيوس أن السماء

قوة في الكون فيها قدرة أقوى من قدرة الإنسان تعمل على تحقيق العدل والحق، ولها من العطف والرحمة على الإنسان ما لها. فهي مثال للرحمة والعدل..

ويعتقد قدماء الصين بالقضاء والقدر، فهم يقولون أن كل الحوادث في السماء مقدرة ومعروفة، وقد اختص بعبادة السماء وتقديم القرابين لها ملكهم الأكبر.. ولذلك يطلق على امبراطور الصين «ابن السماء» حتى صار لكل ملك أو أمير الحق في عبادة السماء كالملك الأكبر، بينما لا يحق لعامة الصينيين ذلك.. ويعتقدون أنه يجب على الملك أن يحكم بين الناس بالعدل بأمر السماء، فإن خالف ذلك وقسا أو ظلم الرعية، سلّطت عليه السماء مِنْ رعيته مَنْ يخلعه أو يقتله. ومكّنت السماء لغيره من العادلين من يستولي على عرشه ويطرده. وقد قيل على لسان أحد ملوكهم كان قد انتصر على ملك من بيت (هشيا) كان قبله وقتله: «أعطى الإله لكل إنسان ضمير، إذا تبعه يحفظه ويقوده إلى الطريق السَّوي والإله دائماً يبارك الطيب ويعاقب السيء، ولذلك أنزل الإله المصائب على بيت «هشيا» كي يضع حداً لآلامه».

2 ـ عبادة قوى الطبيعة:

عبد الصينيون القوى المسيطرة على الأشياء الموكلة بها، فهم يعتقدون أن لكل شيء قوة تسيطر عليه وتسيّره، فللشمس قوة تسيّرها، وللقمر وللسحاب وللمطر والجبال والكواكب وكل الأشياء كذلك..

وتختلف عبادة الملوك لها عن عبادة عامة الناس، فالملوك يعبدون القوى الخاصة بكواكب السماء، وكل ما فيها، بينما يعبد الصينيون كل قوى الأرض وما يختص بها.. وكانت دوافع تلك العبادات: الخوف من خوارق الطبيعة، وتقديس ما على الأرض من صور رهيبة، وما فيها من قدرة على الإنتاج والتوالد..

3 ـ عبادة أرواح الأجداد:

من معتقدات القدماء الصينيين، أن أرواح الأموات تنفصل عنهم بعد

موتهم وتبقى في الدنيا مع أسرتهم، لذلك فهم يعبدون أرواح الآباء والأجداد تقديسا لهم ووفاء لعهودهم وشكراً لهم على ما أسدوا من نِعَمٍ لأبنائهم، ويقدمون لهم القرابين، ومع ذلك لم يهتموا بإقامة قبور ضخمة لهؤلاء الأجداد كالمصريين.. يقول أحد المؤرخين: «إن الصين ليست مقبرة كمصر، ولكنها بيت كبير للأجداد». كما عبدوا أرواح كبار الحكماء والأبطال الوطنيين، وعبدوا أباطرتهم الذين كانوا بنظرهم مقدسين.. وعبد الصينيون بعض القوى السحرية الموجودة داخل المنزل «قبل باب البيت أو العتبة أو موقد المطبخ أو ساحة المنزل أو الحديقة». وغير ذلك.. وكانت العبادة عند الصينيين غناءً ورقصاً وموسيقى، وكأنهم يشركون آلهتهم معهم في أفراحهم وسرورهم وأغانيهم وموسيقاهم.. ولم يؤمنوا بالجنة ولا بالنار.. ولا بالثواب ولا بالعقاب.. وإذا لاحظ الصيني عدم استجابة الآلهة لدعائه شتمها وقذف بتماثيلها وصورها بعيداً، ولهم مقولة بهذا المعنى: «ليس بين صانعي التماثيل والصور من يعبد الآلهة، لأنهم يعرفون من أي مادة تصنع».

ومن معتقدات الصينيين القدماء، أن الأحداث الكونية تتبع الأخلاق التي تسود بين الناس، وملوكهم فكلما كان العدل والانسجام والتفاهم والفضيلة تسود بين الناس وتربط العلاقات بينهم برباط من المودة والمحبة والرحمة، فالكون يسير في فلكه من غير اضطراب يعيش الناس بسعادة وهناء، أما إذا حاد الإنسان عن جادة الحق وابتعد عن السلوك القويم، اضطرب الكون لمخالفة القانون الأخلاقي، ويُعِدُّون حدوث القحط والزلازل والدّمار، وكسوف الشمس، وخسوف القمر، دلالات على فساد خُلقي موجود بين الناس، أما السلوك الطيب فيجلب الخير والبركات ويجعل كل ما في الكون يجيء وفق رغبة الإنسان، وهم يعتقدون أن المؤثرات في الكون أمور ثلاثة هي:

السماء: ولها السلطان الأعلى. ثم الأرض: لأنها تقبل أحكام السماء. ثم الإنسان: بما يؤثره بإرادته، فإذا أراد الفضيلة وسلك سبيلها يجعل مظاهر الكون لخير الإنسان...

ثانياً: تقديم الأضاحي للآلهة القديمة:

كانت عباداتهم تقوم على تقديم الذبائح الخمس التي ترمز إلى العناصر الخمسة التي يرجع إليها أصل كل الموجودات وهي: المعدن ـ الخشب ـ الماء ـ النار ـ التراب.

وكان الصينيون يقدّمون الذبائح والقرابين حسب اعتقادهم على ثلاث مراتب وهي:

(أ) الذبائح العظمى:

وكانت تقدّم باسم السماء «تيان» Tian والأرض «تي» Te. والهياكل العظمى لأسلافهم، وفيها أسماء الأباطرة المتوفين من العائلة الحاكمة منقوشة على ألواح وباسم «شي تسي» إله الأرض والمزروعات..

(ب) الذبائح المتوسطة

وكانت تقدم باسم الشمس والقمر وأرواح المتوفين من العائلات والتي حكمت قبل العائلة الحاكمة، وباسم كونفوشيوس وقدماء أصحاب الفلاحة والحرير وآلهة الأرض والسماء...

(جـ) الذبائح الدنيئة:

وكانت تقدم باسم المتوفين من أهل الإحسان والمصلحين وأرباب الشهرة، وباسم الرياح والأمطار والجبال والأنهار وغيرها...

الفصل الثاني
الكونفوشيوسية

مذهب يهتم بالدولة والعائلة فينظم شؤونها أخلاقياً. وسميت بذلك نسبة إلى «كونفوشيوس» المشرع والمصلح الديني الصيني الشهير (551-479 ق. م). وهي ليست ديانة بالمعنى المعروف، بل هي مجموعة تعاليم وآراء فلسفية إنسانية، يقوم أساسها على القواعد الأخلاقية، والفضائل الطبيعية التي تؤيدها البراهين الحسّية، وتؤكدها العواطف النفسية. وتستند إلى حكمة القدماء، ومبدأ المعاملة بالمثل. يقول كونفوشيوس: «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به».

ومن أقواله أيضاً في الفضيلة والأخلاق القويمة: «أن تتعاطف مع كل شيء وأن تحب كل الناس وأن لا تدع مجالاً لأفكارٍ أنانية ذلك هو الصلاح». ويقول كذلك: «إذا كلّفت إنساناً بعمل فثِقْ به، وإذا كنت لا تثق به فلا تكلّفه». ويقول أيضاً: «لا تحزنْ لجهل الناس بك، ولكن احزن لجهلك بهم». وكان يهدف إلى توصيل الحكمة القديمة كأساس لمبادئه وتعاليمه فيقول:

«إنني لا أعلّم شيئاً جديداً، وكل ما أفعله هو توصيل الحكمة القديمة».

وقد أدخلت التعاليم الكونفوشيوسيّة في برامج تعليم الشباب واستمرت تسيطر على العقلية الصينية من أول أسرة هان (206 ق. م ـ 220 م) حتى سقوط أسرة منشو الذي أطلقوا عليه اسم «أحكم الأساتذة الأقدمين» في عام 1657م.

1 ـ المبادىء الخلقية:

من مبادئها الخلقية إطاعة الوالدين، واحترام الأسرة، السلم بين الحكّام والرعية، والعدالة والرحمة بين الإنسان وأخيه الإنسان، فقد جاء فيها: «الأب درْع للإبن والإبن درع للأب، والعلاقة بين الإثنين يجب أن تكون قوية». وكان يسعى كونفوشيوس للابقاء على التقاليد في تعليماته التي تعد المجتمع نظاماً مقدساً يقوم على قواعد خمس تبين العلاقات الاجتماعية بين أنواع خمسة من الناس هي: 1 ـ علاقة الحاكم بالرعية. 2 ـ علاقة الزوج بزوجته. 3 ـ علاقة الوالد بولده. 4 ـ علاقة الأخ بأخيه. 5 ـ علاقة الصديق بصديقه...

فهو يقول: «أكرِمْ أباك وأمك وافعل كلّ ما تستطيعه لجعلهما سعيدْين، واعبد ذكراهما ما حييت» وكان يفرض كونفوشيوس في تعليماته وجوب الطاعة والولاء من غير مناقشة، وكان ينصح أتباعه بالابتعاد عن التفكير فيما وراء الطبيعة، وكنه الروح. وقد يوصل هذه الأفكار والتعليمات إلى أبناء شعبه بشكل تدريجي وباقناع بطيء وببساطة أخاذة مفهومة. ويحدد كونفوشيوس الرجل الفاضل في المجتمع فيقول: «إن القاعدة الأساسية التي تقوم عليها أخلاق الرجل الفاضل هي العطف الفيّاض على الناس جميعاً وهذا الرجل الأعلى لا يغضبه أن يسمو غيره من الناس فإذا رأى أفاضل الناس فكّر في أن يكون مثلهم وإذا رأى سَفَلَة الناس عاد إلى نفسه يتقصى حقيقة أمره». ويقول أيضاً: «الرجل الفاضل لا يتحيّز ولا يتعصب» وعلى الرجل الأعلى أن يضع نصب عينيه أموراً تسعة يقلّبها في فكره ويحرص على اتباعها وسلوكها.

1 ـ من حيث عينيه، يحرص على أن يرى فيهما بوضوح.
2 ـ من حيث وجهه، يحرص على أن يكون بشوشاً ظريفاً.
3 ـ من حيث سلوكه يحرص على أن يكون وقوراً.
4 ـ من حيث حديثه يحرص على أن يكون صادقاً مخلصاً.
5 ـ وفي تصريف شؤون عمله يحرص على أن يبذل فيه كل عناية واهتمام.

6 ـ عليه أن يبثّ الإحترام فيمن معه.
7 ـ في الأمور التي يشكك فيها، يحرص على أن يسأل غيره من الناس.
8 ـ إذا غضب يفكر فيما يَجرّ عليه غضبه من الصعاب.
9 ـ إذا لاحت له المكاسب فكّر في العدل والاستقامة.

وفي كتابه (الحوار) يميّز كونفوشيوس بين الرجل الكامل الخلق والناقص الخلق ويقارن بينهما فيقول: «الرجل الكامل الخلق يطلب الفضيلة، والرجل الناقص الخلق يطلب اللذّة. والرجل الكامل يفكّر في اجتناب الرذيلة وأداء الواجب، والرجل الناقص يفكّر في كسب المنافع. والرجل الكامل واقف على البر، والرجل الناقص واقف على الربح». وقد تركزت مبادىء الكونفوشيوسية على فضيلتين اثنتين حسب رأي مؤسسها، وهي فضائل خالدة:

أولهما: آداب اللياقة، فهي تشمل آداب المجتمع وآداب البلاط والشعائر الدينية، ونظم العدالة وقواعد السلوك الحسن، والمبادىء الأخلاقية الرفيعة.

وثانيهما: العطف الإنساني، أي حب الآخرين وطيبة القلب وسلامة النية.

ويعتبر كونفوشيوس أن قواعد اللياقة وآداب السلوك أساسي لكل فضيلة، كما توجد فضائل أخرى كان يلقّنها لتلاميذه، مثل صدق الولاء والشعور بالخجل والتواضع والحكمة وحب الآخرين، ويقول: «إن الطبيعة الإنسانية مستقيمة فإذا فقد الإنسان هذه الاستقامة في حياته افتقد معها السعادة».

ويؤكد على عظمة الإنسان الصادق فيقول: «إن الإنسان هو الذي يجعل الصدق عظيماً، وليس الصدق هو الذي يجعل الإنسان عظيماً». ومن أهم القواعد الأخلاقية كذلك قولهم أن الإنسان مفطور على الخير عندهم، والإرادة الإنسانية لها الشأن الأول ولها أثر واضح في الأكوان ويعدّون آلهتهم عادلة، ولعدلها تجعل مشيئتها في الأكوان على حسب عمل الإنسان، إن عمل خيراً فخير، وإن شراً فشرّ.. يقول كونفوشيوس: «إن الناس يولدون خيّرين

متساوين بطبيعتهم، وكلما شبّوا اختلف الواحد منهم عن الآخر تدريجياً وفق ما يكسب من عادات».

فطريق الخير هو الاعتدال والاقتصاد في كل أفعال النفس وسجاياها وهم يعدّون أن القناعة مع الجد من غير استسلام فضيلة، وأن الرحمة والعدل مع المسيء فضيلة وغير ذلك. ويعدون أن أقصى الطرفين من إفراط أو تفريط رذيلة وإن الفضيلة طريق السعادة والرذيلة طريق الشقاء والويل لمن يخالف قوانين الأخلاق عندهم. فالآلهة تغضب عليه وترسل عليه شواظاً من نار فيكون الشقاء في مخالفة قانون الأخلاق والسعادة في اتباعها والموافقة عليها.. يقول في كتابه (الحوار): «لو أنني ارتكبت ما لا يليق، لغضبت عليّ السماء». ويرون أن الرحمة تربط أفراد المجتمع لبعضهم وتجعل الناس متحابين سعداء. وكل مجتمع سعيد تكون الرحمة هي الرابطة بين أفراده وليست الرحمة هي العفو المطلق أو التسامح المطلق، إن الرحمة التي تسبب السعادة هي الرفق بالمجموع ومحبتهم ومعاملة أهل السوء بما يستحقون وغاية الفضيلة عندهم هي الكمال الإنساني والسعادة لبني البشر، وإقامة بناء المجتمع على التّواد والتراحم والتعاطف.. وقد اتخذ الدين وسيلة لدعم الأخلاق وتوثيق العلاقة بين أفراد المجتمع بعضهم ببعض من ناحية، وبين الحكام من ناحية أخرى وهم يعدُّون الدين والأخلاق والسياسة شيئاً واحداً وقد جمعت مبادىء الكونفوشيوسية في خمسة مجلدات هي أقوال المعلم الحكيم عرفت باسم كتب القانون الخمسة» بحث في أولها في المراسم وآداب المجاملة، وفي ثانيها شرح وعلق على كتاب «التغييرات»، وفي ثالثها شرح كنه الحياة البشرية ومبادىء الأخلاق الفاضلة، وفي رابعها «حوليات الربيع والخريف» التي سجل فيها أهم أحداث وطنه، وفي خامسها كل ما عرفته الصين في تاريخها.

الأخلاق الفاضلة:

عندما دعا كونفوشيوس إلى الأخلاق الفاضلة سلك فيها ثلاثة مسالك هي:

(أ) احترام الآباء والعناية بتماسك الأسرة وترابطها فهو يقول: «واجب

الولد البر بأبويه إذا كان داخل المنزل، والاحترام لذوي الإنسان إذا كان خارجه. والصدق في أقواله والرحمة بالناس في كل أفعاله وأن يتقرب إلى الفضلاء وأن يقضي فراغ وقته في كتب الأخلاق».

(ب) الدعوة إلى الفضيلة بالتدريج وإلى الأخلاق برفق ومخاطبة الناس كل حسب طاقته. يقول أحد تلاميذه المخلصين واصفاً آراء معلمه وأثرها في نفسه «إذا رفعتُ النظر إلى آراء الأستاذ رأيتها أعلى مما كانت وهي ملءُ نفسي وتحيط بي وتستغرق كلّ حسي وهو يرشد الناس بالتدريج إرشاداً حسناً وقد وسع بالعلوم مجال فكري وضبط بالآداب سلوكي حتى أني لو رغبت في ترك آرائه ما طاوعتني نفسي».

(ج) الدعوة إلى الخلق القويم والقدوة الحسنة فكان يدعو تلاميذه إلى السلوك الخلقي بأخلاقه ودعاهم أيضاً بكلماته فهو يقول لهم «أتظنون أني أخفي عليكم شيئاً؟ ما من أمر أعلمه إلاّ في إرشادكم وهذه هي طريقتي في التربية». إن الكونفوشيوسيين يكرهون أن يظهر الرجل على غير حقيقته ويسمون الأفراد من هذا النوع «لصوص الفضيلة»، وما أكثرهم في هذه الأيام.

2 ـ المبادىء السياسية:

للكونفوشيوسية رأي في السياسة والحكم فهم يعدون أن قوانين الأخلاق لا تنفصل عن السياسة والحكم فأقوام الأخلاق تنتج أقوام السياسة وأفضل أنواع الحكم ويجب على الحاكم أن يُصلِح نفسه قبل إصلاح رعيته. وإذا لم يستطع الملك أن يسوس نفسه وشعبه بالأخلاق القويمة ينزل عليه غضب من السماء، ينزع منه الملك، فالسياسة الحكيمة تقوم على الأخلاق القويمة، وهي ليست منفصلة عنها والغاية السامية في السياسة هي إصلاح الأخلاق. يقول كونفوشيوس: «السياسة الحكيمة تهذّب الرعية حتى لا تكون مخاصمة» فهي التي تعطي كل ذي حق حقه، فلا تسامح في قانون الأخلاق ولا تهاون في مصلحة الشعب ولو كان الآثم ملكاً ستغضب عليه السماء، ولهذا فقد استمر

العدل قائماً بينهم مع إنهم وثنيون ولا يدينون بدين سماوي. . وهو الذي يقول: «. . إن الحاكم الظالم أخطر على الناس من النمر المفترس». ومن تعليمات كونفوشيوس في أمور السياسة أنه يجب إنشاء حكومة صالحة أو جمهورية واحدة يتولى أمرها ذوو المواهب والفضائل تعطي الحقوق لأصحابها. وتؤمن الحياة الكريمة لمن لا يستطيعون كسب العيش كالأرامل والشيوخ العاجزين والمرضى الذين أقعدهم المرض عن العمل. . وكان أباطرة الصين يعدّون أنفسهم قدوة صالحة لشعوبهم ومسؤولين عن رفاههم وعاملوهم أحسن معاملة لذلك كان الامبراطور يفرض على نفسه الصيام حين تصاب بلاده بمجاعة وهو دائماً يتحسس آلام شعبه ويعمل على تلافيها وعلى مشكلات الرعية، وفي صفات القادة يقول كونفوشيوس: «إذا كان سلوك الرئيس مستقيماً أطاعه المرؤوسون من غير أن يأمرهم وإن كان غير مستقيم لم يطيعوه ولو أمرهم». فالطاعة إذاً تكون عن رغبة النفس واقتناعها. . ومن أقواله في طلب المنصب: «لا يكن همّك أن تتولى المنصب، بل ليكن همك ما يؤهلك لهذا المنصب، ولا تهتم بجهل الناس قدرك، بل اهتم بالفضل الذي تريد أن يعرفوك به». ويعتبر كونفوشيوس أن الشعب ليس إلا معبّرا عن السماء أو الله، فهو يخاطب الأمير بقوله: «إذا نلت حب الشعب فإنك تنال حكم الامبراطورية وإذا فقدت حب الشعب فقدت الامبراطورية». وهو يصف أخلاق الرؤساء بالرياح وأخلاق المرؤوسين كالعشب وإلى أية جهة هبت الريح مال العشب فهو يقول: «إن أخلاق الرؤساء كالريح، وأخلاق المرؤوسين كالعشب، وإلى أية جهة هبت الريح مال العشب». وكان الحكام والولاة والموظفون يجتازون امتحاناً معيناً على أساس ما ورد في الكتب الكونفوشيوسية، فإذا اجتازوا ذلك الامتحان بنجاح أُسندت إليهم الوظائف وألقابها. . ويؤكد ذلك في قوله: «إن الرجل العاقل لا يحكم على الناس بأقوالهم بل بأفعالهم، ففي العالم المتحضر نجد المجتمع زاخراً بالأعمال السامية وفي العالم المتخلف نجد المجتمع زاخراً بالخطب الرنّانة». . ويقول في ذاته: «إني أكره جعجعة الخطب». . ويقول: «قلّما يكون الشخص ذو الخطب المؤثرة في المظهر رجلاً فاضلاً».

3 ـ المعتقدات الدينية:

كان يؤمن كونفوشيوس بأنه ليس في الوجود سوى إله واحد قوي الإرادة هو السماء، وكان أول من صرّح بوجود العناية الوحدانية بالصين عندما كانت الصين غارقة في ظلمات الوثنية والوحشية. ولم يكن هو نفسه موضع عبادة أو تأليه، ولم يرض بذلك، لأنه كان يعتبر الآلهة رموزاً لقوى الطبيعة وأرواح السلف ليس أكثر، وقد قام هذا المصلح دون مبالاة بالأخطار والأسفار من أجل الفضيلة والتعليم لا يثنيه شيء عن نشر مبادئه مع ما فيها من تناقض لعبادة ذلك الزمان وتعاليمه، فكان يكره رجاء الإله أن يشفيه أو أن ينعم عليه أو أن يغفر له، لأن الصلاة باعتقاده لا غاية لها، إلا تنظيم سلوك الأفراد والتأليف بينهم وهو يقول: «إن الفرد الذي يرتكب خطأ ضد السماء لن يجد من يغفر زلّته». فالصلاة عنده لا تمحو ذنباً وكان يفرض على أتباعه الاستحمام قبل أداء الصلاة وكان يقوم بتأدية الصلاة وهو صامت على غير عادة الناس في عصره، وهكذا نجده موحداً يؤمن بإله واحد، ولم يؤمن كونفوشيوس باليوم الآخر، ولم يكن يفكّر بالحياة بعد الموت، بل كان همّه إصلاح الحياة الدنيا، وقد سئل عن الأرواح بعد الممات فقال: «نحن لم نقدر على خدمة الأحياء، فكيف نقدر على خدمة الأموات؟ ولم نعلم الحياة فكيف نعلم الممات؟». لم يتميز كونفوشيوس في عبادته عن غيره من أتباعه، فكان يقوم بواجب العبادة التي يقوم بها كل صيني. وكان يقدم القرابين للآلهة كغيره بل يُحكى عنه أنه كان ساذجاً في الناحية الدينية، فكان يتشاءم من صوت الرعد ويرتجف منه ويخشاه، ويقرأ التعاويذ لطرد الأرواح الشريرة من بيته والأوهام والخرافات من عقله، وفيه موضع لأساطير الأولين التي كتبها وحفظها. ولكن عبقرية كونفوشيوس وقوة إرادته وعظمته كانت تتجلى واضحة في آرائه في السلوك الإنساني والخُلق القويم ورياضة النفس حتى أن الصينيين اتخذوه قدوة لهم واعتبروه من «الذين وُهِبوا تفويض السماء أو الله» لهداية الناس وإرشادهم، واعتبروه نبياً مرسلاً واعتقدوا بكتابه «المحاورات الفلسفية» بأنه كتاب مقدّس ومع ذلك فقد كان يقابل بفتور في أماكن كثيرة باعتبار أفكاره خيالية لا يمكن تطبيقها ووضعها موضع التنفيذ، حتى أنه في أواخر أيامه

شعر بخيبة الأمل لإخفاقه في حث الناس على تحسين مستوى حياتهم وهو محطم القلب. فقد حاول الامبراطور «شي هوانج تي» الذي حكم من (221-211 ق.م) أن يبدأ التاريخ به، وحاول إلغاء تأثير آراء كونفوشيوس وتعاليمه، فأمر بحرق كتبه. ولكن كثيراً من العلماء في الصين كانوا يحفظون تعاليم كونفوشيوس عن ظهر قلب. وعاد الأباطرة الذين جاؤوا بعده فأحيوا ذكراه وبنوا له المعابد والهياكل في أماكن كثيرة وقد تعاظم إجلال الناس له حتى أصبح في المكانة الثانية بعد السماء، وأخذت تُشاد له الهياكل وتُقدّم له القرابين ويُحرق البخور.

وقد أقيم له في بكين العاصمة هيكل هو أجمل الهياكل الصينية في القرن 13م.

4 ـ من آرائه التربوية:

اهتم كونفوشيوس بالتعليم فكان له العديد من التلاميذ والأتباع فقد كان يقرأ وينشدُ مثلَه العليا في حكمة الصين القديمة وتعليم فلاسفتها وحكمائها السابقين ويلقّنها لتلاميذه وكان يرى أن تعاليمه لا تعطي ثمارها إلا إذا استندت إلى حكمة القدماء. وقد وضع كونفوشيوس مجموعة القوانين الاجتماعية القديمة التي تقوم على الاقتداء والتقليد، فالامبراطور في رأيه هو النمودج الأعلى الذي تحتذى فضائله. وتتبع مزاياه وشمائله. وقد بذل جهداً طويلاً في تثقيف نفسه واطلاعه على علوم الأقدمين فهو يقول عن ذاته: «علقت المعرفة في الخامسة عشرة من عمري وهام قلبي بها في الثلاثين وانكشف لي سرها في الأربعين وتعلمت الشريعة في الخمسين ولما صرت في الستين صرت أفقه ما أسمع وفي السبعين تسلّطْتُ على عواطفي وأخضعتُ لسلطان العدل...».

ومن أقواله في مواضيع التربية والتعليم «حين أعرض للطالب زاوية واحدة من الموضوع ولا يستطيع الطالب أن يتعرف على الزوايا الثلاث الباقية، فأنا غير مستعد أن اعيد درسي».

ويقول أيضاً: «التعليم الذي لا يكمّله التفكير جهد ضائع والتفكير الذي

لا يكمّله التعليم خسارة كبرى». ويقول كذلك: «من تعرف على الحقيقة في الصباح يمكنه أن يموت في المساء دون أن يشعر بأسى». ويقول أيضاً: «ليكن الشّعر البداية. ولتكن الأخلاق الحميدة الوسط، ولتكن الموسيقى النهاية».

5 ـ كتب الكونفوشيوسية:

إن المعرفة عند كونفوشيوس أصل من الأصول في الحكمة والإدارة. أما الكتب التي تعطي الحكمة وتمكن الإنسان من المعرفة وتجعله قادراً على تولية شؤون الناس في الصين فهي نوعان:

(أ) الأصول الخمسة القديمة.

(ب) الكتب الأربعة الملحقة.

(أ) إن كتب الأصول الخمسة التي اعتمد عليها كونفوشيوس هي كتب قديمة أعاد النظر فيها وأصلح ما فيها ووضعها بصيغتها النهائية وأضاف إليها كتاباً من مؤلفاته فأصبح عددها خمسة هي:

1 ـ كتاب الوثائق التاريخية ويحتوي على خطب وأعمال رسمية لقدماء أباطرة الصين.

2 ـ كتاب القصائد والشعر ويحتوي على (305) أغاني قديمة رسمية دينية.

3 ـ كتاب التبدلات وهو كتاب صوفي يبحث في التنجيم ويحوي معلومات هامة عن الفلك وأسراره وأسرار الكون وطرق الكشف عن المستقبل.

4 ـ كتاب القداس والحفلات: ينظم الحفلات الرسمية وأصولها...

5 ـ حولية الخريف والربيع: وهو من مؤلفات كونفوشيوس يبحث في أوضاع وأخبار مقاطعة «لو» «Lo» بين سنة (722-479 ق.م).

(ب) الكتب الملحقة الأربعة: وفيها آراء كونفوشيوس وحياته وآراء تلاميذه وأتباعهم وأفكارهم وهي:

1 ـ مختارات كونفوشيوس من قول وفعل التي جُمعتْ في كتاب «العلم الكبير».

2 ـ المعرفة الكبرى وهو كتاب ينسبب إلى أحد تلاميذ كونفوشيوس وهو «تسين تسان».

3 ـ الاعتدال أو مذهب الوسط وفيه بيان للنظام الذي يجب أن يسير فيه أتباع كونفوشيوس.

4 ـ آثار «منسيوس» (372-289 ق.م) وهو مصلح من كبار مصلحي الصين. أكمل مذهب كونفوشيوس بعده بـ (150) عاماً.

وتعتبر هذه الكتب التراث الفكري الحقيقي للصين في الفلسفة والتاريخ والأدب والأخلاق..

كونفوشيوس (551-479 ق.م)
Confucius «المعلم الحكيم والملك غير المتوج»

نشأته وحياته:

ولد عام (551 ق.م) في مدينة «تشوفو» التابعة لإمارة «لو Lo» المسماة اليوم بمقاطعة «شانتونج» من أسرة عريقة وكانوا يسمونه (كونغ ـ فو ـ تسو) ثم حرّف إلى كونفوشيوس وتوفي في «لو» في (4 آذار 479 ق.م) ويوجد قبره في معبد «الكمال العظيم» في بكين وقد نسجت حوله القصص والأساطير الكثيرة.. كان أبوه «تشوليانج هيه» من أسرة كونغ ضابطاً حربياً ثم أصبح حاكماً لإحدى المدن ثم مديراً لإحدى المقاطعات في ولاية «لو» التي كانت حينذاك أرقى ولايات الصين حضارة وأكثرها تطوراً. وكانت الوظائف الحكومية فيها وراثية، توفي عندما كان ابنه في الثالثة من عمره، وكان قد جاوز السبعين من عمره حين ولد ابنه، عاش مع والدته «تشنج تساي» يرافقهما الفقر، اشتغل برعي الأغنام عند أحد الأمراء، وكان أميناً فقد تربى على الآداب السامية والتهذيب، فهو لا يعتبر الغنى سبباً للسعادة ولا الفقر سبباً للتعاسة، يقول كونفوشيوس «الفقر لا

يستلزم التعاسة والغنى بلا فضيلة ظل زائل». تزوج وهو في التاسعة عشر من عمره، ولما شب شغل وظيفة حكومية متواضعة وهي الإشراف على بعض الأراضي العامة، ثم عمل بالتدريس. لرفع مستوى دخله القليل، ثم استقال منه بعد زمن، وبدأ ينشر تعاليمه عندما بلغ الثانية والعشرين من عمره حيث أنشأ مدرسة ليتلقى فيها الشباب أصول الفلسفة الأخلاقية والسياسية، وقد كان شاباً جاداً، واسع المعرفة والاطلاع، عميق التفكير، بعيد النظر، سامي الأخلاق، لا يهتم بالاحتفالات التي تقام في بلده، ولا يتبع المواكب والمهرجانات. درس الآداب الصينية وارتشف من حكم وتقاليد أسلافه الشيء الكثير.. كان يحب الرياضة والموسيقى والعزف على القيثارة، وكان أديباً يحب الشعر أيضاً..

فقد قال عنه تلاميذه: «كان المعلم مبرأ من عيوب أربعة: إنه لم يكن عنيداً، ولم يكن أنانياً، وكان لا يجادل وفي عقله رأي سابق ولا يفرض على الناس عقائده». وقد عرف باستقامة أخلاقه ورجاحة عقله ورباطة جأشه وكان رجلاً عالماً فاضلاً، ولكنه لم يدع قط أنه كان نبياً أو صاحب رسالة دينية أو أنه موحى إليه من السماء، وقد عاش طوال حياته دارساً منقباً مهتماً بشؤون مواطنيه وقد وضع الكتب والمؤلفات العديدة التي تضمنت مبادىء خلقية لإرشاد الناس وتهذيبهم.

وكان عميق التدين، ويعنى بالشعائر الدينية الوثنية ويلحقها بالتقاليد التي كان يلزم تلامذته باحترامها. إلا أنه كان فيلسوفاً وحكيماً أكثر منه رجل دين أو صاحب رسالة، ومع ذلك فقد آمن بإله واحد هو السماء.. وفي سنة (496 ق.م) كوفىء بتعيينه رئيساً للوزارة في ولاية «لو» لأنه أثبت كفاءته عندما كان يشغل منصب وزير الأشغال العامة ثم وزير العدل، حيث نظم الأمور تنظيماً رائعاً. وساد العدل في زمانه وقوي سلطان الحكومة واختفى الأشرار فهو يقول: «وانتشرت الأمانة حتى لم يعد يفكر أحد أن يلتقط شيئاً لا يخصه من الأرض مهما كان ثميناً» وأصبح الرجال يمشون على جانب الطريق والنساء على الجانب الآخر وقد استطاع أن يؤثر تأثيراً كبيراً إلى حدٍ يقال معه أن كونفوشيوس هو الصين وأعدم المشاغبين من الوزراء ورجال السياسة، وأدَّب اللصوص وقطاع

الطرق ومنع الغش والاحتكار، كل هذا جعل أعداءه في البلاط يتآمرون عليه، مما سبب طرده من الوظيفة ونفيه من تلك الدولة ثم عاد إلى ولايته، وهو يشعر بالأسى والإشمئزاز إزاء الفساد وسوء الحكم الذي يمارسه أفراد من الطبقة الحاكمة الذين لم يهتموا بالتفكير في مصالح رعاياهم بل انصرفوا إلى تأمين مصالحهم الخاصة على حساب الآخرين. ثم عاد واستأنف التدريس لاعتقاده أن التعليم خير وسيلة لنشر الأفكار والآراء والتعاليم فقد كان عالماً جليل الشأن ومدرساً موهوباً حتى أطلق عليه معاصروه «معلم الجنس البشري» حيث نادى بالتمسك بحكمة القدماء، ونقل التراث القديم إلى أبناء عصره ودعا إلى إحياء هذا التراث والسير على قواعده ومبادئه فتملَّك نفسية الجماهير.

وقد انحدرت قيمة كونفوشيوس في الوقت الحاضر بسبب مهاجمة الجمهورية الحديثة في الصين له ولتعاليمه وأبطلت عبادته، ومع ذلك فقد اعتبرت ذكرى ميلاده عيداً وطنياً عاماً ولكن الصين الشيوعية ألغت من المدارس الأولية كتب الدين الكونفوشيوسية، بما فيها الأصول الخمسة والكتب الملحقة الأربعة. وكانت عبادته خلال ما يقرب من خمسة عشر قرناً تقام في الصين مرتين كل عام في موقع الاعتدالين الخريفي والربيعي. وكانت تقدم له القرابين في الهياكل التي بنيت من أجله، حتى أن أباطرة الصين أنعموا عليه ألقاباً مختلفة فسمي أميراً وسمي أستاذاً وأعطي رتبة الكمال وأعظم الحكماء وقد قرروا في عام (555 م) تأسيس هيكل في كل مدينة صينية وقرروا أن تقدم له القرابين وأن يعبد فيها، وفي عام (479 ق.م) استقبل كونفوشيوس أَجَلَهُ باسماً. ولم يظهر عليه خوف ولا وجل. ولم يتل صلاة ما أو تعويذاً، وأصبح مكان دفنه مزاراً ومحجّاً لأهل الصين. فهل كان نبياً؟ الله أعلم. فكم أنت عظيم يا كونفوشيوس. . .

ومن أقواله المأثورة: «اثنان لا يغيران رأيهما: أعقل الناس، وأسخف الناس. أعقل الناس لثقته بعقله، وأسخف الناس لضعف عقله».

الفصل الثالث

الطاوية

«Toism»

هي إحدى الديانات الصينية الكبرى القديمة، أسّسها الفيلسوف الصيني (لاوتسي) أو الفيلسوف القديم، في القرن السادس قبل الميلاد، وقد جمعت أحاديثه وآراؤه في كتاب الأخلاق أو (طاوتو تشينج)، ويعني الطريقة وفيه مبادىء الطاويّة ويعد كتابهم المقدس. وهو كتاب معقّد كل التعقيد، ومتناقض في فصوله وأجزائه وصعب الفهم. أما كلمة «طاو» فهي تعني الطريق الذي يبين عالم الظواهر ونظامه كما تعني نظام الكون الذي لا يداخله الخلل. وتعني القوة الكامنة في الطبيعة والأشياء، وهي المبدأ الأخلاقي الذي يحكم سلوك الإنسان الطيب..

والطاوية في رأي مؤسسها، إنها الطريقة لحياة، تهدف إلى تحقيق السلام الشخصي في الحياة الدنيا، فحوّلها الفقهاء وادّعوا وجود إكسير الحياة الذي وصل إليهم من صاحب الطريقة ليهب صاحبه الخلود، ولذلك أقبل الناس بلهفة على هذا الدين الجديد الذي يمنحهم الخلود، وشادوا له الهياكل واغدقوا على كهنته العطاء، وأصبح (لاوتسي) إلٰهاً معبوداً ولذلك اهتمت الطاوّية بإيجاد اكسير الحياة الذي يضمن خلود الإنسان ويبعد عنه الموت، والطاويون يقدّسون المخلوقات الخارقة للطبيعة ويؤمنون بأن أسلوبهم في العبادة يمكّنهم من إحراز الخلود والتخلص من آلام الحياة الدنيا إلى الأبد.. وقد دخلت على الطاوية

بعض الأفكار والنظريات حتى أصبحت تشبه الديانة الزرادشتية، فظهرت فيها فكرة الصراع بين قوتين تتمثل الأولى بكل قوى الخير بشكل عام، وتتمثل الثانية بكل قوى الشر بشكل عام، وتتسلط قوى الشر على الناس الأشرار فتنتقم منهم وتجازيهم على أعمالهم الشريرة، بينما قوى الخير تحصي الناس الطيبين وتكافئهم على أعمالهم الخيرة.. وتؤمن الطاوية بالسحر والتنجيم والقوى الطبيعية وما شابه ذلك من خوارق. وهم يعتقدون بتناسخ الأرواح، وأن لكل إنسان ثلاثة أنفس هي:

النفس العاقلة: ومقرها في الرأس.

النفس الحساسة: : ومقرها في الصدر..

النفس المادية: ومقرها في المعدة..

فإذا مات الإنسان ذهبت نفسه العاقلة إلى الأرواح الأبدية، ونزلت الثانية في القبر، بينما النفس الثالثة تظل تائهة ضائعة تلتمس الدخول في جسم آخر وتتقمّص فيه، وإذا لم تُتّخذ الاحتياطات اللازمة أصبحت تلك النفس عدوّة للعائلة، ولهذا فهم يوقدون عيداناً من الطّيب عند أبواب منازلهم عند موت أحدهم حتى يمنعوا بهذه العيدان دخول نفسه أو سواها من الأرواح الشريرة إليهم.. والطاوية قريبة من مذهب الحلول الذي يقول بأن الخالق يحلّ في كلّ الموجودات والطاويّون يحتقرون العادات القديمة كما يحتقرون الدراسة والتحصيل العلمي. ويحتقرون العقل كأساس لاكتساب المعرفة لأنه في زعمهم يؤدي إلى تشويه الحقائق التي يكتسبها الإنسان بالفطرة وبدون حاجة إلى التعلّم.. والمثل الأعلى عندهم هو التحرر من الشهوة والتجربة الحسية وذلك بالتأمل الصوفي، والمعرفة الصحيحة لديهم هي معرفة القانون الأعظم أو أنها المعرفة التي يكتسبها الفرد عن طريق التصوف، والتصوف عندهم هو الطريق الوحيد للوصول إلى المعرفة.

1 ـ التصوف:

ويقوم التصوف عند الطاويّة على المراحل التدريجية التالية:

1 ـ أن يخلو الفرد إلى نفسه وأن يقطع كل صلة بينه وبين عالم الأشياء المحسوسة.

2 ـ الامتناع عن كل ما من شأنه تدنيس الروح والحيلولة بينها وبين الوصول إلى الحقائق المجردة عندها يتحرر ذهن الإنسان عن الماديات حتى يصير روحاً خالصة.

3 ـ مرحلة الرؤيا أو الإشراق وفيها يدرك الفرد الحقائق المجردة إدراكاً مباشراً.

4 ـ مرحلة الاتصال التام أو الوحدة بين الفرد والقانون الأعظم، ومنها يحصل اندماج تام بين شخصية المتصوف والذات العليا بحيث تفنى الشخصيتان في شخص واحدة.

ويعتقد الطاويون بأن الفضيلة هي عدم العمل والاقتصار على التأمل والتجرية الصوفية ويؤمنون بالحرية وعدم التدخل في شؤون الأفراد ويمكن أن تتحقق الفضائل وأن يسود السلام إذا لم نتدخل ولم نعمل، على عكس الكونفوشيوسية التي تدعو الناس إلى العمل والجد والاجتهاد.

وتسود بين اتباع الطاوية حكمة تقول: «اشغل نفسك بلا مشغلة». أي أن الإنسان يجبَ أن لا يُشْغِلِ نفسه بشيء على الإطلاق، فهي مذهب يدعو إلى ترك الأمور تسري على أعنتها، والطاوية تُلخّص بأن الإنسان يجب ألا يناضل ضد الطاو أو الطريقة وعليه أن يستسلم ويخضع لها ويسير طبقاً لها وأن السعي وراء السلطة هو أمر سخيف وغير أخلاقي والطريقة لا يمكن أن تُهزَم وعلى الإنسان أن يتعايش معها. فالمعتنق لهذا المذهب يقول: إن الماء في منتهى الرقة وينساب إلى الأسفل بكل سهولة وهو يتجاوب مع أضعف قوة دون إبداء أي مقاومة ومع ذلك فلا يمكن تحطيم الماء والقضاء عليه. بينما نجد أن أقسى الصخور تتفتت بعوامل الحت والتعرية بمرور الزمن، وعلى الإنسان أن يتجنب العنف وأن تكون البساطة والمعيشة الطبيعية هي غايته وأن يتجنّب المساعي للوصول إلى المال أو السلْطان وألا يحاول إصلاح هذا العالم.

2 ـ مبادىء الطاوية:

خلال مراحل تطور الطاوية أخذت من المبادىء البوذية والكونفوشيوسية فوضعت المبادىء العشر لمعتنقيها وهي على شكل فضائل وقواعد أخلاقية وهي:

(أ) احترام الأبناء لآبائهم وأجدادهم.

(ب) الإخلاص للامبراطور وللمعلّمين.

(ج) المعاملة الطيبة مع كل المخلوقات.

(د) الصبر واستنكار السلوك السيء.

(هـ) التضحية بالنفس في سبيل مساعدة الفقراء.

(و) تحرير الأرقاء.

(ز) غرس الشجر.

(ح) حفر الآبار وفتح الطرقات للنفع العام.

(ط) تعليم الجهال وتحسين الأحوال.

(ي) دراسة الكتب المقدسة وتقديم القرابين للآلهة.

وهم يعتقدون أن على رأس آلهتهم ثلاثة هم: لاوتسي. الامبراطور «جادي» وهو سلطان الكون عندهم. ثم أول كائن في السماء. على أن تبقى «الطاو» مقدمة على الآلهة لأن فيها سر الكون، وفي فلسفة الطاوية تفريق بين قوتين كونيتين إحداهما موجبة وهي «يانغ» المبدأ المذكر وهي السماء والأخرى سالبة وهي «بين» المبدأ المؤنّث وهي الأرض. وباتحاد القوتين خرج العالم وعمّ الكون.

أما رجال الدّين عندهم فهم قسمان: الرهبان وهم الذين يقيمون في الصوامع ويتعبدون بالتأمل وبممارسة الفضائل العشر المذكورة. ثم القسيسون الذين يقيمون بين الناس ويتدخل كلاهما في حياة الناس فيطببونهم ويزوجونهم على الطريقة الروحية.

3 ـ عادات دينية أسطورية:

من عاداتهم الدينية أنه إذا مات أحدهم يوقدون عند أبواب منازلهم عيداناً من الطيب حتى يمنعوا بها دخول الأرواح الشريرة إليهم. وكذلك فهم يوقدون في أول كل شهر وفي منتصفه الشموع لإلٰه المطبخ. ويقدّمون له الذبائح والقرابين لأنهم يعتقدون أن إلٰه المطبخ هذا يصعد إلى الإلٰه الأعظم ويُطلِعه على ما ارتكبته العائلة أثناء هذه الحياة. ومن عاداتهم أنه إذا مرض أحدهم واشتد عليه مرضه حتى تفارقه روحه، فتظل هذه الروح تحوم حوله دون أن تعود إليه، فيأمرهم الكاهن بإرجاعها بواسطة ثوب المريض فهم يعلقونه من طوقه بقصبة لها أوراق خضراء يحملها أحد أقارب المريض وقد يعلقون بطرفها ديكاً أبيضاً، فيطوف الرجل ويقول عبارات دينية خاصة يُلقنُه إياها الكاهن، وذلك محاولة منه لاقناع الروح بالعودة إلى صاحبها فإذا شاهدوا القصبة بدأت تدور على نفسها استبشروا بالنجاح وعودة الروح.

أما شياطينهم فهي نوعان حسب اعتقادهم: شياطين بيضاء وأخرى سوداء، تُصنَع لها تماثيل من الخشب ويزعمون أنهما أسباب الوباء والبلاء وأنهما يتسلطان على الأمراض الوافدة إليهم، وهما شيطان أبيض طويل، والآخر أسود قصير، يُصنعان من الخشب مجوّفين، يمكث في كل منهما رجل يطوف به في الشوارع في أوقات معلومة لدفع تلك الأمراض الوافدة إليهم...

4 ـ حكماء الطاوية:

(أ) لاوتزو **Laotzu** هو مؤسس الطاوية، ولد عام (604 ق.م) في الصين أي قبل ولادة كونفوشيوس (551-479 ق.م) بأكثر من خمسين سنة، تولى بعض الأعمال في حداثته فكان من جملة الكتبة أو أصحاب السجل في مجلس الملك «تشاه». يدوّن له القصص والتواريخ وكان مسؤولاً عن المكتبة الملكية برمتها، يطالع فيها من الكتب ما يريد، فقد أمضى قسماً من حياته كمؤرخ، وكأمين على الارشيف الرسمي في «لويانغ» عاصمة أسرة «تشو». ولما نضج رأيه دوّن تعاليمه التي أخذت شكل الديانة في أواسط القرن الثاني للميلاد، وقد اعتزل في آخر

حياته وعكف على حياة الزهد، والتأمل الفلسفي، ويعدّ لاوتزو مؤلف أعظم كتاب قرىء خارج الصين وهو كتاب الطريق والفضيلة «طاوتي ـ كنغ». كان لاوتزو متصوفاً يحب المتناقضات، وكان يدعو في فلسفته إلى القناعة والزهد والتسامح المطلق ومقابلة السيئة بالحسنة على عكس كونفوشيوس الذي كان يدعو إلى طريق لا إفراط فيه ولا تفريط، ومقابلة السيئة بسيئة مثلها. . ولم يؤمن بالعمل الحكومي كوسيلة لإسعاد الشعب كما لم يؤمن بالعقل والتفوّق العقلي مثل كونفوشيوس. وكان يقول دوماً «دعوا العقلانية، وتخلّصوا من الحكمة، ففي تركها سعادة البشرية». . فهو يرى أنه إذا تخلى الناس عن الدراسة والتعلم قلّ عدد اللصوص والمنحرفين في المجتمعات، وهو لا يعني من ذلك أنه ضد التعلّم أو العلم ولأنه كان يؤمن بأن الإنسان طيّب بفطرته. وأن فطرته الطيبة تغنيه عن وجود مؤدّبين أو مربّيـن. ومن أقواله: «إنّ من يقهر رغبات نفسه فهو إنسان جبّار».

ويقول كذلك: «تواضع، فإن تواضعك سيرفعك إلى أعلى المراتب». وهناك خلاف حول ما إذا كان لاوتسي شخصية تاريخية حقيقية أم أنه مجرد خرافة أو أسطورة. وكان بين فلسفته الخلقية وفلسفة كونفـوشيوس خـلاف قومي. . يرى لاوتسي أن الخير ليس في محاولة إصلاح المجتمع الفاسد بالعمل والنشاط والدعوة بل الخير كل الخير في الزهد والاعتزال واللامبالاة.

ويردّ عليه كونفوشيوس الشّاب يحاوره قائلاً: «إذا كان واجب كل فرد من أفراد الأمة أن يعتزل في كهف من الكهوف، فمن الذي يبقى في المدن يعمّرها؟ وفي الأرض يفلحها ويزرعها؟ وفي الصنائع يمهر فيها؟ ومن الذي يعمل ليبقى الكون عامراً ببني الإنسان؟ وإذا كان الاعتزال مقصوراً على الحكماء والفضلاء فمن الذي يربّي الإنسان ويؤدبه؟ أم أن الناس يُتركون حائرين بلا هادي ولا مُرشد؟».

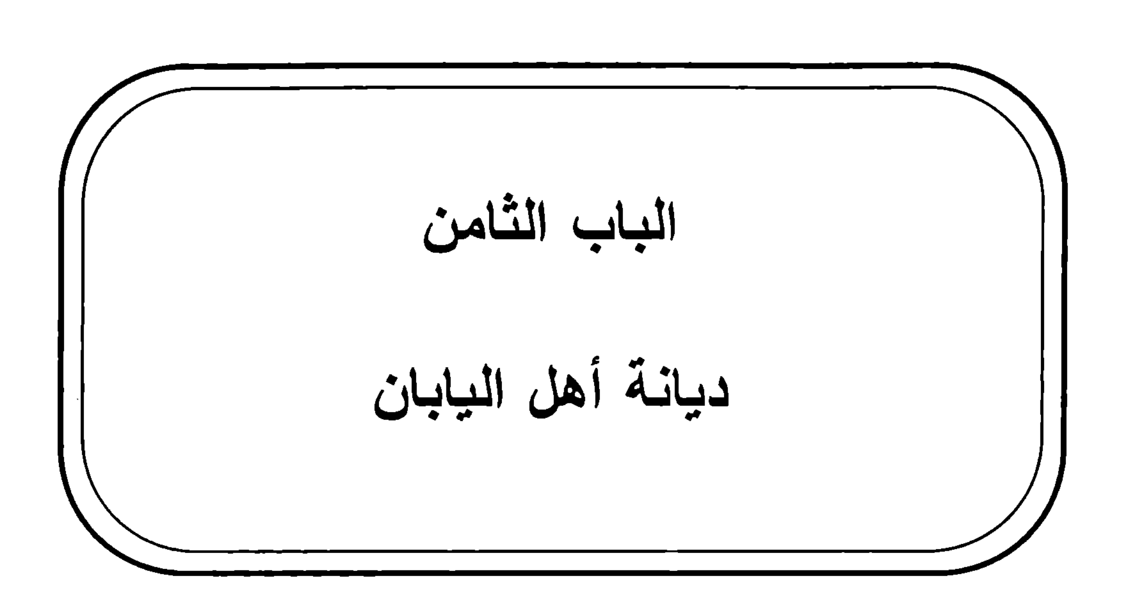
كما اختلفا في أسس المعاملة بين الناس، يقول لاوتسي: «إن الصفح والعفو هو ما يجب أن يعامل به المسيء».

ويقول كونفوشيوس: «إن المسيء يُعَامل بالعدل، ولكن ليس من العدل العفو عن سيئاته بل يجب أن يؤخذ بجريرة أعماله، فالمسيء لا يُعفَى عنه ولكن يُعدَل معه، لا يظْلِمُ ولا يُظلمُ ومن أشهر فلاسفة مذهب الطاويّة «تشانغ تسي» الذي عاش في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، اشتهر بأسلوب أدبي جميل، وكان يؤمن بالتناقض، وخاصة التناقض بين الصواب والخطأ وبين الخير والشر، والحياة والموت، وغير ذلك. وقد حلم ذات مرة بأنه فراشة فتساءل في نفسه: هل هو حقاً رجلٌ حَلِمَ بأنه فراشة؟ أم أنه فراشة حَلِمَت بأنها رجل؟ واشتهر كذلك فيلسوف آخر من الطاوية هو «هوى تزو» (370-319 ق.م)...

وقد كتب كتباً كثيرة، وكان له آراء غريبة جداً، فهو يقول مثلاً: «إن البيضة يجب أن يكون لها ريش، لأنها حينما تصبح دجاجة يظهر لها ريش».

ويقول: «إن النار ليست حارّة، وإنما أجسامنا هي الحارّة، وإنه لا نهاية للشيء الذي نقسمه إلى أنصاف». وغير ذلك من أمور غريبة وعجيبة...

* * *



الباب الثامن

ديانة أهل اليابان

1 ـ الشنتوية:

وهي الدين الأصيل في بلاد اليابان، وتعني كلمة الشنتوية: «الطريق إلى الآلهة» وهي تقوم على تقديس أرواح الأبطال، والأباطرة، وتقديس قوى الطبيعة.. وليس لها مؤسس ولا عقيدة، ولا تعاليم مكتوبة، ومع ذلك فقد عاشت طويلاً في اليابان قبل دخول البوذية إليها في القرن السادس الميلادي، حيث اندمجت بها، ثم استقل عنها ثانية..

والشنتوية ديانة البلاط والدولة، وقد كانت في أدوارها الأولى نوعاً من عبادة الأرواح ولكنها تقلصت من تطور الأديان، ومع ذلك بقي كثير منها عالقاً في أذهان العامة من اليابانيين، فهي تظهر بوضوح في التعاويذ الخشبية أو الورقية التي تعلّق فوق أبواب المنازل، أو قطع القماش التي ترفرف فوق الآبار، أو الأشجار المقدسة، أو حبال القش التي تتدلّى فوق أبواب الهياكل، وعلى اليابانيين استرضاء هذه الأرواح..

ومن مميزات الشنتوية: عبادة الأسلاف، فاليابانيون يؤلهون الآباء والأجداد، ويبنون لهم الهياكل ويقدمون لهم الذبائح، وكانوا يؤلهون أيضاً الحيوان والنبات، كما كانوا يعبدون قوى الطبيعة كالنار والرياح والأجرام السماوية، والأنهار والصخور والشلالات فهم يؤمونها في مواسم معينة ويتقربون

2 ـ عبادة الميكادو:

الميكادو هو زعيم قبيلة «يماتو» التي كانت أشد القبائل إحياءً لاحترام السلف وتقديرهم، والتي صار رجالها سادة اليابان فيما بعد. وكان الميكادو زعيمهم، ومركـز دينهم، ومحور عبادتهم، ويزعمون أن الشمس تمت إليهم بصلة القربى. ومنها انحدر الميكاد وعـدّوه ممثل الشمس وآلهة السماء على الأرض، وقد ألهوا بعض آباء الميكادو، وشبهوه بالشمس، وبنوا له هيكلاً خاصاً، وجعلوا أخته كاهنة له. وأصبح بناء الهياكل للآباء سنّة عند اليابانيين منذ ذلك الحين. وصار لكل هيكل كهنة وسدنة خاصة به يكون من أعوانه أو من أعقابه. وهم يعدّون الامبراطور والدولة كل شيء في حياتهم.. وكثيراً ما يضحّي الياباني بنفسه في سبيل الامبراطور، ويعدّون هذه التضحية شرفاً عظيماً لهم، وتُعدّ عبادة الامبراطور من المظاهر البارزة ومن القواعد الأساسية في ديانة اليابان. ولا يخلو بيت من بيوتهم من مذبح عليه تماثيل لبعض السلف، تقدم لها العبادة في كل حين، وبقيت كذلك حتى الحرب العالمية الثانية حيث صدرت قرارات بتعطيل عبادة الامبراطور، وحاولت القضاء على الوطنية المتطرفة التي تغـرسها الشنتـوية في نفـوس اليابـانيين.. وقد اعتقـد اليابـانيون بتقـديس الامبراطور، فهم يعدونه أباً للشعب، ويخلصون له كل الإخلاص، ويدينون له بالولاء، ويعود أساس تقديسه وتأليهه إلى اعتقادهم بأن جده الأول نزل من السماء ليحكم البلاد.

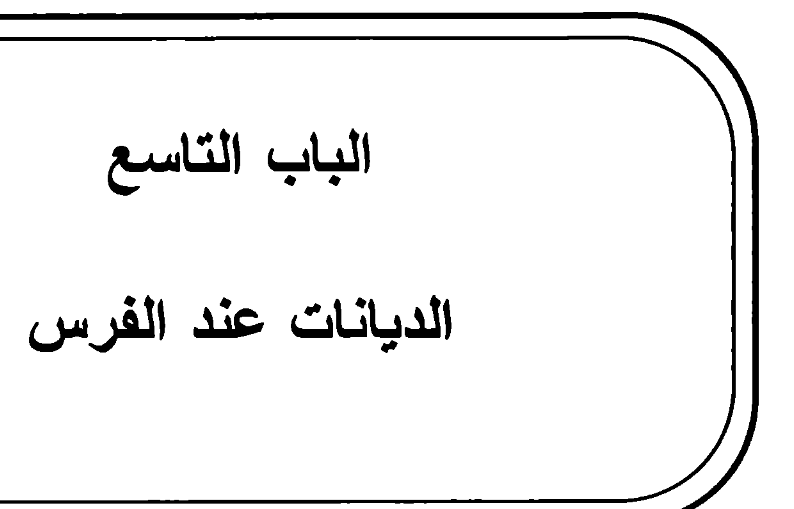
تقول إحدى الأساطير اليابانية: «عندما تكونت بلاد اليابان وهي أول بلاد خلقت على سطح الأرض أرسلت آلهة الشمس (وهي ابنة الآلهة الذين خلقوا السموات والأرض) أرسلت حفيدها من السماء ليحكمها، قائلة له: «هذه البلاد سيكون أحفادي فيها سادة إلى الأبد، وأرجو لها البقاء ما بقيت الأرض والسماء» فنزل الحفيد إلى اليابان وفي صحبته حاشية كبيرة، واتخذ له مكاناً مختاراً بجبل «تاكاشيمو» جنوب جزيرة كيوشيو. وهناك وُلد حفيده الرابع «جيمو» فكان أول امبراطور وُلد في أرض اليابان ونشأ فيهـا، وتمكن من تأسيس الامبراطورية وحكمها، واعتلى عرشها سنة (660 ق.م) وهي أقدم أسرة حاكمة في العالم،

فقد جلس على العرش من أبنائها (125) امبراطوراً، كان آخرهم الامبرطور الحالي الذي تسلّم الحكم بعد وفاة أبيه الامبراطور «هيرو هيتو» عام (1989 م).

ويعدّ الامبراطور رمز الدُولة ووحدة الشعب.. وفي بيان صادر عن وزارة المعارف اليابانية عام 1937 جاء فيه: «إن أرضنا بلد إلٰهية يحكمها الامبراطور، وهو الإلٰه».

3 ـ الكونفوشيوسية في اليابان:

دخلت كتب كونفوشيوس وتعاليمه المكتوبة إلى اليابان عن طريق الصين حوالي سنة (405 م) بواسطة شخص كوري اسمه «وانفين»، وقد انطبعت أخلاق كونفوشيوس وتعاليمه على الإنسان الياباني.. وتكاد تكون فلسفته وتعاليمه دستوراً غير مكتوب. بحكم تصرفاتهم ويؤثر في نفوسهم.. فالصغير يحترم الكبير، والمرؤوس يحترم رئيسه. والمرأة تحترم زوجها جداً، والعلاقة بين الجميع قائمة دائماً على أساس الاحترام المتبادل والحب الأخوي. والارتباط الأسري الذي لا يزال قوياً بين الآباء والأبناء، بين السلف والخلف في الأسرة اليابانية.



الباب التاسع

الديانات عند الفرس

الفصل الاول

الديانة القديمة:

عبد الفرس قديماً مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر والنار والماء والريح والعاصفة والخير والشر. وأولوا عُنصري النار والنور اهتماماً خاصاً. والملاحظ أن ديانتهم كانت تقوم على مبدأ التناقض بين فكرتين، فقوى الطبيعة إما أن تدر الخير أو تبعث الشر. وكانت الآلهة المتعددة هي عماد ديانتهم إلى أن ظهر فيهم زرادشت نبي المجوسية في القرن السابع قبل الميلاد، فوجدهم يعبدون الحيوانات، ويعبدون أرواح السلف كما يعبدون الشمس والقمر أيضاً. وكان من أكبر الآلهة في الدين الآري السابق لزرادشت:

الإلٰهة مترا Mitra: إلٰهة الشمس وقد أخذها عنهم الرومان فيما بعد..

الإلٰه أنيتا Anita: إلٰه الأرض والخصب والثروة..

الإلٰه هوما Homa: الثور المقدس الذي مات ثم بعث حياً ووَهَبَ البشر دَمَهُ شراباً ليسبغ نعمة الخلود..

وكان الإيرانيون القدماء يتصورون أن العالم مليء بالشياطين التي تناصب البشَر العداء وأن هناك كائنات روحانية تضفي على البشر الخير والبركات. واقترنت تلك الكائنات عند الإيرانيين بالنور مثل ما اقترنت الشياطين بالظلام

وكان النور والظلام ظاهرتين طبيعيتين اقترنا بالخير والشر عندهم.

وكان المجوس وهم الكهنة الذين يعبدون هذه الآلهة البدائية، يقدمون لها القرابين ويصلون لها. حتى جاء زرادشت واستنكر عليهم عملهم هذا وثار عليهم.. وأعلن أن العالم كله هو «أهورامزدا» إله النور والسماء. وهذه دعوة التوحيد... وقد آمن به الملك داريوس، واعتنق مذهب الزرادشتية الجديد، وحارب الكهنة المجوس أصحاب العبادات القديمة وجعل الزرادشتية دين الدولة فانتشرت انتشاراً عظيماً.. وتدور الماجوسية كلها على قاعدتين هما: بيان سبب امتزاج النور بالظلمة. وبيان سبب خلاص النور من الظلمة.. فالنور والظلام جوهر الدين الجديد.

الفصل الثاني

الديانة الزرادشتية

" المزدية "

1 ـ مبادىء وتعاليم:

تطورت عقائد الفرس بعد القرن السادس قبل الميلاد، فترفعت عن المادة وعبادة قوى الطبيعة، وانتقلت إلى طور الروحانيات، وانصرف مجوس فارس إلى إحلال إلٰه النور «آهورا ـ مازدا» أو «أرمزدا» أي السيد الحكيم في المرتبة الأولى عندما استبدل زرادشت تلك العقائد الآرية المتعددة بدين جديد أسهل فهماً، وأكثر وضوحاً، عرف فيما بعد باسم «المزدية». تمتاز هذه الديانة ببساطة طقوسها ومراسمها فلا هياكل ولا معابد ولا أنصاب، بل مذبح حجري منصوب في العراء يضرم عليه الكهنة النار، وينصرف المتعبدون للصلاة ويحتسون شراباً مسكراً، فيغيبون في نشوة مقدسة، وقد لاءمت هذه الديانة ببساطة مظهرها طريقة العيش الساذجة في بلاد صحراوية «كإيران».

تقوم أسسها على وجود إلٰهين متناقضين متنازعين: إلٰه الخير، إلٰه الشر. وبناء عليه فقد قسّم زرادشت جميع الأشياء الموجودة في الكون إلى نوعين متضادّين هما: الخير والشر. وأطلق على إلٰه الخير اسم «أهورا مزدا» وعلى إلٰه الشر اسم «أهريمان»، إن التثنية اختصت بالمجوس حتى أثبتوا هذين الأصليين القديمين المدبرين. . وقد دعا زرادشت الناس إلى حب الخير وفعله للتغلب على الشر بشكل دائم، واعتبر النور خيراً، والظلمة شراً، وبما أن الشمس هي

أكبر وأعظم مصدر للنور فيمكن اعتبارها رمزاً لإله الخير.

عندما جاء زرادشت في أواسط القرن السادس قبل الميلاد وحاول تشذيب المعتقدات والطقوس المزدية فقد حمل بشدة على النشوة المقدسة، ولكنه أبقى على مذابح النار ثم انتقل إلى إصلاح جوهر العقيدة، فقال بوحدانية «أهورامزدا» واعتبر أن سائر الآلهة ليسوا إلّا أرواحاً للخير والشر دائمة الصراع والتناقض حتى تمّ إعلان انتصار أهورا مزدا وأنصاره على أرواح البشر جميعاً. . . وقد ادّعى بأن وحي الديانة الحقيقية قد نزل عليه فجمع تعاليمه في كتاب سمّاه «الأفستا». ويعتقد زرادشت أن طريق الإيمان الكامل والسبيل الوحيد إلى الإله الواحد هو: «الاعتقاد الطيب والكلمات الطيبة والأعمال الطيبة» وقد انتقل بالدين إلى مرحلة التطبيق الأخلاقي، فحمّل الإنسان مسؤولية أعماله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وهو لا يعتبر أن الإنسان مجرد أداة تتحرك بلا إرادة في الصراع الدائر بين الخير والشر، وإنما له إرادة حرة. . والمفروض أن ينقاد لأعمال الخير فيساعد «أهورامزدا» في القضاء على خصمه «أهرمان»، وهو يطلب من الإنسان أن يجعل هدفه في الحياة مكافحة الأرواح الشريرة فلا ينقاد إلى غوايتها، وأن يحافظ على الطهارة والنظافة ولما كانت التقوى أعظم الفضائل على الإطلاق فعلى الإنسان قبل كل شيء أن يعبد الله ويتقرب إليه بالطهر والتضحية والصلاة. يقول زرادشت وهو يحاور كبار كهنة الملك «كتشاسب» شارحاً مبادىء دعوته وتعاليمها: «لم أجىء لأبشر بعقيدة ولكن لتحسين عقيدة قديمة. والذي أعلمه هو حقيقة الخالق، وهو لهذا خير. أما عبادتكم الأصنام فليست حقاً وهي من أجل ذلك شر».

وقد أوضح زرادشت أن الآلهة المتعددة كالشمس والنار والنجوم والجبال وغيرها بأنها ليست آلهة زائفة فحسب، بل قال إنها ليست آلهة على الإطلاق وهي جميعها من صنع الخالق.

تقول الأوفست: إن على الإنسان واجبات ثلاثة هي «أن يجعل العدو صديقاً وأن يجعل الخبيث طيباً وأن يجعل الجاهل عالماً». ويحض دين

زرادشت على التقوى والشرف والأمانة، ويحرم الربا ويجعل الكفر رأس الخطايا، وكان يهدف دائماً إلى تهذيب الأخلاق والتمسك بالخير والعمل الصالح. وهذا هو العهد الذي يتخذه الزرادشتي على نفسه كما ورد في أوفستا:

«لن أقدم على سلب أو نهب، ولا تخريب أو تدمير، ولن آخذ بالثأر، وأقر بأني أعبد الإله الواحد أهورامزدا، وأن أعتنق دين زرادشت وأقر بأني سألتزم التفكير في الخير والكلام الطيب والعمل الصالح».

ويحث زرادشت أتباعه على أن يقاتلوا في سبيل الإله الحكيم باتباع الخصال الست التالية:

1 ـ طهارة الفكر والقول والعمل.
2 ـ النظافة والبعد عن كل دنس...
3 ـ الإحسان بالعقل والقلب.
4 ـ الرفق بالحيوانات النافعة...
5 ـ القيام بالأعمال النافعة.
6 ـ تعليم من لم يتيسر لهم ذلك ومساعدتهم.

ومن يتبع هذه التعاليم يسلك سبيل الإله الحكيم الواحد الأحد. وقد دعا زرادشت الإنسان إلى أن يختار بين أن تكون له روح خيّرة تملأ نفسه بالخير والنور. أو أن تكون له روح شريرة تميل إلى الشر والظلام.. واعتبر أن الإنسان سينال جزاءه في الآخرة بمقدار جهاده لنصرة الخير على الشر والنور على الظلمة.

وتتلخص تعليمات زرادشت بمبدأين هما:

1 ـ أن للعالم قانوناً ثابتاً يسير عليه وله ظواهر طبيعية ثابتة.

2 ـ أن الكون كله خاضع لصراع بين الخير والشر.

وهو يؤمن أن أفضل الفضائل عنده الطهر والأمانة وهما اللذان يقودان الإنسان إلى الحياة الخالدة وبعد وفاة زرادشت، انتعشت الديانة الزرادشتية في

عهد الأسرة الساسانية (226-651 م). ثم أخذت تتضاءل في ظل الدولة الفارسية عاماً بعد عام. حتى جاء الفتح الإسلامي الذي حطم امبراطورية الفرس تماماً بعد معركتي: القادسية 636 م ونهاوند 641 م. وقضىٰ عليها القضاء الأخير إلا من بعض العشائر قليلة العدد في بلاد فارس. وبعض البارسيين في بلاد الهند. الذين لا يزالوان مخلصين لتعاليم الكتب الزرادشتية المقدسة ويحفظونها..

وقد انقسم أتباع المجوسية إلى فرق دينية عديدة، تختلف فيما بينها بعض معتقداتها، من هذه الفرق الكيومرتية. الزروانية. السيسانية[1].

2 ـ زرادشت «المؤسس»[2] (660-580) ق. م:

هو زرادشت بن بورشب بن فذراسف بن أريكدسف بن هجدسف بن حميش بن باثير بن أرحدس بن هردار بن أسبيمان بن واندست بن هايزم بن أرج بن دورشرين بن منوشر الملك.

وكان من أهل أذربيجان يقال له «زراثوسترا»، وهو مؤسس الديانة الزرادشتية. ظهر من زمن كشتاسب بن لهراسب الملك، وكانت أمه «دعذويه» من بلاد الري وهو نبي المجوس، الذين أتاهم بالكتاب المعروف بالزمزمة عند العوام من الناس. واسمه عند المجوس بستاه أو «الأوفستا» ولم تعرف حقيقة تاريخه بالضبط.

(أ) نشأته وحياته:

تذكر روايات التاريخ أنه منذ أن ولد الصبي بدأ «دوران سرون» كبير السحرة ونائب الملك في مقاطعة يرتعد فرقاً لأنه علم بولادته وأنه سيكون له شأن كبير في محاربة الأصنام وطرد السحرة والكهنة من حميع البلدان.. تمكن «دوران سرون» من إحضار الصبي بوساطة ثلاثة من سحرته، ووضعه وسط النار

---

(1) انظر الملل والنحل للشهرستاني.

(2) مروج الذهب للسعودي.

على المذبح وتركه وانطلق من المعبد مع سحرته معتقداً أن هذه هي نهاية زرادشت الصبي، ولما عادت إليه أمه من بيتها ولم تجده ذهبت إلى معبد النار لتصلي وتدعو الألهة أن ترده إليها. وإذا بطفلها على المذبح يلعب وسط النار بابتهاج وسرور.

ولمّا فشل دوران سرون دبّر خطةً جديدة لقتل الطفل، فوضعه وسط الطريق العام حيث يمر قطيع من الماشية، ولكن الذي حصل أن أول بقرة من القطيع أسرعت نحو الطفل ووقفت تغطيه بجسدها لتحميه من بقية القطيع.. حاول مرة أخرى التخلص من الصبي فوضعه في وكرٍ للذئاب ظاناً أنه إذا لم تقتله الذئاب فسيموت جوعاً، ولكن ما حصل عكس ما توقع كبير السحرة هذا، فلم تجرؤ الذئاب على دخول الوكر، وإنما دخلته عنزتان حلوبتان بغير خوف وبدأتا ترضعانه...

قصص كثيرة قيلت حول زرادشت لذلك توقع له والداه مستقبلاً عظيماً، وقرّرا تعليمه أحسن تعليم وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره أرسله أبوه ليدرس مع «بورزين - كوروس» الحكيم الإيراني المشهور حينذاك، وظل زرادشت برفقته مدة ثمانية أعوام، تعلّم منه خلالها الشيء الكثير. وعندما عاد إلى موطنه ارتدى القميص المقدس، وتمنطق بالحزام رمزاً لتعميده في عقيدة شعبه ثم تطوع للدفاع عن وطنه ضد أعدائه التورانيين. وبدأ بمعالجة الجرحى والمرضى من الجنود استمر في ذلك العمل مدة خمسة أعوام، وبعدها نصحه أبوه بالزواج والاستقرار، وتزوج فعلاً بفتاة اسمها «هافوية». واستمر في خدمة المرضى وعلاجهم وظل يعمل بين الفقراء والمحتاجين مدة عشرة أعوام، محاولاً تخفيف الآلام عنهم قدر الإمكان، وراح يبحث عن مصدر العناء ليجعل الناس سعداء.. قال لزوجته يوماً: «سأذهب بعيداً لأعيش ناسكاً فترة من الوقت. أفكّر خلالها في الخير والشر، فربما تَبيّنتُ مصدر العناء في العالم».

وفعلاً ذهب بعيداً نحو جبل «سابلان» وظل أياماً وشهوراً يفكر فوق الجبل محاولاً أن يفهم سر هذا العالم باحثاً عن مصدر الشقاء والآلام البشرية فيه..

1 ـ المزدكية، وهم أتباع مزدك.
2 ـ الديصانية، وهم أتباع ابن ديصان.
3 ـ المرقيونية، وهم أتباع مرقيون.
4 ـ الجنجين، وهم أتباع جنجي الجوخاني.

ثم الرشيين، المهاجرين، الكشطين، المغتسلة، وغيرهم...

الباب العاشر

ديانة الاوثان عند اليونان

أولاً: مذاهب ومعتقدات يونانية:

يقول «ارستوفانيس» أشهر الكتاب الساخرين في القرن الرابع قبل الميلاد «وما أكثر ما يقدم إلى الآلهة من ضحايا، وما أكثر ما يقام من هياكل وتماثيل، ومواكب مقدسة إنا لنشهد في كل ساعة أعياداً دينية وضحايا عليها أكاليل من الزهر تقرب للآلهة».

ويقول «هوميروس»: إن ديانة الإغريق تكونت من مجموعة كبيرة من العقائد الوثنية، فقد عبد البشر كثيراً من الآلهة التي جعلت على صورة البشر في مرحلة تجسيد الآلهة». وقد استمرت تلك العبادات منذ القرن التاسع قبل الميلاد.

وكان سكان أثينا يقدسون قوى الطبيعة بصور بشرية، اعتقدوا أنها تسكن جبل «أولمب». كما اعتقدوا أن اختلاف الطقس مصدره إله السماء «زيوس» حيث تهب العواصف عندما يغضب الإله ويتحول إلى طقس جميل إذا رضي الإله. وكان عند الإغريق مجموعة أخرى من الآلهة ترجع إلى الفترات البدائية من حياتهم فقد تأثر أهل اليونان بديانات الشعوب التي كانت تعيش في حوض المتوسط، أو تلك التي غزت بلادهم والتي فرضت دياناتها عليهم، لتحل محل

وغامضة، وهي عدة عقائد يكتنفها الغموض، ويستطيع أن يكون سعيداً في الدنيا والآخرة من يتبعها. وتقوم على عبادة الآلهة ديميتر وابنتها كورة. وكانت العبادة تقتصر على النساء في بادىء الأمر على حد قول الأسطورة التي تعود إلى القرن السادس أو السابع قبل الميلاد. تقول الأسطورة: إن كورة ابنة ديميتر أخذها الإله «هادس» بأمر من زيوس إلى عالم الآلام البعيد، فأخذت أمها تبحث عنها حتى وصلت إلى ايلوزس. حيث استقبلها ملكها «كيليوس» الذي اعترف بها «بديميتر» إلهة كبرى. وأقام لها معبداً خاصاً سكنته وأصبحت بعد ذلك الآلهة التي تقدم للأفراد الغلال والخيرات، وتحفظهم من المجاعات. لكن زيوس استاء من عمل ديميتر، وبعث إليها بجميع الآلهة يطلبون منها العودة إلى جبال أولمب لتعيش مع بقية الآلهة هناك، على أن يعيد لها زيوس ابنتها كورة. . . وأعادها فعلاً لأمها تحت اسم «بيرسيفونيا». فازدهـرت الأرض وأخضرت، وأصبحت الآلهة ديميتر وابنتها كورة إلهتي عام الآلام والخصب.

وقد علمتهم ديميتر أصول الزراعة وطرق تحسينها. . ومن المعلوم أن الاغريق اقتبسوا معبودتين من سورية هما: أدونيس وعشتاروت. وأخذ من مصر عبادة ايزيس، وشيدوا لها معبداً في أثينا والإله آمون الذي شيد له معبد في بيوشيا.

وبالرغم من أن حكومة أثينا أشرفت على العبادات الدينية من حيث حمايتها وتأمين ممارستها بحرية تامة. إلا أنها لم تسنّ القوانين الدينية لاتباعها في أثينا، ولم تكن لها نصوص مقدسة معروفة ولم يشكل الكهنة فيها طبقة مستقلة كما كانوا في مصر وبلاد الرافدين.

ثانياً: الآلهة المتعددة في بلاد الإغريق:

يتوزع آلهة اليونان جغرافياً إلى ثلاث مجموعات:

1 ـ آلهة جبال الألمب: أشهرها: (شكل 27).

* زفس (زيوس): وهو إله السماء والرعد والصواعق، تلازمه على جبل

أولمب أسرته المشكلة من زوجته وأبنائه الثلاثة وبناته الثلاث. .

* هيرا: ربة القوى المنتجة في الطبيعة. وهي زوجة زفس الشرعية وشقيقته.

* اريس: إله الحرب (المريخ) وعشيق افروديت، وابن هيرا وزفس. .

* ابوللو: إله الفنون والموسيقى والشعر وهو ابن زفس، وسهام قوسه لا تخطىء. .

* هيرمس: رسول زفس، وسيد الرياضيين، وإله التجّار والمسافرين. .

* افروديت: ربّة الجمال والحب، وتسمى (الزهرة)، خلقت من زبد البحر. .

* أثينا: ربة الحكمة والحساب والذكاء، وهي على صورة عذراء ذات عينين براقتين، على رأسها خوذة، وعلى صدرها سلاح لامع، وهي ابنة زفس ولدت من رأسه. .

* ارتيميس: تمثّل بالقمر، وهي ربة النور الليلي، وإلهة الصيد والغابات لم يترك لها شغفها بالحيوانات مجالاً لحب الرجال. .

* هيفا يستوس: ابن زفس وهيرا، ألقى به أبوه من أعلى جبل أولمب في إحدى ساعات غضبه، فصار أعرجاً، وهو إله النار والحدادين. وزوج غير كفء لأفروديت. .

2 ـ **إلهة الأرض وجوفها**: وعلى رأسهم:

* هيريز: شقيق زفس، يحكم على جوف الأرض، وعالم الأموات. .

* ديميتر: شقيقة زفس، وإلهة الزرع والثمار، تتمثل فيها الأرض الأم. .

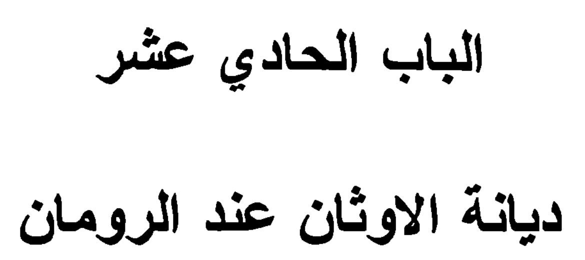
* ديونيسيوس: إله الخمر، تحتفل النساء في عيده بالسكر والنشوة. .

3 ـ **آلهة البحار**: وأهمهم:

* بوسيدون: إله المحيطات والبحار والزلازل، وشقيق زفس، تتفتح أمامه

أبواب البحار. . عربته وخيوله البيضاء تثير زبد البحر. . يعصف في الأصداف فيدوّي صوت الأمواج. . كل هذه الآلهة العديدة في بلاد اليونان، كان يتم تكريمها ببناء المعابد لها، لممارسة الطقوس الدينية التي تتخذ شكل مواكب وأناشيد وصلوات، وخاصة تقديم القرابين الثي تشمل على تقديم حيوان مكلّلة بالزهور أو الفاكهة لهذه الآلهة. . وكان الكهنة يذبحون القربان الذي يحرق جزء منه فوق الهيكل حيث يعتقدون أن الإله يأكل هذا الجزء. . والباقي يأكله الكهنة والمتعبدون وكانت تقام أعياد خاصة حسب المواسم. ومنذ عام (776 ق. م.). اقترنت الأعياد الدينية بألعاب رياضية، أصبحت تقام كل أربع سنوات في منطقة أولمبيا، تكريماً للإله زفس، تستمر خمسة أيام، تشمل كل بلاد اليونان. . توزع في نهايتها الجوائز على الفائزين. .

ولا تزال هذه التقاليد حتى أيامنا هذه، حيث تقام مرة كل أربع سنوات في بلد من بلدان العالم. . لقد استمرت الوثنية في بلاد اليونان بآلهتها المتعددة، حتى ظهرت الديانة المسيحية التي قضت عليها. . حيث تولى القدّيس بولص التبشير بالمسيحية لأهل أثينا، ومن بعدها عمّت المسيحية أرجاء اليونان. . . .



الباب الحادي عشر

ديانة الاوثان عند الرومان

والزواج والأمة ويعتقدون أن الزواج في شهرها زواج سعيد. .

* **فينوس (الزهرة) Venus**: وهي ربّة الشهوة والزواج والأخصاب وشهرها هو شهر نيسان وفيه تتفتح الأزهار. . .

* **ديانا Diana**: وهي آلهة القمر والنساء، والولادة والصيد والغابات ووحوشها. . .

* **مينرفا Ninerva**: وهي ربّة الحكمة والذاكرة والحرف اليدوية والفن. . وتعدّ ربّة المفكرين والعمال الحرفيين. . وعند الرومان آلهة أخرى ثانوية منها:

* **عطارد Mercury**: حامي التجار واللصوص. .

* **هرقل Hercules**: إله الخمر والأفراح. .

* **آبس Aps**: إلٰهة الثروة والإنتاج. .

* **بلونا Bellona**: إلٰهة الحرب والدمار. . .

ثالثاً: الكهنة الرومان:

كان للكهنة دور عظيم في سياسة الدولة حيث ساعدوا السلطات الحاكمة في تدعيم الحكم وتثبيته، وكان يرأسهم الكاهن الأعظم أو الحبر الأعظم الذي يختاره المجلس المئوي، وقد كانت المنفعة متبادلة بين الكهنة والحكام الذين كانوا يغضون النظر عن الثروة التي تتنامى لدى الكهنة نتيجة النذور والأوقاف والهبات العينية والنقدية. . أما الكاهنات فقد ألّفن مجمعاً خاصاً بهنّ وأوكلن إليهنّ أمر إيقاد الشعلة الخالدة في الهيكل فإذا انطفأت عوقبت الكاهنة بوأدها حيّة. .

ومن أهم فئات الكهنة: العرافون التسعة الذين يتمكنون من الوقوف على رغبات الآلهة ومشيئتها بزجر الطير، وبالتدقيق في أحشاء الضحايا أو القرابين التي تُقَدّم للآلهة. .

رابعاً: الأضاحي والقرابين:

كانت تقدم هذه الأضاحي للآلهة لكسب رضاها، ولدفع أذاها وغضبها، وكانت تقدّم بطقوس دينية، تُتلى فيها صلوات خاصة على الأضحية ليتقبلها الإله. وتقتصر عملية تقديم الأضحية إلى الإله على حرقِ أحشائها على المذبح ثم يأكل الكهنة، والأفراد ما بقي منها. . وكان بعض الأفراد يضحّون بأنفسهم للآلهة أو يضحّى بهم لها، واستمرت هذه العادة حتى صدر قانون سنة (97 م) بتحريم ذلك. . . .

أولاً: عقائد ومبادىء رومانية:

يقول وول ديورانت: إننا لا نعرف قط ديناً يبلغ فيه عدد الآلهة ما بلغه عند الرومان. ويقدرها «فارو» بثلاثين ألفاً، ويشكو بترونيوس من أن بعض المدن الإيطالية كان فيها من الآلهة أكثر مما فيها من الرجال فالرومان عبدوا أعداداً كبيرة من الآلهة، تعددت بتعدد مظاهر الطبيعة، التي تتجلّى أوامر آلهتهم ونواهيها، وقد اقتبسوا بعض أسماء الآلهة وخواصها من المصريين القدماء، فعندهم ايزس أويزارس وهيراميس، وهي تشبه الوثنية اليونانية إلى حد كبير..

وقد ترسّب في ديانة الرومان الوثنية بقايا من الديانات القديمة البدائية، كعبادة قوى الطبيعة وعبادة الأشياء «الفيتشية»، وهي عبارة عن عبادة شيء ما على شكل جسد تقمصته روح، والطوطمية التي كانت تعبدها القبيلة بأجمعها وهي تشبه الفيتشية. كان الرومان يؤمنون بالسحر والتمائم، ويعتقدون بأنها تدفع الأذى، وتحمي الإنسان من الشر، وتشفيه من الأمراض وكانوا يستسقون الغيث بوساطتها، ويلتمسون من الآلهة النصر على الأعداء، وكان الرومان يحيطون بعض الأمور بالقدسية، وكذلك بعض الأماكن والأشخاص أيضاً، وخاصة الوليد حتى يكبر، والمرأة في الطمث حتى تطهر، والمجرم إذا ثبتت إدانته، فهؤلاء الأشخاص مثلاً يقدَّسون ولو لفترة محدودة، وكان الرومان يؤمنون بالطيرة والفأل والخوارق والمعجزات.

الباب الثاني عشر

العرب قبل الاسلام في الجزيرة العربية

1 ـ لمحة تاريخية:

سكنت في الجزيرة العربية أقوام عديدة، فمنهم من أقاموا في بلاد اليمن، التي كانت تشمل من الوجهة الجغرافية الجزء الجنوبي من جزيرة العرب وأطلِق عليها اسم عرب الجنوب. أو العرب العاربة أو البائدة ومعظم هذه الشعوب التي أقامت هناك قد أسست حضارات سادت ثم بادت، وازدهرت فترة ثم اندثرت، وهاجرت شعوبها الباقية إلى مواقع أخرى، ولم يبق فيها إلا بعض آثارها. منها: عاد، ثمود، معين، سبأ، العمالقة، طسم، جديس، أميم، عبيل، جرهُم الأولى، وغيرها.

ومن المتفق عليه تاريخياً أن جميع قبائل العرب البائدة هذه هي من أولاد إرم بن سام بن نوح[1]. ويرجع سبب هلاك هذه القبائل واندثارها إلى كوارث طبيعية نزلت بها، أصابها الله تعالى بها بسبب سوء أعمالها وتحدّيها لقدرته، فحلّ بها غضب الله على شكل عواصف رملية، أو براكين أو هزات أرضية، أو جفاف، وما إلى ذلك.

وقد وردت أخبارهم في القرآن الكريم أو في الحديث الشريف أو في كتب الأدب القديمة.

---

(1) العرب واليهود في التاريخ ـ أحمد سوسة.

ابن أخيه، ثم افترقا لخلاف حصل بينهما، قال إبرام: اعتزل عني فإن ذهبت شمالاً فأنا يميناً وإن يميناً فأنا شمال»[1].

فاتفق رأي إبراهيم مع لوط على الافتراق في إقامتهما حفظاً لعلاقة المودة وصلة الرحم. عاد إبراهيم من مصر ومعه دواب وعبيد وأموال ورزق كثير وقد أعطاه فرعون «هاجر» القبطية وهي أميرة أسيرة كانت عند فرعون، وقد اتخذها زوجة له فيما بعد، وهي أم إسماعيل عليه السلام.

وأقام لوط في سدوم وعمورة وأقام إبراهيم حيث كان من أرض كنعان. وقد دخل إبراهيم بهاجر بناء على تعليمات سارة زوجه التي كان عجوزاً عاقراً، رغبة في البنين والذرية فولدت له هاجر ابنهما الأول والبكر إسماعيل عليه السلام الذي بعثه الله نبياً مرسلاً.. وكان الأمر من الله ولحكمة منه أوحى إلى إبراهيم أن يترك ابنه إسماعيل وأمه هاجر بالفلاة فتوجه بهما إلى أرض مكة فوضعهما في مكان البيت العتيق وابتعد عنهما زمناً.

وكان يأتي إبراهيم مراراً من فلسطين لزيارتهما حيث أمره الله في آخرها برفع قواعد البيت وبناء الكعبة، واستعان لذلك بابنه إسماعيل ورفعا معاً قواعد البيت وبنيا الكعبة في مكة المكرمة. وطلب إبراهيم من ربه أن يجعل أفئدة الناس تهوي إليهم في بيت الله الحرام، وفي كل عام يهرع إلى مكة الملايين من البشر من كل حدب وصوب لزيارته، وهذه إرادة الله ومشيئته...

قال تعالى: ﴿**ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة، فاجعل أفئدةً من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون**﴾[2]. صلوات الله وسلامه على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، أبي الأنبياء، خليل الرحمن، رافع قواعد البيت مع ولده إسماعيل، أول من دعي حنيفاً مسلماً، واضع ملّة إبراهيم، الداعي إلى الله بالهداية أن يجنّبه وبنيه عبادة الأصنام.

---

(1) التكوين: الاصحاح 13.
(2) سورة إبراهيم، آية: 37.

وقد توفي عليه السلام في فلسطين عن عمر يناهز 175 عاماً، ثم دفنه ولداه إسماعيل وإسحق في مغارة المكفيلة حيث دفنت زوجه سارة من قبل، في قرية أربع في حبرون وهي مدينة خليل الرحمٰن اليوم.

(د) حريق إبراهيم:

لقد كان كُرْه الكلدانيين (قوم إبراهيم) شديداً لإبراهيم لأنه منعهم من عبادة آلهة آبائهم وأجدادهم، ودعاهم إلى عبادة الإلٰه الواحد، فأرادوا التخلّص منه بحرقه في النار، فجمعوا الحطب الكثير لذلك، وكانت المرأة من الكلدانيين تنذر إذا مرضت لتحملن الحطب لحريق إبراهيم لئن عوفيت. وتأججت النار فعلاً، وعلا شرارها، وجاؤوا بإبراهيم ووضعوه في كفة منجنيق، كما تذكر الروايات، صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له «هزن» وكان أول من صنع المجانيق فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة. ثم أخذوا يقيّدونه ويكتفونه، وهو يقول: لا إلٰه إلا أنت سبحانك، لك الحمد، ولك الملك، لا شريك لك. فلما وضع في كفة المنجنيق مفيداً مكتوفاً، ثم ألقوه إلى النار، قال: حسبنا الله ونعم الوكيل.. روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لما ألقي إبراهيم في النار قال: اللهم إنك في السماء واحد، وأنا في الأرض واحد، أعبدك» لقد كان إبراهيم واحداً يعبد الله وحده ولكنه كان أمّة بكاملها بعقيدته وإيمانه.. جاء في التوراة أنه عندما خاطب الرب إبراهيم وأنجاه من النار قال له: «أنا الرب الذي أنجيتك من نار الكلدانيين لأجعل هذه البلاد لك ميراثاً».
وجاء في القرآن الكريم: ﴿**قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم**﴾[1] وعن أبي هريرة أنه قال: أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم، إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال نعم الرب ربك يا إبراهيم... روى ابن عساكر عن عكرمة أن أم إبراهيم نظرت إلى ولدها فنادته يا بني إني أريد أن أجيء إليك، فادع الله أن ينجيني من حر النار حولك، فقال: نعم، فأقبلت إليه لا يمسها شيء من حر النار، ولما وصلت إليه عانقته وقبلته ثم عادت.

---

(1) سورة الأنبياء، آية: 69.

ولما شبّ إسماعيل تزوج من امرأة من العماليق وهي عمارة بنت سعد بن أسامة بن أكيل العمالقي، ولكن أباه إبراهيم قد أمره بفراقها من خلال إحدى زياراته إلى مكة، ففارقها وطلّقها، ثم تزوج ثانية من رَعْلة بنت مضّاض بن عمرو الجرهمي، وبقيت معه، وباركها أبوه من خلال زيارة أخرى إلى مكة، فولدت له إثنا عشر ولداً ذكراً[1] وبنتاً واحدة، هم آباء العرب المستعربة اليوم ويقال بأنه تزوج من ثالثة وهي سامة بنت مهلهل بن سعد بن عوف.. وقد جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، ووضعهما هناك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، ثم قفل إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أن تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها. وقالت له: آالله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يضيعُنا الله». وقد شارك إسماعيل مع أبيه في بناء البيت العتيق، بناء على أوامر الله تعالى لإبراهيم، فكان إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يرفع قواعد البيت، وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. وجاء ذكره في التوراة التي قالت: «بأن الله بارك إسماعيل وأكثر نسله»[2]. وجاء كذلك: «وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأثمره وأكثّره كثيراً جداً، اثني عشر رئيساً يلد واجعله أمة كبيرة». ولقد ولد له فعلاً اثنا عشر ولداً ذكراً وبنتاً واحدة هي «محلة» أو «نسمة» زوجة عيسو ابن أخيه إسحق..

عاش إسماعيل مائة وسبعة وثلاثين عاماً، توفي ودفن بالحجر مع أمه هاجر بجوار الكعبة. ويقال إنه مات بفلسطين، كما يشير إلى ذلك العهد القديم، وهو خبر غير مؤكد...

---

(1) أبناء إسماعيل: بنايوت، قيدار، ادئيل، ميسام، مشماع، دومة، مسا، حدار، تيما، يطور، نافيش، وقدمة. التكوين 25.

(2) التكوين: الاصحاح 17.

صفات إسماعيل عليه السلام:

لقد وصفه الله تعالى في محكم آياته بأجمل الصفات وأكملها، فقد ذكر اثنتا عشرة مرة في القرآن الكريم، فقال عنه بأنه غلام حليم، صبور، صادق، الوعد، يحافظ على الصلاة، ويأمر أهله بها وقد برّأه الله من كل ما نسب إليه الجاهلون..

قال تعالى: **﴿فبشرناه بغلام حليم، فلما بلغ معه السعي قال: يا بني، إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى؟ قال: يا أبت افعل ما تؤمر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾**[1]. لقد طاوع إسماعيل أباه إبراهيم إلى ما دعاه إليه، ولو كان إلى الهلاك والموت، وهذه أعلى درجات الإيمان ومنتهى الطاعة والاحترام..

ولقد قيل أن مسألة الذبح وكبش الفداء، كانت في الحجاز على «مِنىٰ»، وقيل أنها حصلت على الجبل الذي أقيم عليه حرم بيت المقدس.. قال تعالى: **﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد، وكان رسولاً نبياً، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً﴾**[2].

لقد حاز إسماعيل على رضا ربه لصدقه وإيمانه، فهو نبي الله ورسوله، وقد افتداه الله بكبش عظيم.. وتزعم التوراة بأن الذبيح هو إسحق وليس إسماعيل. وهذا ادعاء باطل وليس له ما يؤكده أو يدعمه. يقول علماء النسب أن إسماعيل كان أول من ركب الخيول.

وعن رسول الله ﷺ قال: «اتخذوا الخيل واعتبقوها، فإنها ميراث أبيكم إسماعيل». وقيل أنه كان أول من تكلم بالعربية البليغة، وكان قد نقلها من العرب العاربة، الذين نزلوا عندهم بمكة من قبيلة جرهم، والعماليق، وأهل

---

(1) سورة الصافات، آية: 101-102.

(2) سورة مريم، آية: 54-55

والطواف حوله، والحج والعمرة إليه، والوقوف على عرفة، والمزدلفة، وهدي البدن، وتعظيم الحجر الأسود، وتقديس حجارة البيت الحرام. فقد اهتم سكان مكة بالتجارة وكثرة الأسفار والارتحال، وكان واحدهم لا يرحل إلى مكان دون أن يحمل معه حجراً من حجارة الحرم إجلالاً وتعظيماً، وحيثما يحلّ يضع ذلك الحجر، وهو في اعتقاده مقدس بمثابة الحجر الأسود، ويطوف به طوافه بالكعبة، وكانوا يعتقدون أنهم يؤدون فرضاً من فروض التقديس والطاعة لبيت الله الحرام، ولكن من أين جاءتهم هذه الأصنام؟ وكيف دخلت إليهم في الجزيرة العربية؟

يُحكىٰ أن عمر بن لحي بن غالوثة بن عمرو بن عامر الخزاعي ـ وهو أحد ملوك خزاعة ـ كان في بعض رحلاته إلى بلاد الشام الجنوبية فبلغ أرض البلقاء، فوجد فيها العماليق، فرآهم يعبدون الأصنامْ فسألهم عنها وأجابوه: «بأن هذه أرباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية والأشخاص البشرية، نستنصر بها فتنصر، ونستسقي بها فتسقي، ونستشفي بها فتشفي». فأعجبه ذلك، وطلب منه صنماً يأخذه معه إلى أ رض العرب ليعبدوه هناك، فأعطوه صنماً يقال له «هُبَل». فجاء به إلى مكة ونصبه في الحرم، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه، ويقال أنه كان معه صنم إساف ونائلة على شكل زوجين. وبدأت تنتشر عبادة الأصنام ويزداد عددها، حتى بلغت أصنام الكعبة في عام الفتح ثلاثمائة وستين صنماً كما أسلفنا. .

وهكذا كان أول من بدّل دين إبراهيم الحنيف، وبعث العرب على عبادة مثل هذه التماثيل، هو ملك خزاعة «عمرو بن لحي الخزاعي» وانمحت الحنيفية إلّا قليلاً». وكان أعظم ما فيها تعظيماً وتقديساً هو الحجر الأسود، الذي يختلف عن باقي حجارة الكعبة بلونه الأسود، وسبب تكريمه اعتقادهم أن جبريل هبط به من الجنة، وبقاؤه من عهد إبراهيم الخليل، ويعدّونه مفتاح الذاكرة لفكرة التوحيد عندما انتشر دين الله الحنيف في مكة منذ عهد إبراهيم عليه السلام، وهو لا علاقة له بفترة الوثنية منذ أن دخل «هُبَل» إلى الكعبة، حتى حطّمها محمد رسول الله يوم فتح مكة عن آخرها وفقدت الأصنام نفوذها، ودبّ الهرم والعجز

في آلهتها، والآلهة الحقيقية رمز القوة والوحدانية. وكانت العبادة الوثنية في الجاهلية على أشكال ثلاث: فهي إما صنم، أو وثن، أو نصب.

فالصنم: هو ما صنع على شكل إنسان من معدن، أو من خشب.

والوثن: هو ما صنع من الحجر على شكل إنسان.

والنصب: هي صخرات ليس لها صور معينة، وقد ظن أتباعها إنها من أصل سماوي.

ومن الأصنام ما كانت عبادته خاصة لقبيلة واحدة، ومنها ما كان عاماً تنتشر عبادته بين قبائل العرب.

6 ـ الأصنام الآلهة في الجاهلية:

كثر عددها وزاد انتشارها، وكان أهمها:

* **هُبَل**: وهو أعظم الآلهة عند أهل قريش، وهو تمثال من العقيق الأحمر، وضع في جوف الكعبة في مكة، وهو أول صنم انتشرت عبادته عند عرب الشمال، وهو على صورة إنسان كُسِرت ذراعه اليمنى فأبدلته قريش بها ذراعاً من ذهب، وكان كبير الآلهة عند العرب قبل الإسلام، يحج إليه أبناء القبائل من كل حدب وصوب، وكانوا يستنصرون به وقت الغزو وفي الحروب «اعْلُ هُبَل». وكانت العرب تستقسم عنده بأقداح سبعة لكل منها دور وعمل، ويعدّ بمنزلة إله الخصب والرزق والنمو والسعادة، ويكون إله الحرب أحياناً..

* **اللاّت**: وهي صخرة مربعة بالطائف، كانت تعظمها قبيلة ثقيف وقريش وكل العرب، وهي ترمز إلى فصل الصيف، وكان حُجّابُها من بني مغيث من ثقيف، يحاولون منافسة كعبة قريش بمكة.

* **العُزّى**: وكانت لغطفان وقريش وكنانة، وهي شجرة بوادي نخلة على طريق مكة ـ الطائف وهي من أعظم الأصنام عند قريش، وقد قطعها خالد بن الوليد. وهي ترمز إلى الخصب والثروة.

كذّاب، إجعل الآلهة إلٰهاً واحداً، إن هذا لشيء عجاب﴾[1]. وقد أنكر الوثنيون يوم الحساب ولم يعتقدوا بيوم القيامة قال تعالى: ﴿وقالوا: إن هي إلا حياتنا الدنيا، وما نحن بمبعوثين﴾[2]. وقد تعرضنا لهذا البحث في موضع آخر.

لقد جاء يوم الفتح، ودخل محمد ﷺ مكة فاتحاً، وأخذ يحطم الأصنام جميعها، كما حطمها إبراهيم الخليل عليه السلام من قبل، وعلا صوت الحق والإيمان فوق الباطل والكفر. قال تعالى: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً﴾[3].

تهاوت الأصنام كل الأصنام، وسقطت الآلهة كل الآلهة، ولم يبق إلا الله وحده لا شريك له. وجاء في محكم آيات الله: ﴿ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾[4].

جل شأنه، وعلت قدرته، خالق كل شيء، لا إلٰه غيره. ﴿وهو الذي في السماء إلٰه وفي الأرض إلٰه وهو الحكيم العليم﴾[5].

وقال جل شأنه: ﴿ومن يدعو مع الله إلٰهاً آخر لا برهان له به، فإنما حسابه عند ربه، إنه لا يفلح الكافرون﴾[6].

7ـ معتقدات العرب في الجاهلية:

سيطرت الوثنية بكل أشكالها وصورها على كل القبائل التي سكنت الجزيرة العربية قبل الإسلام، فقد كانت تعتقد بقوى إلهية متعددة، تتمثل في عبادة الكواكب والنجوم، أو في مظاهر الطبيعة وقواها، وكانت أقرب ما تكون

---

(1) سورة ص، آية: 4-5.
(2) سورة الأنعام، آ ـ : 29.
(3) سورة الإسراء، آ ـ : 81.
(4) سورة الأنبياء، آ ـ : 22.
(5) سورة الزخرف، آ ـ :
(6) سورة المؤمنون، آ ـ :

إلى الطوطمية، حيث كانت تلتف كل قبيلة أو جماعة حول طوطم خاص بها، تتخذه موئلاً لها، ومدافعاً عنها، وحامياً لها، وتعده رمزاً لها، كالكلب أو الثعلب أو الثور. كما آمنوا بقوى خفيّة كثيرة نباتية أو حيوانية أو جماد. وقد وصلت إليهم عبادة النجوم والكواكب من الصابئة، وبقايا الكلدانيين، كما وصلتهم عبادة القمر والشمس، والزهرة من عرب الجنوب في بلاد اليمن، الذين ظلوا محافظين على عبادتها حتى ظهور الإسلام..

وكان لهم اعتبارات خاصة في آلهتهم فقد كان الإله القمر، إلهاً مذكراً في جنوب الجزيرة العربية بينما كانت الشمس، إلهاً مؤنثاً عند عرب الجنوب، ومذكراً عند عرب الشمال، وكانت الزهرة، إلهاً مذكراً عند الجنوب، ومؤنثاً عند الشمال. وقد اهتم أهل اليمن إجمالاً بإقامة المعابد الكثيرة لهذه الآلهة، ليمارس الكهنة طقوسهم الدينية حولها، ويقدمون للآلهة القرابين والهدايا والنذر أمام هذه المعابد، ويتقرب الناس منها في المناسبات الدينية، وللآلهة عندهم سيطرة كاملة على كل أعمالهم في الحياة الدنيا، ولم يكن تقرُّبهم منها إلا لدفع الشر عنهم، وحمايتهم من الأذى وجلب الخير والمنفعة. وقد حذّرهم الله تعالى من قبل هذه العبادات الباطلة، وأمرهم بعبادة الله والسجود إليه وحده. قال تعالى: ﴿**ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون**﴾[1]. فكل هذه الآلهة التي تعبدونها هي من آيات الله العلي العظيم الذي خلقهن فأحسن خلقه وأبدع صنعه. أما عبادة النار وتقديسها فقد وصلت إليهم من المجوسية التي تفشت في أطراف الجزيرة العربية في البحْرين وعُمان وتميم وغيرها... وكانوا يقدمون لها القرابين والأضحيات، من خلال طقوس خاصة، ومع ذلك فقد كانت الجزيرة العربية مهبطاً لعدد من الأنبياء والرسل الذين نادوا بعقيدة التوحيد، وقد ذكر بعضهم في القرآن الكريم مثل: نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وإسماعيل، وشعيب في مدين، وكان آخرهم محمد الذي جاء متمماً لهذه الديانات صلوات الله عليهم أجمعين. ومنهم من لم يذكره.

(1) سورة فصلت، آية: 37.

هما أساف ونائلة. وبعث الله على جرهم الرعاف والنمل، وغير ذلك من الآفات فهلك كثير منهم. وقد استمرت ولاية البيت فيهم نحواً من 300 سنة. . ثم تحولت الولاية إلى العماليق بقيادة «السميدع بن هوبر»، بعد هزيمة جرهم أمامهم، وزاد العماليق في بناء البيت ورفعوه على ما كان عليه من بناء إبراهيم عليه السلام.

ثم صارت ولاية البيت في ولد «إياد بن نزار بن معد»، وقامت حروب كثيرة بين مضر وإياد، كانت النتيجة لمضر على إياد، الذين أُجلوا من مكة باتجاه العراق.

يقول المسعودي: «ولما ثارت الحرب بين إياد ومضر ابني نزار، كانت على إياد، قلعت الحجر الأسود، ودفنته في بعض المواضع، فرأت ذلك امرأة من خزاعة، فأجْبرت قومها فاشترطوا على مضر، أنهم إن ردّوا الحجر جعلوا ولاية البيت فيهم».

وهكذا آلت الولاية إلى خزاعة، ومنها إلى قصي بن كلاب عن طريق زوجته «حبي ابنة حليل بن حبشية الخزاعي» آخر من تولى منصب ولاية البيت من خزاعة وقد أوصى بالولاية من بعده إلى قصي، لما وجد من كثرة نسله من ابنته، وهي زوجة قصي، وكان قد أسند فتح الباب وغلْقه إلى أبي غبشان الخزاعي، الذي باعه إلى قصي ببعير وزق خمر، فكان المثل العربي «أخسر من صفقة أبي غبشان». وبعدها طردت خزاعة من مكة، واستمر قصي قائماً على خدمة الحرم الأشرف حتى تقدمت به السن حيث فوض أمر جميع الوظائف التي كانت إليه، من رئاسة قريش وشرفها من الرّفادة والسّقاية، والحجابة واللواء والندوة، إلى أكبر أولاده وهو عبد الدار، حيث اختلف الأخوة فيما بينهم، وتفرقت بطون قريش إلى فرعين: منهم من بايع عبد الدار وحالفه، ومنهم من بايع عبد مناف وحالفه، لكنهم اتفقوا أخيراً على أن تكون الرفادة والسقاية لبني عبد مناف، وأن تكون الحجابة والندوة واللواء لبني عبد الدار، واستمر الأمر كذلك فترة طويلة من الزمن. . .

11 ـ أبرهة الحبشي يغزو الكعبة:

في عام 570 م. تعرضت الكعبة المشرفة لغزوة عاتية خارجية، قادها أبرهة الأشرم وعلى رأسها الفيل الكبير «المحمود» وكانت غاية هذا القائد هدم الكعبة وإزالتها، لتحويل الحجاج العرب عنها إلى كنيسة كان قد بناها في صنعاء، هي كنيسة القلّيس. وذلك انتقاماً لما فعله اثنان من أبناء الحجاز بداخلها.. وكانت بلاد اليمن حينذاك تحت سيطرة الأحباش الذين يعتنقون النصرانية.

توجه جيش أبرهة حتى بلغ ظاهر مكة، وتمركز حولها، وأصاب مئتي بعير لزعيم مكة عبد المطلب ثم أرسل أبرهة رسولاً إلى مكة ليخبر أهلها أنه لم يأت لحربهم أو قتلهم، بل جاء لهدم الكعبة. وعليهم أن يخلوا بينهم وبين البيت الحرام، وطلب مقابلة زعيمهم، وجاء عبد المطلب زعيم مكة لمقابلة أبرهة، وكان قد شهد ذلك الجحفل الجرار المعزز بالفيلة الضخمة.

وعرف أنه لا قبل لقريش بردّه، وهي تفتقر إلى مثل هذا السلاح الغريب العجيب.. فلما مَثَل بين يدي أبرهة أعجبه وأجلسه معه، ولكن عبد المطلب لم يرج أبرهة العودة بجيشه وفك حصار الكعبة. بل سأله أن يرد إليه مئتي بعير أصابها له، فدهش أبرهة لهذا الطلب قال له: «قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني. أتكلمني في مئتي بعير قد أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك وقد جئت لهدمه ولا تكلمني فيه؟».

فقال له زعيم قريش بكل ثقة: «إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رب يحميه». ورد عليه إبله، وعاد إلى مكة وطلب من أهلها الانسحاب إلى بطون الأودية وشعاب الجبل وترك الأمور إلى الله، لأن مواجهة جيش العدو أمر مستحيل. خاصة وأنه حاول إغراء أبرهة بالمال والذهب، فقد عرض عليه ثلث أموال تهامة ويرجع عن مكة دون أن يهدم البيت الحرام، فأبى وتكبر رافضاً ذلك... أخذ الجميع يبتهلون إلى الله أن يدفع عنهم ذلك البلاء الأعظم ويشكون ضعفهم إلى الله، وحدثت المعجزة من رب البيت، فأرسل وباء أطاح

لها القافة فيلحقون الولد بشبيهه..

كما أبطل بعض التقاليد الروحية فيما يتعلق بالوثنية، وتقديم القرابين للأصنام وغير ذلك من العادات والتقاليد التي رفضها الإسلام لأنها تتنافى مع مبادىء الرسالة الإسلامية الإنسانية والروحية والخلقية.

وقد أقر الإسلام عادات عربية أصيلة منها:

أن العرب كانوا يحجون بيت الله الحرام، ويعْتمرون ويُحْرِمون ويطوفون سبعاً. وقد احتفظ الإسلام بكثير من شعائر الحج في الجاهلية، فقد كانوا يمسحون بالحجر ويَسْعوْن بين الصفا والمروة.. وكانوا يلبّون ويذكرون في تلبيتهم إشراكاً بالله، قائلين: إلا شريك هو لك تملِكه وما مَلَك.. وكانوا يهدون الهدايا، ويرمون بالحجارة، ويحرّمون الأشهر الحرم[1].

وكان العرب في الجاهلية يؤدون الزكاة عن أموالهم، وقد فرضت زكاة الفطر في السنة الثانية للهجرة، وكان العرب يقومون بالصيام قبل الإسلام، فقد صامت قريش اليوم العاشر من محرم. لأنه كان اليوم الذي سترت فيه الكعبة، وقد صامه النبي ﷺ، وكانوا يصومون ثلاثة أيام في الشهر إلى العشاء.. وفي شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة فرض صيام شهر رمضان. قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾**[2]. وكان العرب في جاهليتهم يؤدون الصلاة ويغتسلون من الجنابة، وكانوا يغسلون موتاهم قبل الدفن.. وكانوا يكفنون موتاهم ويصلّون عليهم، وكانت صلاتهم إذا مات الرجل حُمِل على سريره، ثم يقوم وليّه، فيذكر محاسنه كلها، ويثني عليه ثم يُدفن ثم يقول: عليك رحمة الله وبركاته...

وكان العرب يداومون على طهارات الفطرة التي ابتُلي بها إبراهيم عليه السلام، وهي الكلمات العشر: منهن خمس في الرأس وخمس في الجسد:

---

(1) الأشهر الحرم: رجب، محرم، ذو القعدة، ذو الحجة.

(2) سورة البقرة، آية: 183.

فأما اللواتي في الرأس فهنّ: المضمضة والاستنشاق، قص الشارب، الفرق، السواك. وأما اللواتي في الجسد فهنّ: الاستنجاء، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، وحلق العانة، الختان. . ولما جاء الإسلام أقرها سنة من السنن. . ومن قوانين الأحوال الشخصية في الجاهلية: أنهم كانوا يحرمون زواج الأمهات والبنات والعمّات والخالات، وكانوا يطلقون ثلاثاً على التفرقة، وكان يقطعون اليد اليمنى للسارق، وكانوا يصلبون من يقطع الطريق، وكانوا يوفون بالعهود، ويكرمون الجار ويقرون الضيف ويصدقون الحديث، ومنهم من حرم الخمر والزنا على نفسه. .

هذه عادات جاهلية لكنها أصيلة وطيبة، اعتنقها العرب أو قسم منهم في جاهليتهم وأقرها الإسلام في مبادئه وشريعته لأن فيها كل الخير للبشرية. . ولما جاء رسول من أنفسهم يحمل رسالة الإسلام، ودعا لاعتناق مبادئها. أبوا واستكبروا خوفاً على مصالحهم ومكاسبهم الشخصية من الأرباح التي كانت تدرّها عليهم زيارة الأصنام في مكة المكرمة وفيها بيت الله الحرام وقد كانت المركز الرئيسي للوثنية.

كما خافوا أن يضيع جاههم وزعامتهم إذا جاء الإسلام، حيث احتلوا مركز الصدارة بين القبائل الجاهلية باعتناقهم الوثنية. واعتقدوا أن الإسلام سيفوت عليهم الفرصة وسيضيع عليهم مكانتهم الدينية والتجارية والاجتماعية. . .

الباب الثالث عشر

اليهودية " الموسوية "

أولاً ـ مقدمة البحث:

لقد صاغ اليهود كتابة تاريخهم بأيديهم، من خلال توراتهم وتلمودهم في إطار من المقدسات والغيبيات. فقد جعلوه كلّه وحْياً من السماء نافذاً بإرادة الله. . فوق كل الشبهات، فلا جدال فيه ولا نقاش، وقد صدَّقوا كل شيء فيه، حتى أنهم صدقوا أنفسهم من خلال تاريخهم هذا بأنهم شعب مختار من بين كل شعوب البشر. وأنهم ينتسبون إلى أصل طيب ومنبت كريم، وأنهم ينتظرون اليوم الموعود الذي سيصبحون فيه سادة العالم وتسود امبراطوريتهم. ومع ذلك فقد اختلفوا في ما بينهم وتباينت آراؤهم عندما كانوا يتحدثون عن أصولهم الأولى.

فالتوراة تنسبهم إلى إبراهيم الخليل في القرن (19 ق. م) وإلى إسحق ويعقوب «إسرائيل»، تقول توراتهم: «تقول لبني إسرائيل: يهوه إله آبائكم، إله إبراهيم، وإله إسحق ويعقوب، أرسلني إليكم»[1]. . . وهذه محاولة من كتّابهم وحاخاماتهم لتثبيت الاستمرار بين إبراهيم وموسى. وهو ادّعاء مزيف، فإبراهيم وُلِد في بلاد الرافدين ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولم يصل اليهود إلى بلاد

(1) سفر الخروج: 15.

عذاباً أليماً مدة اثني عشر شهراً، ثم تعود ثانية لتدخل في الجمادات ثم في الحيوانات، ثم في الوثنيين، ثم ترجع إلى جسد يهودي بعد تطهيرها»[1].

فهم يعتقدون بمبدأ تناسخ الأرواح والتقمص، كما يعتقد الهندوس في الهند، ووجه الشبه بينهما قريب!! فذكر الجنة والنار في التلمود أقرب إلى الخرافة والأساطير.

يقول «ول ديورانت»: «إن اليهود قلّما كانوا يشيرون إلى حياة أخرى بعد الموت، ولم يرد في دينهم شيء من الخلـود وكان ثوابهم وعقابهم مقصورين على الحياة الدنيا»[2].

فهم يعتقدون أن الإنسان يجزى في هذه الدنيا عما يفعل، إن خيراً فخير. . وإن شراً فشر. . وقد يكون بين الناس من يفعل الخير ولكنه يجزى بالشر، وتفسيره عندهم، أنه مسؤول عن أعمال غيره. فيجزى بالشر الذي فعلته قبيلته، على مبدأ الذنب الوراثي، والإنسان ابن شعبه فهو مسؤول عما يفعله غيره، ويتحمل وزره ووزر غيره، فهم يعتقدون بأن كل الأرواح خلقت في آدمٍ، لذلك تشارك في تحمّل مسؤولية خطيئته. فاليهود يحبون الحياة الدنيا حباً جماً، ويتمسكون بها، فهم يتعلقون بمباهجها وزخرفها، ويعبدون المال، ويحرصون على جمعه بشتّى الوسائل. . يقول السيد المسيح المرسل لهداية البشر مخاطباً بني إسرائيل: «لا تعبدوا ربين: الله والمال».

ولشدة تمسكهم بالحياة يتمنّى واحدهم أن يطول عمره في هذه الحياة، وألا يصيبه الموت. قال تعالى: **﴿ولتجدنّهم أحرص الناس على حياةٍ، ومن الذين أشركوا، يودّ أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾**[3] وقد خاطبهم بقوله: **﴿قل يا أيها الذين هادوا، إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾**[4].

---

(1) من كتاب الكنز المرصود في قواعد التلمود.
(2) ول ديورانت في قصة الحضارة.
(3) سورة البقرة، آ ـ: 96.
(4) سورة الجمعة، آية: 6.

فهم حريصون على الحياة ويتمسكون بها، مهما كانت ذليلة أو دنيئة وهم غير صادقين، لقد انقسم اليهود على أنفسهم لاختلاف عقيدتهم وإيمانهم بيوم الحساب والآخرة، إلى قسمين:

1 ـ الفريسيّون: وهم الذين يعتقدون بالحياة بعد الموت للصالحين فقط من البشر، ليشتركوا مع المسيح القادم، في إنقاذ الناس وإدخالهم في دين موسى.

2 ـ الصديقيون: وهم الذين ينكرون يوم القيامة والحساب ويؤمنون بالحساب الدنيوي، ومنهم من عصمهم الله من زيغ العقيدة وتحريفها.

(ب) لماذا يقدّسون السبت:

تقديس يوم السبت من المعتقدات الجوهرية عند اليهود، فقد ورد في سفر التكوين، ما يلي:

«اذكر يوم السبت لتقدسه. ستة أيام تعمل وتصنع عملك، أما اليوم السابع، ففيه سَبْت للرب إلٰهك. لا تصنع عملاً ما، أنت وابنك، وابنتك وعبدك وأمتك، وبهيمتك، ونزيلك الذي داخل أبوابك، لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، واستراح في اليوم السابع، لذلك بارك الرب يوم السبت وقدّسه». ـ سبحان الله وتعالى عمّا يصفون ـ فالراحة يوم السبت ممارسة للشعائر الدينية ولا يمكن اجتنابها، وليس عند اليهودي خطيئة أكبر من التعدّي على حرمة يوم السبت، إلا عبادة الأوثان.. ولا تقتصر الراحة على البشر فحسب، فهم يعتقدون أن تربة الأرض يجب أن تستريح سنة كل سبع سنوات، تسمى عندهم سنة السبت، فلم يُبذَر أو يُحصد فيها شيء، وبعد سبع دورات أي (7×7) تأتي سنة اليوبيل وهي السنة الخمسون، فقد ورد في التوراة:

«وكلّم الرب موسى في جبل سيناء، قائلاً: كلّم بني إسرائيل وقل لهم: متى أتيتم إلى الأرض التي أنا أعطيكم، تسبت الأرض سبتاً للرب، ست سنين

ثم صاروا يتكئون، وقد أضافوا إلى فريضة الفصح الأمور التالية: أربع كؤوس خمر يديرها رأس العائلة بالتتابع ممزوجة بالماء، وترنيم المزمورين (113 - 118)، وتقديم وعاء من الأثمار ممزوجة بالخل، لتذكيرهم بالطين الذي استعمله أبناؤهم في أثناء العبودية في مصر. وكان عشاء الفصح أول شعائر العيد وأهمها وكان ينتهي في الحادي والعشرين من الشهر. ولم يبلّغ الناس في بادىء الأمر بأن العيد سبعة أيام حتى اليوم الذي هربوا فيه.. وكان اليومان الأول والسابع من أيام العيد مقدسيْن كالسبت، وفي اليوم الثاني من العيد كان يؤتى بحزمة أول حصيد من الشعير، فيرددها الكاهن أمام الرب مدشناً أول الحصاد. وبالإضافة إلى الذبائح العادية، في بيت العبادة في كل يوم من أيام الفصح كان يقدم ثوران وكبش وسبعة خراف محرقة وتيس ذبيحة للتكفير، ويمكن أن تكون الذبيحة من البشر[1]. وطيلة الأيام السبعة كان الخبز يؤكل فطيراً، إشارة إلى الإخلاص والحق وتذكاراً للسرعة التي هربوا بها من مصر. وكان الفصح وعيد الفطر في بادىء الأمر عيديْن مستقلّين، اقترنا فيما بعد لتقاربهما في الزمن.

وعيد الفطير عيد زراعي في مستوى عيدي العنصرة والمظال.. وقد احتفل بعيد الفصح في سيناء، وعند الدخول إلى أرض كنعان، وفي أثناء حكم حزقيا، وفي حكم يوشيا، وفي أيام عزرا وما بعد ذلك.

وعيد استير أو البوريم ويقع في شهر شباط أو آذار من كل عام، ويحتفل اليهود فيه بذكرى نجاتهم من مذبحة كانت تنتظرهم وقد نجوا منها بفضل استير الكاهنة زوجة أحد ملوك الفرس.. كما تقام مراسم معقدة بمناسبة ختان الأطفال اليهود، والختان من أهل شعائر دين اليهود..

رابعاً ـ الردة اليهودية:

سبعون إنساناً هم الذين دخلوا مصر قادمين من فلسطين[2] هم يعقوب

---

(1) جاء في سفر إشعيا الإصحاح السابع والخمسين مخاطباً بني إسرائيل، «أقبلوا يا بني الساحرة، ألستم أنتم الذين يذبحون الأطفال في الوديان وتحت شقوق الصخور».

(2) التكوين: 46.

وأبناؤه إخوة يوسف، وتجمع روايات التاريخ على أنهم كانوا قبائل متنقلة يرتحلون من مكان إلى آخر يرعون المواشي، حتى عندما دخلوا أرض مصر، أخذوا غنمهم معهم، قال فرعون لأخوة يوسف: ما صناعتكم؟. فقالوا لفرعون: عبيدك رعاة غنم نحن وآباؤنا جميعاً[1]. وليست المشكلة في رعي الغنم، فمعظم الأنبياء كانوا يعملون بالرعي وإنما لأنهم كانوا قبائل رحل لا يستقر لهم قرار، ولا يعرفون الإقامة في مكان..

وقد نسوا دعوة إبراهيم عليه السلام لعبادة الله الواحد الأحد.. رغم ادعائهم الزائف بالتقرب إليه، متأثرين بمن كان يجاورهم من أبناء مصر.

وتسلسل تاريخ بني إسرائيل يؤكد أنهم لم يتبعوا إبراهيم ولا دين إبراهيم، ولا ملة إبراهيم، بل كانوا ينتقلون أيضاً من دين لآخر، حسبما تقتضيه مصالحهم، وأهدافهم. حتى أن النبي موسى عليه السلام كما يقول الباحثون من أمثال فرويد وويل ديورانت وتوينبي كان توحيدياً يعبد الإله الواحد الذي بشر به أخناتون فرعون مصر في حينه. وبعد أن خرج الإسرائيليون من مصر ووصلوا سيناء، ارتد أتباع موسى بمجرد غيابه عنهم مدة عشرة أيام فقط، وبناء على أوامر ربه، وعندما عاد إليهم وجدهم يعبدون العجل الذهبي ويرقصون حوله فرحين بإلههم الجديد متأثرين بديانة المصريين وهي عبادة العجل «أبيس»، وقد اتهموا هارون عليه السلام بأنه قد يسر لهم عبادة الأصنام والحيوان فصنع لهم عجلاً ذهبياً. وبالرغم من تلقي الرسالة الإلهية في سيناء، وبدء الدعوة الموسوية فقد كان الإسرائيليون يحنّون دائماً إلى الردّة والإشراك بالله، والعودة إلى الوثنية المتأصلة في نفوسهم فدين التوحيد لم يتمكن من قلوبهم، حتى أنه ورد في التوراة الاتهام صراحة للنبي سليمان بدخول الوثنية إلى مملكته، وبأنه كان من عبدة الآلهة السورية، تقول التوراة: «وكان في زمن شيخوخة سليمان أن نساءه أملْن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتاروت إلهة الصيدونيين و«ملكوم» رجس العمونيين،

---

(1) التكوين: 47.

بنصوص توراتية مكتوبة، فنسبوا إلى يعقوب الخداع، وزعموا أن لوطاً زنى بابنتيه[1] وقالوا عن هارون أنه دعا إسرائيل إلى عبادة العجل، وقالوا عن داوود أنه زنى بزوجة القائد، أوريّا الحثّي . . وقالوا عن سليمان أنه ارتدّ إلى الوثنية وعبد الأصنام إرضاء لزوجاته[2]، وإنه ابن داوود من زوجة القائد أوريا قبل أن يتخذها له زوجة . . إنهم أنبياء الله أرسلهم لهداية البشر، وكانوا من عباد الله الصالحين، قد رفع الله منزلتهم جميعاً، ووصفهم بالترفع عن كل المعاصي والخطايا دون تمييز، ومع ذلك لم يسلموا من قذف اليهود لهم بأية وسيلة . .

ومن دلائل كفرهم قولهم إن لله تعالى أولاداً ذكوراً، فُتِنوا بجمال بنات الآدميين واتخذوهن خليلات، وولد لهم منهن نسل امتاز ببسطة كبيرة في الجسم وهم الجبابرة الذين سكنوا الأرض قبل الطوفان[3]، وتطاولوا على الذات العليّة، فوصفوه في تلمودهم بالنقص والتردد والانفعال وذكر التلمود بكل صراحة عن جسم الإله وضخامة أعضائه، وعن أعماله ونشاطاته ليلاً نهاراً، وعن حالته بعد هدم الهيكل وتشريد بني إسرائيل، وما أصابه من ندم ومن تردد في أوامره تجاههم، وعما يخصصه الرب من أيام في كل عام لعبادة إله آخر صغير، وعن حرص الإله على أن تقدم له أضحية من الآدميين وما إلى ذلك من خرافات أسطورية باطلة[4].

خامساً ـ الفرق اليهودية :

انقسم اليهود في مختلف مراحل تاريخهم إلى فرق دينية عديدة، ادعت كل منها أنها هي الأمثل، وأنها الأكثر تمسّكاً بأصول الدين اليهودي وروحه من غيرها، ولكنها متفقة فيما بينها فيما يتعلق بالنواحي القومية والعنصرية، وقد انقرضت معظم هذه الفرق، ومن أهم الفرق المنقرضة أو الباقية :

---

(1) سفر التكوين: 19.
(2) سفر الملوك الأول.
(3) سفر التكوين 6.
(4) ابن حزم/ الملل والأهواء والنحل.

1 ـ الفريسيون «الربانيون»:

وهي أهم الفرق اليهودية وأكثرها عدداً، وهي تعترف بجميع أسفار العهد القديم وأحاديث موسى، وأسفار التلمود، ويعتقدون أن الربانيّين منهم هم الذين ألّفوا أسفار التلمود. تتميز بأنها تؤمن بالبعث وباليوم الآخر، وهي تعتقد أن الصالحين من الأموات يبعثون ليشتركوا في ملك المسيح المنتظر الذي يزعمون أنه سيأتي يوماً لينقذ الناس ويدخلهم في ديانة موسى عليه السلام، وكانوا ألدّ أعداء المسيح عيسى بن مريم وأشد المتآمرين عليه. ويقال بأنها تشكلت في عهد «يوناثان»[1]، صديق داوود عليه السلام وتسمى بالمعتزلة أو المعتزلين. وينظر أتباعها إلى الأمم من غير الإسرائيليين كأعداء...

2 ـ الصديقيون:

وتأتي بعد فرقة الفريسيين من حيث الأهمية وهي على نقيض منها، تتميز بأنها لا تعترف إلا بالعهد القديم، وترفض ما عدا ذلك. وهي لا تؤمن بالبعث ولا باليوم الآخر، ويؤمن أتباعها بأن الحساب يتم في الحياة الدنيا، وقد انفردوا باعتقادهم أن العُزير ابن الله، وينسبها ابن حزم إلى رجل يسمى صدوق[2].

3 ـ السامريون[3]:

وهم قوم يسكنون جبال بيت المقدس، وقرايا من أعمال مصر، يقرون بنبوة موسى وهارون ويوشع بن نون، وينكرون نبوة من جاء بعدهم، ولم يؤمنوا بالبعث ولا باليوم الآخر، وآمنوا بأسفار التوراة الخمسة وسفري يوشع والقضاة فقط، وهم يعتقدون أن القدس هي نابلس، وهم لا يعرفون حرمة لبيت المقدس أو تعظيماً له.

---

(1) يذكر ذلك فيلافيوس يوسيفوس (37 - 95 م). وهو من أقدم الباحثين في تاريخ اليهود وأشهرهم وأوثقهم.

(2) ابن حزم: في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل.

(3) تطلق كلمة السامريين على جماعة من غير بني إسرائيل واعتنقت اليهودية وامتزجت بهم وهم ينظرون إلى أتباعها على أنهم أحط منهم قدراً أو منزلة.

وقد انقسمت إلى:

(أ) الدوستانية: وهم الألفانية، نسبة إلى رجل يقال له «الألفان». ادعى النبوة، وتعني الفرقة الكاذبة، وتزعم أن الثواب والعقاب في الحياة الدنيا فقط.

(ب) الكوستانية[1]: وتعني الجماعة الصادقة، وهم يقرّون بالآخرة، والثواب والعقاب فيها. وقبلة السامرة جبل «غريزيم» بين القدس ونابلس، وقالوا إن الله أمر داوود عليه السلام أن يبني بيت المقدس بجبل الطور الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام، فتحول داوود إلى «ايليا» وبنى البيت هناك، وخالف الأمر فظلم. وتوجّه السامريون إلى تلك القبلة دون سائر اليهود، ولغتهم غير لغة اليهود، ويزعمون أن التوراة كانت بلسانهم، وهي قريبة من العبرانية فنقلت إلى السريانية...

4 ـ الحسديون «المشفقون»[2]:

ظهرت حوالي القرن الثاني قبل الميلاد، وانقرضت في القرن الأول الميلادي، وهي تختلف اختلافاً تاماً عن سائر فرق اليهود في عقائدها، وعباداتها، وفي نظمها، وتقاليدها.. فقد حرمت القرابين والأضاحي، وتميزت بكثرة مناسبات الغسل والطهارة في شعائرها. فقد أنكرت التفرقة العنصرية، وقررت مبدأ المساواة بين جميع الناس، وعملت على إلغاء الحروب والعيش بسلام دائم وعدم إيذاء أحد من الناس على اختلافهم.. وحرمت طرق الكسب غير المشروع، كما حرمت الرق والعبودية، وحرمت الملكية الفردية، وحتمت وجوب الملكية الجماعية المشاعية، وحرمت أيضاً التجارة والعمل بها، وصناعة الأسلحة، وحرمت استخدام الذهب والفضة والعمل بها، وحرمت الزواج وأوجبت البعد عن النساء، ودعت إلى الزهد والتقشف، والبعد عن جميع متع الجسم التي تعدها شروراً، كما حرمت شرب الخمر وأكل اللحوم وأوجبت

---

(1) الملل والنحل الشهرستاني.
(2) اليهودية واليهود د. علي عبد الواحد وافي.

الاقتصار على الأغذية النباتية.. فهي بهذا لا يربطها بباقي فرق اليهود إلا رابطة الجنس، لأن أفرادها كانوا من بني إسرائيل...

5 ـ العنانيون أو القرّاؤون:

نسبوا إلى عنان بن داوود أحد علماء اليهود في بغداد في عهد الخليفة المنصور (754 - 775 م) وهم يخالفون سائر اليهود في السبت والأعياد، وينهون عن أكل لحم الطير والظباء والسمك والجراد ويذبحون الحيوان على القفا. وهم يصدقون عيسى في مواعظه ويعدّونه من بني إسرائيل ويتمسكون بتعاليم العهد القديم وحده، ولا يعترفون بما جاء في التلمود وتعاليم الربانيين والحاخامات...

كما توجد فرق أخرى كالعيسوية نسبة إلى أبي عيسى إسحق بن يعقوب الأصفهاني. وفرقة اليوذعانية نسبة إلى يوذعان بن همذان. وفرق المقاربة، وغير ذلك. وهذا تأكيد لقول موسى عليه السلام: «إنكم بعد موتي تفسدون وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم، ويصيبكم الشر في آخر الأيام».

سادساً ـ الكتب اليهودية:

تضم الكتب اليهودية المقدسة، عقيدة اليهود وتاريخهم ورسالة أنبيائهم وتعد المرجع الأساسي للبحث عن الديانة وتاريخها. وقد جمعت الكتب المقدسة عند اليهود مع الأناجيل المسيحية فكونت الكتاب المقدس، الذي يضم العهدين القديم والجديد.

1 - العهد القديم[1]:

جمع في أوقات متأخرة عن عهدهم، وهو يحتوي تاريخ بني إسرائيل

---

(1) العهد القديم: يسميه اليهود ت. ن. خ. اختصاراً لعناوين أقسامه الكبرى، وهي التوراة والأنبياء، والمكتوبات.

المضطرب، الذي تشغله مظاهر الحياة القبلية البدائية حتى أن النصوص الدينية والآيات تفيض بالعنصرية والحقد والكراهية والإنعزال عن العالم، والانغلاق على الذات. والاحتقار لكل البشر، والشراهة لحب المال، وامتلاك الأرض وهو أقرب ما يكون إلى وثيقة سياسية ظاهرها ديني، وقد استخدمت الرب والأنبياء كوسيلة لتنفيذ مخططها المرسوم، ومنهجها الموضوع. وهو الوثيقة التي تستند إليها الصهيونية في ما تدّعيه من حق مزعوم لها في أرض فلسطين، تلك الأرض التي وعدهم الرب بها لهم ولذراريهم في العهد القديم المبرم بين «يهوه» و «أبرام» قبل آلاف السنين ـ على حد زعمهم ـ ويحتوي العهد القديم على ثلاثة كتب هي: التوراة (بنتاتيك)، أسفار الأنبياء (بنييم)، الكتابات (كتوبيم).

(أ) التوراة Torah:

كلمة عبرية مشتقة من الآرمية تعني الهداية والإرشاد، وهي أول كتاب سماوي منزل عدا الصحف[1] وهي الكتاب المقدس عند اليهود.

تعد التوراة كتاب تاريخ وإنشاد، تشتمل على التعاليم والأحكام الدينية وعلى قواعد السلوك بين الناس وعلى مجموعة من القوانين والعادات والتقاليد وأنماط الحياة عند اليهود. وقد كتبت التوراة بالعبرية المشتقة من الآرامية بعد مرور أكثر من ستمائة عام على غزو اليهود أرض فلسطين، والتوراة بالآرامية «تورة»، مشتقة من «تارا» بمعنى وصايا أو أوامر أو شريعة. وأصبحت في القرن السادس تشير إلى شريعة موسى، وتدل اليوم على أسفار موسى الخمسة التي كُتِبت باليد. وتحفظ في تابوت العهد في المعبد اليهودي، والتي عرفت باسم «لفائف الشريعة» ثم أصبحت تعني العهد القديم. وهي تشمل التفسيرات والأوامر والنواهي التي دُوِّنت في التلمود. ويقال بوجود توراتين أو شريعتين: واحدة مكتوبة تلقاها موسى عند جبل سيناء وهي التوراة[2]. والثانية شفهية تناقلها

(1) أنزلت الصحف على كل من: آدم 21 صحيفة، وشيث وعدد 29 صحيفة، ونوح وعددها 30 صحيفة، وإبراهيم وعددها 10 صحف.

(2) عثر في عام 1947 على مخطوطات قيّمة كتبت باللغة السامية واليونانية القديمة عرفت باسم=

الحاخامون عن موسى، ولها نفس قدسية التوراة المكتوبة وهي التلمود. وتذكر المصادر أن أقدم قراءة للتوراة العبرية جرت حوالي (444 ق. م)، عندما دعا النبي عزرا اليهود إلى سماع بعض منها...

والتوراة خمسة أسفار، تتضمن تاريخ اليهود وشريعتهم المنزلة، وهي:

1 - **سفر التكوين**: وفيه تاريخ بدء الخليقة وتاريخ العالم حتى عهد النبي يوسف، وهو سفر تاريخي فيه أقاصيص وعبر تحكي هجرة أجداد العبرانيين إلى فلسطين ثم إلى مصر.

2 - **سفر الخروج**: وفيه تاريخ اليهود منذ خروجهم من مصر وفيه مختصر الشريعة التي لقّنهم فيها موسى شريعته من جبل سيناء، ومن ضمنها الوصايا العشر.

3 - **سفر اللاويين (التوابين)**: ويحتوي على طقوس الكهنة أبناء لاوي وفيه العبادات والأخلاق والنكاح وغير ذلك من شرائع اليهود.

4 - **سفر الأعداد**: وفيه إيضاح لتجوال إسرائيل في الصحراء وغزوهم أرض كنعان وتقسيم الأراضي بينهم وتعدادهم. ولقد أُلِّفَ في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد.

5 - **سفر التثنية (الاشراع)**: وفيه عرض تاريخي سريع ونصائح أخلاقية وتشريعات خاصة وتبريك موسى لقومه ثم وفاته وأرض الميعاد على مرأى عينيه. وقد ألف أواخر القرن السابع قبل الميلاد وتعد هذه الأسفار الخمسة القاعدة الأساسية للعهد القديم وللدين اليهودي كله. وهي تتعرض إلى نقد واسع من حيث تاريخ تأليفها وتحديد مصادرها وقيمتها التاريخية. تقول التوراة اليهودية:

(مخطوطات قمران) على اسم المغارة التي عثر عليها فيها. وتسمى مخطوطات البحر الميت. وهي عبارة عن لفائف كتابية مغلقة بإحكام ومحفوظة في قدور من الفخار... وتشمل على أسفار أصيلة من العهد القديم التي تختلف كثيراً عن التوراة المزيفة المتداولة ويقدر عمرها بين (300 ق. م و70 م) وقد وردت بلغتها الأصلية الآرامية كما عثر على عدد من نسخ التوراة م 1951 م في منطقة بيت لحم.

وحتى الإنسانية فهم الذين يحرّفون الكلام وفق ما يشتهون. . .

قال جل شأنه: ﴿مِـن الذين هادوا يحرّفون الكَلِم عن مواضعه﴾[1].

يقول الدكتور محمود الشريف: «إن التوراة المتداولة اليوم، والتي يترنم بها اليهود ويرددها الإسرائيليون في معابدهم، لا يعترف بها القرآن، بل سجل في عديد من الآيات أنها محرّفة مزورة زيد عليها وأنقص منها فشوِّهت بما استحدِث فيها وحُرِّفت بما نقص منها»[2].

لقد كتبت التوراة بأسلوب الحكاية أو القصة، وبأقلام مختلفة لما فيها من تناقضات ومفارقات ومبالغات كثيرة ولهذا لا يمكن أن تكون قريناً للقرآن الكريم، فهو قول الله الحق. . . قال تعالى: ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾[3]. إنها التوراة المنزلة على موسى من عند الله، والتي قال عنها جل شأنه: ﴿فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عايه شهداء﴾[4].

أنواع التوراة:

توجد عدة كتب من التوراة، منها:

1 ـ التوراة الهيروغليفية: نزلت على موسى باللغة الهيروغليفية المصرية بعد خروجه من مصر، لأنها اللغة التي كان يعرفها في مصر، ولم يكن لبني إسرائيل لغة خاصة بهم حين كانوا في مصر وقد توفي موسى قبل أن تظهر اللغة العبرية كلغة فعلية. وإن ما ورد في التوراة كان وثيق الصلة بالعقيدة الأخناتونية المصرية. . .

2 ـ التوراة اليونانية «السبعينية»: وقد كتبها اثنان وسبعون كاهناً يهودياً (282 - 283 ق. م) وقد ترجمت إلى اليونانية في الإسكندرية عام (250 ق. م)

(1) سورة النساء، آية: 46.
(2) الدكتور محمود الشريف في كتابه اليهود في القرآن.
(3) سورة آل عمران، آية: 93.
(4) سورة المائدة، اية: 44.

تلبية لرغبة «بطليموس فلادلفوس» (280-247 ق.م) ثم ترجمت إلى اللاتينية في القرن الأول الميلادي ثم ترجمت إلى الحبشية عام (320 م) وحدد عددهم على أساس ستة فقهاء عن كل سبط منهم...

3 ـ **التوراة السامرية**: نسبة إلى السامرة قرب نابلس وقد كتبت التوراة بعد انقسام حكومة الغزو اليهودي بعد سليمان، عرفت فيما بعد بالتوراة الآرامية. وقد كتبت في أثناء السبي البابلي (586 ق. م) ومضمونها غير مضمون التوراة الموسوية، وقد سموها توراة الكهنة، وهي التوراة الحالية المتداولة عند اليهود. .

(ب) أسفار الأنبياء:

وهي أقل قدسية من التوراة عند اليهود، تتضمن أسفار أنبيائهم وهي قسمان: أسفار الأنبياء المتقدمين، وأسفار الأنبياء المتأخرين.

1 ـ **أسفار الأنبياء المتقدمين**: وتتناول تاريخ اليهود من دخول يشوع فلسطين حتى هدم الهيكل في بيت المقدس، وهي: 1 ـ سفر يشوع: وهو سفر المذابح والإبادة. 2 ـ سفر القضاة. 3 ـ سفر صموئيل الأول. 4 ـ سفر صموئيل الثاني. 5 ـ سفر الملوك الأول. 6 ـ سفر الملوك الثاني.

2 ـ **أسفار الأنبياء المتأخرين**: وهم 1 ـ سفر أشعيا. 2 ـ سفر أرميا. 3 ـ سفر حزقيال، وهو نبي المنفى. 4 ـ سفر هوشع. 5 ـ سفر يوئيل. 6 ـ سفر عاموس. 7 ـ سفر عويديا. 8 ـ سفر يونس. 9 ـ سفر ميخا. 10 ـ سفر نحوم. 11 ـ سفر حبقوق. 12 ـ سفر صفنيا. 13 ـ سفر حجي. 14ـ سفر زكريا. 15 ـ سفر ملاخي...

(جـ) الكتابات والأشعار:

وهي نصوص مختلفة في الشكل والاتجاه منها:

1 ـ المزامير. 2 ـ الأمثال. 3 ـ أيوب. 4 ـ نشيد الأناشيد. 5 ـ راعوث.

6 ـ مراثي ارميا. 7 ـ الجامعة. 8 ـ استير. 9 ـ دانيال. 10 ـ عزرا. 11 ـ نحميا. 12 ـ أخبار الأيام الأولى. 13 ـ أخبار الأيام الثانية...

ويرجح أن هذه الأسفار رُتِّبت هكذا بالنسبة إلى زمن كتابتها...

2 - المزامير «الزبور»:

ورد ذكرها في القرآن الكريم باسم الزبور. قال تعالى: ﴿**وآتينا داود زبوراً**﴾[1] وقال كذلك: ﴿**ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض، وآتينا داود زبوراً**﴾[2] يعد الزبور أو المزامير كما وردت في التوراة، أعظم الأسفار الشعرية في العهد القديم، بل هو من أعظم ما نظّمه الإنسان من شعر، وهو يشتمل على (150) أغنية مختلفة تاريخياً، فبعضها شخصي الطابع، وبعضها جماعي، وهي ليست كلها لداود، بل ينسب بعضها إلى «قورح» إمام المغنين، وبعضها للمغنين على السوسن، وبعضها غير منسوب لأحد، والكثير منها منسوب إلى داود وبعضها كتب بعد داود بمئات السنين..

تحتوي المزامير على عبارات فيها تسبيح بالله ودعاء له أن يعين المرء في الملمات المختلفة، التي ألمّت به، وكثير منها له طابع الطقوس من أجل الترتيل في الصلاة، وليس فيها أحكام أو أوامر أو نواه.. جاء في قصيدة لإمام المغنين لبني قورح في المزمور الرابع والأربعين ما يلي:

«اللهم بآذاننا قد سمعنا، آباؤنا أخبرونا بعمل عملته في أيامهم في أيام القدم. أنت بيدك استأصلت الأمم، وغرستهم، حطّمت شعوباً، ومددتهم، لأنه ليس بسيفهم امتلكوا الأرض، ولا ذراعهم خلّصتهم لكن يمينك وذراعك، ونور وجهك لأنك رضيت عنهم»[3].

---

(1) سورة النساء، آية: 163.
(2) سورة الإسراء، آية: 55.
(3) المزمور: 44.

«أحسن برضاك إلى صهيون، وابن أسوار أورشليم، حينئذ يقربون على مذابحك العجول»[1].

3 - التلمود:

كلمة عبرية معناها: التعاليم أو الشرح والتفسير، وهو كتاب السنّة في الشريعة اليهودية ويعد أهم المراجع الدينية الشفهية لليهود.. ويشمل ثلاثاً وستين كتاباً تعالج قضايا الدين والشريعة والتأملات الميتافيزيقية والتاريخ والأدب والعلوم الطبيعية كما تتضمن فصولاً في الزراعة والصناعة والمهن والتجارة والربا والضرائب وقوانين الملكية والدين والرق والميراث وأسرار الأعداد والفلك والتنجيم والقصص الشعبي. فهي تغطي كل جوانب الحياة لليهودي، حتى أنها تتناول دقائق الأمور مثل إعداد الطعام وتناوله والعلاقات الخاصة بين الرجل وزوجته.. وهو يتحدث عن فترة ثمانية قرون، ثلاثة منها قبل ميلاد المسيح وخمسة بعدها. وقد استغرق تدوين التلمود ما لا يقل عن ألف عام من الزمن. ويذكر المؤرخون أنه ساهم في كتابته عدة آلاف من كهنة اليهود. يقول المؤرخ جواد اتيلهان: إن أول من باشر بكتابة التلمود هو عزريا في القرن الخامس قبل الميلاد ثم ساهم في إكماله سبعة آلاف كاهن ومثقف يهودي استمر حتى القرن السادس الميلادي. ويعرف التلمود بالقانون الشفهي الذي يتمم التوراة التي لم تُبيِّن كل الأحكام الضرورية لتنفيذ الوصايا العشر. كما أن قضايا دينية جديدة طرأت بعد التوراة فاستوجبت الحل عن طريق تفسير النصوص بروح التوراة، وهذا التفسير هو التلمود.

وهو كتاب جامع مانع بشكل لا يدع للفرد اليهودي حرية الاختيار في أي وجه من وجوه النشاط في حياته العامة والخاصة، ومع ذلك لا يذكر كلمة واحدة عن الحياة الآخرة ويوم الحساب. ولم يرد ذِكْر التلمود لا في الإنجيل ولا في الحواريين المسيحيين والفرق اليهودية. ولم يرد له ذكر أيضاً لا في القرآن

---

(1) المزمور: 51 ويتلى في القداس.

صورته الختامية الحاخام جوسي سنة (498 م) وهو آخر من سمي عند اليهود بالآمر أو الملقّن ومن تبعهم من العلماء أطلق عليهم لقب أصحاب الرأي. . وخلفهم السامون ثم جاء أخيراً عهد الحاخامات العاديين وقد جاء في التلمود: «إن موسى تلقى شريعة سيناء، وبلّغها إلى يشوع، ويشوع بلّغها إلى الأقدمين ـ الشيوخ ـ، والأقدمون إلى الأنبياء، والأنبياء إلى أعضاء الكنيس الأكبر».

أنواع التلمود:

(أ) **تلمود فلسطين أو الأورشليمي**: وهو سجل للمناقشات التي أجراها حاخامات طبرية في فلسطين لشرح أصول المشناه، ويرجع تاريخ جمعه إلى (400 م). ويشتمل على 750 ألف كلمة، منها قصص وحكايات يهودية هي أساس الإسرائيليات، وهو مكتوب بالعبرية والآرامية الغربية. يقول محرر دائرة المعارف اليهودية العامة: «إن النص الحالي لتلمود فلسطين في حالة فاسدة جداً» وقد وضعه حاخامون من بيت المقدس، عرفوا باسم «أمورايم» أو المفسدين. . .

(ب) **تلمود بابل**: وهو سجل للمناقشات حول تعاليم المشناه، دونها علماء بابل اليهود وانتهوا من جمعه سنة (500 م)، يشتمل على 2,5 مليون كلمة، منها القصص والأحكام وهو الأهم عند اليهود. وأول من قام بتدوينه الحاخام «آشي»[1] المتوفى سنة (427 م) بمساعدة رابينا، وهو مكتوب بالآرامية الشرقية مع قليل من العبرية.

وهناك سفر مماثل للتلمود يسمى «مدراش» يجمع الحِكَم والأقاصيص والأحكام التي جمعها أو اختلقها الحاخامات بعد إتمام التلمود، فدوّنوها فيه خوفاً من ضياعها. .

من أقوال التلمود:

جاء في التلمود أفكار يهودية صرفة تنم عن كفرهم وحقدهم وكرههم

---

(1) آشي: وهو كبير أحبار مدينة «سورة» قرب بغداد، يدعى راشي أو رب آشي.

للعنصر البشري كله. يزعم التلمود أن الله لا عمل له في الليل، إلّا قراءة التلمود مع الملائكة والإعلان عن ندمه ولومه لذاته عندما تغاضى عن هدم هيكل بيت المقدس. وهذا غاية الكفر والإلحاد.

يقول التلمود: «كما يسمو الإنسان على الحيوان، كذلك يسمو اليهودي على باقي أهل الأرض ذوي الطبيعة البهيمية».

ويقـول: «إن الله قـد منـح السلطة على مقتنيات كـل الشعـوب وحياتها...».

ويقول: «إن الله أمَرنا باستعمال الربا ضد الغوييم (غير اليهود) وحرّم علينا إقراضهم المال بدون تقاضي فوائد عليه».

ويقول: «إن أملاك غير اليهود تعدّ كالمال المتروك، الذي يحق لليهودي أن يمتلكه..».

وقال الكثير الذي يدل على مدى حقد اليهود وكرههم للبشر، وحبّهم لذاتهم، وانعزالهم.

يقول الدكتور جوزيف باركلي: «إن بعض أقوال التلمود مُغالٍ، وبعضها كريه، وبعضها الآخر كفر».

ويقول القس لومان في كتابه «نابليون واليهود»: «كان على المسيحيين أن يزيلوا من الوجود منهاج أبالسة الجحيم المسمى بالتلمود، والشبيه بالصخرة الملساء، التي تخفي تحتها وكر الثعابين القاتلة، قبل أن ترسخ تعاليمه السامّة في عقول اليهود، وتحوّلهم إلى أفاعي تتربص للانقضاض على العالم كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً».

وقد سرد في نصوصه كثيراً من الخرافات والأساطير التي لا يقبلها العقل ولا المنطق. وردت فيه أسطورة تقول: «إن (طيطس) النجس دخل الهيكل، وبهزّة سيف مزّق الهيكل فسال من الستار الدم، فأرسِلت بعوضة لعقابه، ودخلت فمه، وأخذت تكبر حتى صارت مثل الحمامة، وحين فتحت جمجمته

وجدوا أن البعوضة لها فم من نحاس ومخالب من الحديد».

لذلك تعرض التلمود إلى الإحراق والإتلاف مرات عديدة لخطورته على البشرية، فقد عمدت بعض الحكومات الغربية والمسيحية والكنيسة إلى إحراقه أكثر من مئة مرة بغية التخلص من شره..

إحراق التلمود:

هوجم التلمود بشدة باعتباره أهم مصدر للتعاليم اليهودية التي قاومت السلطة النصرانية سراً وعلانية، ففي عام (1244 م) أُحرق التلمود بأمر البابا «اينوسان» وأحرق فعلاً في إيطاليا، كما أحرق كذلك في فرنسا في عهد لويس التاسع، لما فيه من عبارات الطعن والإهانة ضد المسيحية بوجه خاص.

وفي عام (1248 م) أحرق التلمود بأمر الكاردينال «لوكات أودو».

وفي عام (1299 م) أحرقه الملك فيليب الجميل الذي طرد اليهود من فرنسا.

وفي عام (1322 م) أُحرق بأمر البابا جون الثاني والعشرين في كل بلدان أوروبا.

وفي عام (1553 م) أُحرق خمس مرات متتالية في عهد البابا جوليوس الثالث.

لقد أحرق مراراً وتكراراً لكثرة ما احتوى من كلمات نابية وعبارات لا أخلاقية. وقد تنبّه أحبار اليهود الذين اجتمعوا في بولونيا عام (1631 م) لخطورة هذا الموقف، وقاموا بحذف الكلمات النابية، والعبارات التي تنال من السيد المسيح والمسيحية، وتركوا مكانها فراغاً، واتفقوا على تلقينها مشافهة تلاميذ المدارس الدينية فقط[1].

لقد جاء في التلمود من الكلام البذيء الذي يصل إلى حد الكفر والإلحاد

(1) من كتاب الكنز المرصود في قواعد التلمود، آوغست روهلنج.

الشيء الكثير فلنسمع، ولنحكم.

جاء في التلمود: «أن يسوع الناصري، موجود في لجّات الجحيم، بين النار والزفت، وأن أمه مريم أتت به من العسكري «باندارا»، بمباشرة الزنا، وأن الكنائس النصرانية هي بمستوى قاذورات، وأن الواعظين فيها أشبه بالكلاب النابحة، وأن قتل المسيحي من الأمور المأمور بها، وأن العهد مع المسيحي لا يكون عهداً صحيحاً يلتزم اليهودي القيام به، وأن من الواجب ـ دينياً أن يُلعن ثلاث مرات رؤساء المذهب النصراني وجميع الملوك الذين يتظاهرون بالعداوة ضد بني إسرائيل»[1].

فهل يستحق الإحراق على هذه الكتابة؟ نترك الإجابة إلى كل المسيحيين في كل أرجاء الأرض.

4 - الألواح:

أُنزِلت على موسى في جبل الطور، وهي على شبه مختصر ما في التوراة، تشتمل على الأقسام العلمية والعملية. قال تعالى: **﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة، وتفصيلاً لكل شيء﴾**[2]. ولقد أوصى موسى بأسرار التوراة والألواح إلى يوشع بن نون، وصيّه وفتاه، والقائم بالأمر من بعده، ليفضي بها إلى «شبير» و «شبر» أولاد هارون أخيه، وشريكه في الدعوة، الذي توفي في حياة موسى في التيه، وقد كان اليهود يميلون إليه أكثر من موسى عليهما السلام[3].

وقد ورد في أسفار التوراة ما يلي: «ثم أعطى الرب موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء لوحيّ الشهادة، لوحيّ حجر مكتوبين بأصبع الله»[4].

وقد كتبهما الله بيده مرة ثانية بعد أن كسرهما موسى بسبب غضبه من

(1) من كتاب الكنز المرصود في قواعد التلمود، أوغست روهلنج.
(2) سورة الأعراف، آية: 145.
(3) الملل والنحل، الشهرستاني.
(4) سفر الخروج: 32.

الكريمْ ولا في الأحاديث النبوية. . وقد أنكرت فئة من اليهود التلمود بعد كتابته وهم القرّاؤون. . بينما آمن معظم اليهود بما جاء فيه وادعوا أن ما كتب فيه كان يوحى به وهم الربّانيون. .

أقسام التلمود:

يتألف من كتابين هما:

(أ) المشناه Mishna:

وهي مجموعة قوانين اليهود ويسمى القانون الثاني. وهو أول لائحة قانونية وضعها اليهود لأنفسهم بعد التوراة، وهو مجموعة من التقاليد اليهودية التي يزعمون أنها أعطيت لموسى حين كان على جبل سيناء، ثم تداولها هارون واليعازر ويشوع وسلموها للأنبياء ثم انتقلت عنهم إلى أعضاء المجمع العظيم وخلفائهم حتى القرن الثاني الميلادي حينما جمعها يهوذا هاناسي فيما بين (190 - 200 م) بعد تدمير الرومان للهيكل وهو خلاصة القانون الشفهي الذي تناقله الحاخامات أمثال «عقيبة» وتلميذه «مئير». .

يعرف موسى بن ميمون المشناه بقوله: «منذ أيام معلمنا موسى حتى حاخامنا المقدس» يهوذا هاناسي (125 - 217 م). لم يتفق أحد من علماء اليهود على أية عقيدة من العقائد التي كانت تدرس علانية باسم «القانون الشفهي». بل كان رئيس محكمة كل جيل أو نبيّه، يضع مذكرة عما سمعه عن سلفه وموجهيه، لينقلها شفهياً إلى شعبه وهكذا ألف كل فرد من العلماء كتاباً مماثلاً ليستفاد منه حسب درجة كفاءته. . .» وقد دون يهوذا هاناسي أول نسخة معتمدة من تفسيرات القانون الشفهي بالعبرية وفيه كثير من الكلمات الآرامية واليونانية واللاتينية. .

ويطلق على الربانيين الذين اشتركوا في تأليف المشناه اسم: التنائيم «المعلمين» ويتجاوز عددهم 200 عالم يهودي لُقب معظمهم بالحاخام، أي المعلم أو الحكيم.

ويزعم اليهود أن المشناه أنزل على موسى في طور سيناء، فيروي اليهود عن الحاخام «ليفي بن شما» الذي يروي عن سيمون بن لاكتيس الذي قال مفسراً ما جاء في التوراة: إنا سنعطيك ألواح الحجر وقانوناً ووصايا كتبناها لتعلّمها لهم»[1].

يفسر قوله: بأن المراد من الألواح، الوصايا العشر. والقانون هو القانون المكتوب والوصـايا هي المشناه، والمقصـود من «كتبناها» ما كتبه الأنبياء من كتابات مقدسة يتناقلها اليهود والمقصود من «لتعلّمها لهم». أي الحجارة، وهذا يدل على أن هذا كلـه أعطي لموسى في طور سيناء»[2]. ويضيف اليهود أن المشناه تناقله عن موسى أربعون «مستقبلون» جيلاً عن جيل حتى جاء الحاخام يهوذا هاناسي المقدس.

أبحاث المشناه: يتألف المشناه من ستة مباحث: الأول، يتعلق بالحياة الزراعية والبذور. والثاني، بالأعياد والمواسم والصيام. والثالث، بالنساء وفيه قوانين الخطوبة والزواج والطلاق. والرابع، يتحدث عن التعويضات ويعرض الفقه المدني والجزائي المتعلق بها والقواعد الأخلاقية التي يضمها فصل الآباء. والخامس، يتحدث عن المقدسات والذبائح والقرابين والأضاحي وقوانين الصلاة. والسادس والأخير، وهو قسم الطهارة وفي كل قسم أبواب وفصول فرعية.

(ب) **الجمارة Gemara**:

ومعناها التغير. وهو كتاب مخصص لشرح القوانين ومناقشتها، وسرد القصص والأمثلة للتدليل على معانيها وغير ذلك. وقد كُتب معظمه بالآرامية. وهو من وضع الرّباني يهوذا هاناسي وولديه «جامائيل» و «سيمون» ثم تابع العمل الحاخام آشي (365 - 427 م)، وأكمله الحاخام آبينو أو رابينا، ووضعه في

---

(1) الخروج: 12/24.
(2) من كتاب الأدب العبري/ ترجمة د. جوزيف باركلي.

قومه، عندما وجدهم يعبدون العجل الذهبي، ويرقصون حوله بعد أن عاد إليهم من عند حضرة الله.

جاء في التوراة: «وكتب على اللوحين كلمات العهد، الكلمات العشر»[6]. ويذكر الباحثون أن الشريعة التي كُتبت على لوحي الحجر اختفت ولم يبق لها أثر. وقد كتبت باللغة الهيروغليفية التي كان يتقنها موسى بعد خروجه من مصر، كما أُنزِلت التوراة على موسى التي تقوم على مبادىء ديانة أخناتون التوحيدية باللغة المصرية المذكورة نفسها..

5 - القَبالة Cabala:

مجموعة باطنية من الحِكَم التي لها علاقة بأسرار الكون وبالإله والكائنات الأخرى، ظهرت على يد عدد من أحبار اليهود الذين تأثروا بالآراء الشرقية، ودين زرادشت، ونشأت عنهم حركة سميت «الحكمة المستورة»، وصارت تعرف عند اليهود بالقَبالة، وهي كلمة آرامية تعني القبول أو التصوّف.

وهذا الكتاب وضعه الكاتب «موسى ليون» وهو من كتب التوعية عند اليهود، وقد كتبه باللغة الكلدانية القديمة، لكنه أنكر تأليفه، وزعم أنه عثر عليه في إحدى خزائن الكنيس القديم، وادّعى أنه من أقدم الكتب الدينية التي يعود عهدها لزمن ظهور موسى عليه السلام، لذلك أدخله اليهود ضمن مجموعة كتبهم المقدسة السرّية.

وبالرغم مما أخذته القبالة من الزرادشتية، إلا أنها بقيت في جوهرها موسويّة يهودية، ويدّعي القباليون أن سفر التكوين عندهم مستمد من موسى، وأن موسى استمدّه من إبراهيم، إذا لم يكن من آدم، أو ممن هم أقدم من آدم، وأعلى مقاماً.. ويجمع الباحثون على أنه كتاب شيطاني يبحث في أمور مختلفة، وعلى الأخص في الخرافات والسحر والتنجيم، وأمور قذرة أخرى، بينما يدّعي مؤلفه أنه التفسير الحقيقي للتوراة.

---

(1) سفر الخروج: 34.

يذكر المؤرخ جواد اتيلهان في كتابه «الإسلام وبني إسرائيل» بأن القبالة يتألف من جزأين:

1 ـ سفر زوراح ويبحث عن الشياطين والجن والتنجيم والسحر والشعوذة..

2 ـ سفر باتريراح ويبحث في الطقوس الدينية السريّة وشؤونها. مثل الخبز المعجون بدم أعداء اليهود، وأساليب القتل والتعذيب، وعبادة العجل الذهبي وغير ذلك..

6 ـ الزوهر:

هو كتاب وضعه موسى الليوني (1250 - 1305 م) وهو كلمة آرامية تعني النور أو الضياء، والتسمية مأخوذة من التوراة.

يحتوي هذا الكتاب على مجموعة أدبية، وشعائر صوفية، وحِكَم ترجع إلى زمن الحاخام «سمعان بن يوشاي» من القرن الثاني للميلاد، وهو الذي قيل عنه أنه بقي مختفياً في إحدى مغاور فلسطين مدة ثلاث عشرة سنة، كشفت له خلالها أسرار السماء والأرض، وتتصل أسرار الزوهر بالتوراة. وكل كلمة أو حرف من حروفها يحمل باعتقاد القباليين معنىً باطنياً، والحياة في عرف الزوهر صراع بين الخير والشر.

من أساطير الزوهر: أن الإثنين والعشرين حرفاً من الأبجدية العبرية المشتقة من الآرامية نزلت من السماء قبل الخليقة بستة وعشرين جيلاً، وأنها نقشت بنار ملتهبة...

7 ـ الأنبياء:

1 ـ إبراهيم الخليل عليه السلام «أبو الأنبياء»:

يعد اليهود النبي إبراهيم عليه السلام جدهم الأول، ونبيهم الأكبر، فهم أبناء إسرائيل «يعقوب» بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام، فقد اختاروا أن

يكونوا أفضل نسل لأقدس شخصية عرفها التاريخ حينذاك، فقد كان إبراهيم موضع احترام وإجلال وتقدير، وقد دعا إلى عبادة الله الواحد، وترك عبادة الأصنام والوثنية، وحطمها بيده، وعرض نفسه للهلاك في سبيل عقيدة التوحيد، وقد كان نبياً صادقاً وفياً. قال تعالى: ﴿**واذكر في الكتاب إبراهيم، إنه كان صديقاً نبياً**﴾[1].

فاليهود يعدونه جدهم وحدهم، وإليه يعيدون نسبهم وأصلهم، وعلى هذا الأساس كتبوا تاريخهم في أسفارهم، على أنهم شعب طيب، من منبت طيب وأصل كريم، وهم وحدهم الشعب الذي اختاره الله من بين جميع شعوب الأرض، ودفّق عليهم الخير والبركات، بينما كان نصيب الشعوب الأخرى العبودية والذل وتدفق الويل واللعنات، هكذا يتصورون، وهكذا يعتقدون وهكذا يكتبون.. ورد في سفر التكوين سرد لقصة الخلق بشكل مقتضب فيه اختزال لتسلسل البشر. يحذفون منه ما يريدون، ويختارون ما يشاؤون، من الأصول من عهد آدم عليه السلام وحتى أبناء يعقوب، ليظهروا أنفسهم أنهم الأسياد المفضلين، وأن غيرهم من البشر هم الأدنى وقد أخذتهم الأنانية، والغرور بالعزة، وتفوق العنصر، متعامين عن كل البشرية ومستواها الإنساني. قال تعالى: ﴿**يا أهل الكتاب لِـمَ تُلبِسون الحق بالباطل، وتكتمون الحق وأنتم تعلمون**﴾[2]. إنهم يحاجون في إبراهيم ويرجعون أصولهم إليه وقد أُنزِلت كتبهم ورسالتهم بعد إبراهيم بزمن بعيد. فقد كتبت التوراة بعد إبراهيم بألف وثلاثمائة سنة وكتبت بعد موسى بأكثر من سبعة قرون. قال تعالى: ﴿**يا أهل الكتاب لِمَ تحاجّون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون**﴾[3].

فهل كان إبراهيم يهودياً، واليهودية لم تنزل بعد كدين من عند الله؟ وبين إبراهيم وموسى أكثر من 575 سنة[4]. وهل كان إبراهيم نصرانياً، والنصرانية لم

---

(1) سورة مريم، آية: 41.
(2) سورة آل عمران، آية: 71.
(3) سورة آل عمران، آية: 65.
(4) المسعودي مروج الذهب.

تنزل بعد كدين من عند الله؟ قال جل شأنه: **﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾**[1]. لقد كان لإبراهيم أكثر من زوجة وله أكثر من ولد، وكان إبراهيم لكل أولاده، فكانت زوجته هاجر وابنهما إسماعيل «جد العرب» وهو جد النبي محمد ﷺ. وكانت زوجته سارة وابنهما إسحق الذي رُزق يعقوب «إسرائيل»، وإليه ينتسب الأسباط، وظهر منهم أنبياء كثيرون، كان آخرهم عيسى بن مريم الذي قال لأتباعه: «أبوكم إبراهيم تهلّل بأن يرى يومي، فرأى وفرح»[2].

وجاء في التوراة أن إبراهيم اتخذ زوجة أخرى اسمها «قطورة»، فولدت له: زمران، ويقشان وقدان، ومديان، ويشباق، وشوحا..» ثم تزوج بعدها «حجون بنت أمين» فولدت له خمسة هم: كيسان، وسورج، وأميم، ولوطان، ونافس، كما ذكره أبو القاسم السهيلي في كتابه التعريف والأعلام... وهؤلاء جميعاً من نسل إبراهيم وهو جدهم كلهم، لكن اليهود يعتقدون أن إبراهيم أعطى إسحق كل ما كان له، وأما بنو السّراري التي كانت لإبراهيم فأعطاهم عطايا، وصرفهم عن إسحق ابنه شرقاً إلى أرض المشرق، وهو بعدُ حيّ[3].

جاء في كتاب الله ما يؤكد أبوة إبراهيم للأنبياء الذين خلفوه. قال تعالى: **﴿ووهبنا له إسحق ويعقوب كلًا هدينا، ونوحاً هدينا من قبل، ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، وكذلك نجزي المحسنين، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وكل من الصالحين وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين﴾**[4].

وقال كذلك: **﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم﴾**[5]. وجاء في قوله تعالى

---

(1) سورة آل عمران، آ: 67.
(2) يوحنا: 8 - 65.
(3) التكوين: 25.
(4) سورة الأنعام، آية: 84 - 86.
(5) سورة آل عمران، آ: 33.

شعيب، ثماني سنوات أو عشراً، حيث تزوج من (صفّورة) صُغرى ابنتي الشيخ الكبير وولد له ابنان. وفي هذه الفترة مات فرعون مصر[1]. . وعندما أراد العودة إلى مصر، سأل امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ومواشيه ما يعيشان به، فأخذ ما قدر الله له، وتوجه مع أهله إلى سيناء، في جانب الطور، حيث كلمه الله في الوادي المقدس، وبدأت الدعوة النبوية. . .

بدء الدعوة: تلقى موسى الوحي في سيناء على نار العوسج، وعاد بألواحه وفيها قانون شريعته، جاء في قوله تعالى: **﴿فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلّي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون، فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أنْ يا موسى إنّي أنا الله رب العالمين وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولّى مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملأيه إنهم كانوا قوماً فاسقين. . .﴾**[2]. وفي موضع آخر يذكّرنا جل شأنه بقوله تعالى: **﴿فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربُّك فاخلع نعليك إنّك بالواد المقدّس طُوىً وأنا اخترتك فاستمع لما يُوحى إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذِكْري إن الساعة آتية أكاد أخفيها لِتُجْزىٰ كل نفس بما تَسْعى فلا يصدّنك عنها من لا يُؤمن بها واتّبع هواه فتردى﴾**[3]. . هذا وحي من الله إلى موسى، بلغه الدعوة وأعطاه المعجزة آيتين وهما: أن يُلقي عصاه فإذا هي حيّة تسعى، وأن يضع يده في جيبه تخرج بيضاء من غير سوء وأمره بالتوجه إلى فرعون مصر قائلاً: **﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾**[4]. . وأن يدعو فرعون وملائه لعبادة الله وحده، ولكن موسى خاف من فرعون مصر لأنه كان قد قتل نفساً فيها

(1) الفرعون: هو رمسيس وهو فرعون الطغيان والاضطهاد، حكم (67) سنة من 1301 إلى 1235 ق. م.

(2) سورة القصص، آ: 29-32.

(3) سورة طه، آ: 11 - 16.

(4) سورة طه، آ: 24.

وطلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون، وكان له ذلك. . قال تعالى: ﴿قال رب إنّي قتلتُ منهم نفساً فأخاف أن يَقتلُون وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدّقني إني أخاف أن يكذّبون. قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا. أنتما ومن تبعكما الغالبون﴾[1]. . فتوجها معاً إلى فرعون مصر «وكان عمر موسى حينذاك 80 عاماً وعمر هارون 83 عندما تحدثا إلى فرعون»[2]. . وطلبا منه بكلام ليّن أن يفك أسارى بني إسرائيل من قبضته وسطوته، وأن يتركهم يعبدون ربهم ويوحّدونه، لكن فرعون طغى وتكبّر، وزعم أنه هو الإله الأكبر، واستنكر اسم الله ووجوده، مخاطباً موسى وهارون: ﴿وما ربّ العالمين﴾[3]. . عند ذلك ألقى موسى برهان ربه وقدم معجزته وجاءه بالشيء المبين، قال تعالى: ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين. ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾[4]. . ومع ذلك لم يؤمن برب العالمين وقال لهما بعد أن كذّب وتولّى ﴿قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[5]. . لم يصدقهما فرعون، واعتبرهما قومه أنهما ساحران، واجتمع سحرة فرعون من كل حدب وصوب، والكل ألقى ما عنده، وألقى موسى عصاه المعجزة فإذا هي تلقف ما يأفكون، فوقع الحق، وبطل ما كانوا يعملون، وألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون. . لقد انقلب السحر على الساحر، وحق الحق وزهق الباطل. . ولم يؤمن فرعون: ﴿وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلّي أبلغ الأسباب أسباب السموات فاطّلع إلى إله موسى، وإني لأظنه كاذباً﴾[6]. .

ويخاطب فرعون قومه، وهو في طغيانه وضلاله، قائلاً: «ما علمت لكم من إله غيري»، ثم أمر الله تعالى موسى أن يخرج من مصر مع بني إسرائيل

---

(1) سورة القصص، آية: 33-35.
(2) سفر الخروج: 7.
(3) سورة الشعراء، آية: 23.
(4) سورة الأعراف، آية: 107.
(5) سورة طه، آية: 50.
(6) سورة غافر، آية: 36-37.

قول بني إسرائيل لنبيِّهم الذي أنقذهم من ظلم فرعون وتسلّطه، الذي أورثهم الذل والخنوع فنفوسهم صغيرة وقلوبهم ضعيفة، لا يقدرون على المجابهة أو القتال. لذلك حرّم الله عليهم دخول أرض فلسطين، وحكم عليهم بالضياع في أرض سيناء مدة أربعين سنة يتيهون ﴿**قال فإنها محرّمةٌ عليهم أربعينَ سنة يتيهون في الأرض، فلا تأس على القوم الفاسقين**﴾[1].

هكذا أراد الله لهم، حتى يفنى الجيل الذي نشأ في الذل والاستعباد في أرض مصر، وينشأ جيل آخر أكثر قدرة وأصلب عوداً، لقد عاقبهم الله وهم ـ الشعب المختار ـ، لأنهم تركوا الجهاد، وخالفوا أوامر نبيِّهم، وأشركوا بالله، وحكم عليهم بالتيهان والضلال في الأرض يسيرون بدون هدف ومن غير قصد، ويقال إن جميع من كانوا في التّيه لم يخرجوا بل ماتوا، ولم يبق منهم إلا ذراريهم، وبقي معهم يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا[2].

تقول التوراة أن موسى توفي وأرض الميعاد على مرأى منه[3] وأن يشوع بن نون هو الذي قاد حملات الغزو الإسرائيلي الأول إلى فلسطين على شكل حملات متتالية وعبروا نهر الأردن وملكوا أريحا وما بعدها من الأرض غرب النهر فترة من الزمن. . .

8 ـ يَهْوَهْ «إلٰه التوراة»:

يهوه: في العبرية اسم علم للإلٰه الحقيقي، معناه «هو الذي يكون»، وقد ترجم بلفظ الرب، ويفسره بعض العلماء بأن معناه «هو الذي يوجد» أي الخالق، ويفسره آخرون بأن يَهْوَه من هوى في العربية التي منها الهواء، ومعناه «يسري في الأهوية»، أي يهبّ، فهو إلٰه العاصفة. .

---

(1) سورة المائدة، آية: 26.

(2) كالب بن يوفنا زوج مريم أخت موسى وهارون.

(3) يقال إن الله أمر موسى أن يذهب إلى جبل «نبو» وأن ينظر إلى الأرض المقدسة ولا يدخلها، وهناك مات ودفن على الفسجة وهي الكثيب الأحمر. وأما هارون فقد توفي قبل موسى في جبل «هور» ودفنه موسى هناك.

ويرد في العهد القديم باسم يهوه، والله، وإله، ورب، وجميعها لها مدلول واحد يدل على الإله يهوه، إله القبيلة الإسرائيلية، الذي أعلن توراته بلسان موسى في صحراء سيناء، حسبما ورد في التوراة. . . فيَهْوَه إله شعب بدوي قبلي، وهو إله حربٍ إقليمي، اتخذه موسى إلهاً يضع أوامره وأحكامه على لسانه ليكتسب صفة القدسية، وفرض عبادته على قومه بني إسرائيل بالإرهاب الذي ما يزالون يتّبعونه كأسلوب في تثبيت دعائم كيانهم ووجودهم. .

وهو إله محجوب عن عيون البشر، لا يُصوّر بأية صورة، ليس له مسكن ثابت، يوجد في كل مكان، لا أسرة له، وهو ليس بذكر أو أنثى، عَقد عهداً خاصاً مع إسرائيل وجعل منهم شعبه المختار الخاص به، وعلّمهم العداء للشعوب وأثار فيهم روح التعصّب والتفوّق والتميّز العنصري، فهو يقول: «أتّخِذُكُم لي شعباً، وأكون لكم إلهاً، أنا يَهْوَه الذي ميّزكم من الشعوب. . » إنه إله التوراة. . وكان يظهر وسط السحب بدون معبد أو مذبح، وتظهر قوته في البرق والعاصفة، وهو يقود شعبه في ترحالهم مستقراً فوق «تابوت العهد»[1].

وقد وصف يهوه بأنه إله مجرّد، لا تمثيل مادّي له، فهو ليس بالوثن ولا بالصنم، ولا يمثل مظهراً من مظاهر الطبيعة، وهو منزّه عن المادة، خالق كل شيء بكلمة منه، يتصرف بمخلوقاته كيف يشاء، وها هو يفصح عن نفسه مخاطباً موسى قائلاً: «أنا يَهْوَه، وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء، وأما اسمي يَهْوه فلم أُعرف عندهم، وأيضاً أقمت معهم عهدي أن أعطيهم أرض كنعان أرض غربتهم التي تغرّبوا فيها. وأنا قد سمعت أنين بني إسرائيل، الذين يستعبدهم المصريون، وتذكّرت في عهدي، لذلك قل لبني إسرائيل، أنا يَهْوَه، وأنا أُخرجكم من تحت أثقال المصريين، وأتخِذُكم لي شعباً، وأكون لكم إلهاً، وأدخلكم إلى الأرض التي رفعت يدي أن أعطيها

---

(1) تابوت العهد: وهو صندوق مصفح بالذهب يحمله بنو إسرائيل معهم فإذا استقر بهم المقام، وضعوه في «خيمة الاجتماع»، ولم تستبدل هذه الخيمة بمعبد إلّا حين جاء عصر سُليمان، الذي قدّم ليهوه أرفع آيات الإجلال ببناء المعبد المجيد في أورشليم. .

معهم... تقول التوراة: «ويَهْوه يطرد جميع الشعوب من أمامكم، فترثون شعوباً أكبر، وأعظم منكم، كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم، من البرية ولبنان، من نهر الفرات إلى البحر الغربي يكون تخمكم لا يقف إنسان في وجهكم، يهوه إلٰهكم يجعل خشيتكم ورعبكم على كل الأرض التي تدوسونها»[1] هكذا علّمهم يهوه، يذكر كتّابهم ما فعلوه في مدينة أريحا عندما دخلوها أول مرة.. «وأبْسِلوا جميع ما في المدينة، من رجل وامرأة، وطفل وشيخ، حتى البقرِ والغنم والحمير بحدّ السيف»[2] وهذا ما فعله يوشع بن نون عندما دخلها غازياً.

هذه المبادىء الدينية التي يعتقدون بها ويهتدون بهديها، فهم يفسدون في الأرض حيث حلّوا ويُبيدون أبناء البشرية أينما وجدوا دون تمييز بين صغير أو كبير فهم يعملون بوصايا الرب يهوه، وتنفيذ أحكامه التي تنحصر في إبادة شعوب الأرض، وتدمير مظاهر الحياة الحضارية غايتهم الملك والتملك، يقول الرب: «حين تقرب من مدينة لكي تحاربها، استدعها إلى الصلح، فإنْ أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير، ويُسْتَعْبَدُ لك، وإنْ لم تسالمك، بل عملت معها حرباً، فحاصِرْها، وإذا دفعها الرب إلٰهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم، وكل ما في المدينة فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلٰهك، هكذا افعلْ بجميع المدن البعيدة منك جداً، التي ليست من مدن هؤلاء الأمم، وأما مدن هؤلاء الشعوبِ التي يعطيك يَهْوه إلٰهك نصيباً، فلا تستبْقِ منها نسمة ما بل تحرّمها تحريماً»[3].

كل شيء في نظر يهوه مباح، القتل والإبادة، التدمير والتشريد، والاقتلاع من الجذور... لكل شعوب الأرض، حتى أن قومه اليهود لم يسلموا من غضبه، ومن شره، ومن بطشه، فعندما تكلم القوم على الرب وعلى موسى،

---

(1) سفر التثنية: 11.
(2) سفر يشوع: 6.
(3) سفر التثنية: 20.

عندما سباهم ملك عراد الكنعاني، سخط عليهم يهوه، لأنهم يخالفون مشيئته، ويتمرّدون عليه وعلى موسى أيضاً فهو يغضب منهم ويرسل إليهم الآفات كالحيّات وغيرها «فأرسل الرب على الشعب الحيّات المحرقة، فلدغت الشعب فمات قوم كثيرون من إسرائيل». أو يرسل الزنابير على الشعوب التي تخالف أوامره حتى يفنيها تماماً.

ما أكثر الآيات في كتاب التوراة التي تفيد البطش والإرهاب والتهديد بالموت وسفك الدماء، فلْنستمع: «الآن إذن، أضرب أمامك، واحظر عليه كل ما يملك، لا تترك له شيئاً، اقتل الكل: الرجال والنساء والأطفال والرضّع، والأبقار والخراف والجمال والحمير». هكذا سوّغت لهم توراتهم، وألصقوا كل أعمالهم الحقيرة اللاأخلاقية، واللاإنسانية بربهم يهوه الذي يصدر أوامره وكأنه في غرفة عمليات حربية يقود معركة، ويشنّ هجوماً، يقول: «يهوه كلّمَنا في حوريب قائلاً: كفاكم قعود.. ارتحلوا وادخلوا جبل الآموريين، تملكوا الأرض.. اصعد، تملّك، الرب يحارب عنكم.. قال الرب لي: لا تصعدوا ولا تحاربوا لأني لست في وسطكم، كفاكم دوران بهذا الجبل.. تحولوا نحو الشمال.. قال الرب: قوموا واعبروا وادي زارد.. قوموا واعبروا وادي أرنون.. دفعْ الرب ملك حشبون وأرضه.. ابتدىء تملّك، ودفع ملك باشان.. قال الرب لموسى لا تعد تكلّمني في هذا الأمر».

هذا هو يهوه، يرسل الحياة، ويرسل الزنابير، ويسلط الأمراض والآفات، ويطرد الشعوب ويقتل الأطفال والشيوخ، ويقتلع الأشجار، ويقتل الحمير، ويقاتل على كل الجبهات... إنه غرور الآلهة يتجسّد في ذات يهوه، الذي اختار شعباً وأراد له التفوق والانتصار على كل شعوب الأرض، فهو الملك القاهرَ القوي يعدُهم بالحماية والبقاء. ويعدهم بتمليك أرض الآخرين واستلاب أموالهم. وهو الذي يفجّر المياه لقومه من قلب الصخر إذا عطشوا، وينزل المن والسلوى إذا جاعوا. وتنطق التوراة باسم موسى أيضاً فهذا هو يوصي قومه ويعطيهم خطة الغزو والإرهاب لمتابعة تنفيذها بعد موته. يقول مخاطباً جميع بني إسرائيل: «أنا اليوم ابن مئة وعشرين سنة لا أستطيع الخروج والدخول بعد،

إبراهيم، وجدده مع إسحق ثم جدده مع يعقوب، الوعد بالذريَّة الكثيرة والأرض الواسعة. . وتذكر التوراة أن هذا الوعد كان في بدايته وعداً لقبيلة بدوية متنقلة، لا تملك أرضاً، ولا تعرف استقراراً، فوعدهم الرب أن يقيموا في أرض كنعان ـ حصراً ـ إلى جانب أهلها وجيرتهم وكنفهم، تقول التوراة: «وقد قطع الرب مع أبرام ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير»[1]. . أي من النيل إلى الفرات، هذه بدعة ابتدعوها، وأسطورة اختلقوها، وكذبة افتروها وصدقوها، وأعلنوها بأن حدودهم ستكون من الفرات إلى النيل، فعندما أُعطي هذا الوعد لإبراهيم ـ حسب زعمهم ـ لم يكن له ذرية ولا نسل، ولا ولد، وكانت امرأته عاقراً وهو شيخ كبير. فلمن الأرض إذاً؟

وفي موضع آخر تعود التوراة وتؤكد وعد الرب لأبرام: «أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها»[2]. إن الله أخرج إبراهيم من أور لأن فيها قوماً فاسدين ظلموا إبراهيم وحرقوه. . . وعندما خرج لم يكن معه إلا زوجته سارة، وابن أخيه لوط، وبعض عبيده فقط، ولم يكن يهودياً، بل كان حنيفاً مسلماً، وكان عمره حينذاك 75 سنة، ثم وصل إلى أرض كنعان بناء على أمر ربه. كما تدعي التوراة.

تقول التوراة: «وكان الكنعانيين حينذاك في الأرض»[3]. إذن لم تكن الأرض بلا شعب كما يزعمون دائماً، ولم يكن هناك شعبٌ موجود باسم إسرائيل أو اليهود في عهد إبراهيم. وبين إبراهيم وموسى أكثر من 575 سنة. . فقد كانت أرض كنعان عامرة بالحياة يسودها النظام والحضارة، وكانت تفيض لبناً وعسلاً قبل الغزو الإسرائيلي الأول لها بزمن بعيد. .

وقد وصفتها التوراة: «بأنها أرض صالحة، ذات أنهار وعيون، يتفجر الماء في غورها ونجدها، وتسقيها مياه المطر أيضاً، أرض حنطة وشعير، وكرم وتين، وزيت وعسل، أرض في حجارتها الحديد، وفي جبالها تقطع النحاس، أرض

---

(1) و (2) التكوين: 15.
(3) التكوين: 12.

تدر لبناً وعسلاً. ذات مدن عظيمة وحسنةً». هكذا كانت فلسطين، وهكذا هي اليوم.

عاش إبراهيم عيشة بدوية متنقلة في جيرة أهلها وكنفهم نحو مئة سنة، ولم يكن له فيها حسب ونسب ولا أصل له فيها ولا جذور، فهو آرامي منبتاً وثقافة وعقيدة. تقول التوراة: «وتغرّب إبراهيم في أرض الفلسطينيين أياماً كثيرة»[1]. فإبراهيم كان غريباً في أرض فلسطين ولم يكن من أهل البلاد أصلاً. وقد رزقه الله في شيخوخته أولاداً وحفداء من أكثر من زوجة، عاشوا جميعاً حياة بدوية راحلة، في جيرة أهل فلسطين وكنفهم، ولم يكن لهم أي ملك أو كيان أو قرار. ثم تطور الوعد التوراتي بالإقامة المؤقتة إلى وعد ذي أبعاد قومية لتبرير غزواتهم المتكررة على أرض الجوار، وأخذهم الغرور والصلف بأنهم شعب الله المختار، الشعب السيد في كل المناطق المحصورة بين «نهر مصر والنهر الكبير - نهر الفرات».

وتوسع الوعد على لسان الرب ليشمل جميع قبائل الأرض: «وقال لرب لأبرام: اذهب من أرضك ومن عشيرتك، ومن بيت أبيك، إلى الأرض التي أريك، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك، وأُعظّم اسمك، وتكون بركة، وأبارك مُباركيك، ولاعِنَك أَلْعَنُه، وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض»[2]. على أرض فلسطين فقط كان يتجدد الوعد، ويتأكد العهد، تقول التوراة: «ظهر الرب لأبرام، وقال: لنسلك أعطي هذه الأرض، فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له»[3]. فمن هم نسله؟ ولماذا لا يكون نسله كل أولاده؟ ولماذا تكون الأرض لنسله من إسحق ولا تكون لنسله من إسماعيل الابن الأكبر والأول في كل أولاد إبراهيم. قال تعالى: **﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾**[4] فالله المتعالي على كل الماديات لم يذكر في كتبه أنه

---

(1) التكوين: 21.
(2) التكوين: 12.
(3) التكوين: 12.
(4) سورة الأنبياء: 105.

خصّ شعباً دون آخر، وملكه أرضاً على حساب غيره، والأنبياء لا يورثون. . . وحسب الرواية التوراتية لم يثبت إبراهيم على أرض كنعان، فهي تقول: «ثم ارتحل أبرام ارتحالاً متوالياً نحو الجنوب»[1].

لقد غادر فلسطين بمجرد الجوع الذي لحق به، بسبب القحط الذي أصاب أرض كنعان ولم يثبت بها فتوجه إلى مصر وقابل فرعونها، وكانت قصة زوجته سارة مع فرعون. . ولكن فرعون مصر كرّمه وأجزل له العطاء.

«وعاد إبراهيم من مصر محملاً بالهدايا مع لوط ابن أخيه ثم افترقا لخلاف حصل بينهما، قال أبرام اعتزل عني فإن ذهبت شمالاً فأنا يميناً، وإن يميناً فأنا شمالاً»[2]. لقد افترقا ليس لخلاف على مبدأ أو عقيدة وإنما لكثرة مواشيهما وقلة المراعي في سدوم جنوبي البحر الميت، وكان الاعتزال اختياراً للوط وليس لإبراهيم.

10 ـ من هو اليهودي:

لم يتفق اليهود حتى أيامنا هذه على وضع تعريف عملي لليهودي في دستورهم غير الموجود، والذي يقوم على أساسه بناء الدولة الصهيونية اليهودية، وعليه وضع قانون العودة الذي يدفع أفواج اليهود إلى أرض فلسطين «أرض الميعاد» والذي ينص على أنه: «يحق لكل يهودي أن يهاجر إلى إسرائيل» لكن من هو اليهودي الذي ينطبق عليه هذا القانون؟

وورد في تعليمات إسرائيلية صدرت على شكل قانون في عام (1960 م) يسجل يهودياً في حقلي الديانة والجنسية في سجلات الحالة المدنية ممن تتوفر فيه الشروط التالية:

1 ـ من ولد من أم يهودية ولا يعتنق ديناً آخر.
2 ـ من اعتنق اليهودية وفقاً لشروط مفروضة.

---

(1) التكوين: 12.
(2) التكوين: 13.

فالدين والجنسية عند اليهودي شيء واحد وهذا أمر غير معروف لشعب من شعوب الأرض، أن يكون دينه هو جنسيته وقوميته، فالصهيونية قائمة في اليهودية وهما وجهان لعملة إسرائيلية واحدة، وقد أقر مؤتمر الكتاب اليهودي أن «كل يهودي صهيوني» والمعيار العرقي عندهم قائم على العنصرية المتميزة بانتقال الدم من الأم وليس من الأب، وقائم كذلك على أساس الدين واعتناق اليهودية حتماً. ولا يحق لأي شخص دخول اليهودية إلا بموافقة حاخام من الأصوليين اليهود.

فمن منهم اليهودي؟ ينسب العرق والدم الوراثي عند اليهود إلى الأم، وإذا كانت الأم غير يهودية فالابن ليس يهودياً بالطبع، وكذلك الآباء والأحفاد.

ومن خلال استعراض ما كتب في التوراة عن زوجات أنبياء بني إسرائيل، اللواتي هنّ أمهات أبنائهن.. نجد أن معظم أمهاتهم لسن من بني إسرائيل ولسن من اليهود أصلاً. إنما يرجعن إلى أصول غير يهودية، فمن منهم اليهودي ابن اليهودية إذن؟؟؟

فإبراهيم عليه السلام الذي يدّعون باطلاً الانتساب إليه لم يكن يهودياً في يوم من الأيام، بل هو من أصل كلداني من مدينة أور هو وزوجته سارة أم إسحق، كما مر معنا. وتزوج إسحق ابنهما من رِفعة بنت بتوئيل الآرامي أخت لابان الآرامي من فدّان أرام في بلاد الرافدين[1]، وهي ليست يهودية الأصل.. وولدت له عيسو ويعقوب. وتزوج عيسو من يهوديت ابنة بيري الحثي وهي حثية الأصل ومن بسمة ابنة ايلون وهي حثية الأصل أيضاً. كما تزوج مَحْلة ابنة عمه إسماعيل. وتزوج يعقوب من لَيئة وراحيل ابنتي خاله لابان الآرامي وهو ليس يهودياً، وتزوج من زِلفة جارية ليئة ومن بَلْهة جارية راحيل فولدن له الأسباط الاثني عشر.

وقد تزوج يهوذا ابنة رجل كنعاني اسمه «شوع» وولدت له ثلاثة أبناء.

---

(1) التكوين: 22.

وتزوج موسى من «صفورة» ابنة شعيب من بلاد مدين، ورزق منها ولدان.

وتذكر التوراة كيف أحب داوود زوجة اوريا الحثي وكانت كنعانية وتزوجها وأنجبت له سليمان. وتزوج سليمان العديد من النساء من غير الإسرائيليات. تقول التوراة: «وأحبّ الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون، مؤابيّات، وعمّونيات، وآدميّات، وصيدونيّات، وحثيّات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل «لا تدخلوا إليهم، وهم لا يدخلون إليكم، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة، وكانت له سبعمئة من النساء والسيدات، وثلاثمئة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه[1].

فمن منهم اليهودي الأصل حسب دستور اليهود؟.

11 ـ الصهيونية العنصرية:

الصهيونية أم الخبائث، حركة عنصرية عرقية تقوم على مبدأ التمييز العنصري والتفوق العرقي.. وهي حركة دينية سياسية تقوم على أساس التوسع والعدوان والاغتصاب. كما أنها دعوة قومية تستند في دعواها إلى وعد الرب لآباء اليهود، بتمليكهم أرض كنعان وما حولها، وإخضاع شعوب العالم كلها لهم.. وهم يعتقدون دائماً وأبداً «أن كل يهودي صهيوني» وقد أخذوا اسمهم من صهيون، وهي قطعة من مدينة القدس حددت في العهد القديم على أنها مدينة داوود. وجبل صهيون يعني هو جبل الرب الذي توجد فيه محافل الملائكة، وعليهم عبادة إلٰههم عليه، وهو مقدس في نظر اليهود.. فلا صهيونية بدون يهودية، ولا يهودية بدون صهيونية. وهم يفسرون توراتهم وفق أهوائهم، وعلى نحو تعسفي باطل، فهم يزيفون إرادة الله، ويسوّغون سياسة الإرهاب والتوسع الدائم بنصوص توراتية، كتبوها وفق ما تقتضيه مصلحتهم.. يستمدون منها الأعذار لكل وسائل القتل والإرهاب، والتشريد والدمار، التي تمارسها عصاباتهم في القديم وفي الحديث.. إن كل ما ورد في توراتهم من وعود

(1) الملوك الأول: 11.

بمنحهم أرض كنعان، وبأنهم شعب الله المختار، وأنهم صفوة الشعوب بأسرها.. وما شابه ذلك من أساطير خرافية، ومن ترّهات وأباطيل.. إن هي إلا من نسج الخيال ومن ترتيب كهنة اليهود وكتبة التوراة وتصوراتهم.. فهم يذكرون أن «يهوه» إله التوراة أراد تأسيس مملكته في فلسطين، وأراد أن يعمر بيته على جبل صهيون.. كما أراد أن تأتي إليه كل أمم الأرض لتقديم الطاعة والخضوع، وفي اعتقادهم بأنه لن يمر وقت طويل حتى تتحقق نبوءتهم القائلة: «سيخضع اليهودي شعوب الأرض جميعها ويصبح سيدها المطاع». وتؤكد نصوص التوراة على المواقف التالية:

إن رب إسرائيل قد منح بني إسرائيل جميع أراضي فلسطين وجميع الأراضي الأخرى الممتدة من الفرات إلى النيل..

وإن الإسرائيليين شعب الله المختار والمقدس دون شعوب العالم..

وإن الرب قد جعل شعوب العالم عبيداً لهم فهي تقول: «وبنو الغريب يبنون أسوارك وملوكهم يخدمونك، ليؤتى إليك بغنى الأمم، وتُقاد ملوكهم، لأن الأمة والمملكة التي لا تخدمك تبيد، وخراباً تخرب الأمم»[1].

وتؤكد على أن من حقهم إبادة جميع طوائف فلسطين، ذكوراً وإناثاً، صغاراً وكباراً، وهم بهذا المنطق العقيم والتمييز العرقي الفاضح يتصرفون داخل أرض فلسطين اليوم، بممارستهم القتل والإرهاب والموت وكل أصناف العذاب... وجاء في التلمود ما يؤكد زعمهم وادعاءهم الباطل الوارد في أسفار التوراة، فقد جاء فيه ما يلي:

يجب على بني إسرائيل قتل من أمكنهم من غير اليهود (الجوييم)، واغتصاب أموالهم وسرقتها.

إن الله قد منح السلطة لليهود على مقتنيات الشعوب..

إن أملاك غير اليهود تعتبر كالمال المتروك الذي يحق لليهودي امتلاكه..

(1) إشعيا: 60.

إن اليهود أحب إلى الله من الملائكة، وهم مَن عنصر الله، كالولد من عنصر أبيه..

من صفع يهودياً يكون كمن صفع الإله، والموت جزاء «الغوييم» إذا ضَرب يهودياً..

لولا اليهود لارتفعت البركة من الأرض، واحتُجبت الشمس، وانقطع المطر..

الغوييم كالكلاب والخنازير نجاسةً، وكحظائر البهائم بيوتهم، ويحرّم على اليهودي أن يعطف عليهم، وكل شر يفعله اليهودي معهم هو قُربى إلى الله.. والكثير الكثير...

هذا مصدر رئيس في ديانتهم، فهل هذه أوامر الله سبحانه وتعالى؟

إنّه منزّه عن كل ما يقولون أو يفعلون، وسبحانه عما يصفون، فهؤلاء ليسوا يهوداً، ولا يمتّون إلى دين اليهودية المنزل بصلة، إنهم صهاينة عنصريون وليسوا أصحاب دين سماوي. إن هذا التلمود اليهودي هو عنوان العنصرية، ورمز لخرافة التفوّق العرقي الذي تقرّه الصهيونية وتنهج نهجه، إنه مجتمع متوحش لا يعرف الأخلاق ولا الإنسانية، ومن تعاليم التلمود التي تدعو اليهود إلى الحقد والفساد، وإلى الوحشية والأنانية المقيتة:

- اقتل الصالح من غير الإسرائيليين.

- إن الله لا يغفر ذنباً ليهودي، يرد لأجنبي ماله المفقود.

- محرم على اليهودي أن ينقذ أحداً من باقي الأمم، من هلاك أو يخرجه من حفرة وقع فيها.

فالشر متأصل في نفوسهم والحقد يتطاير من عيونهم كُرهاً وبُغضاً لكل بني البشر. والصهاينة مسؤولون عن هلاك الكثير من الناس، الذين لا يعدّونهم سوى «رماد» ليس أكثر، ولا يستحقون حتى الأسف عليهم - حسب رأي أحد منظريهم - .

إن الصهيونية رمز العنصرية بل هي قمة العنصرية والتميز العنصري، باعتراف العالم كله، فقد أصدرت الجمعية العمومية للأمم المتحدة قراراً برقم 3379 لعام 1975 اعتبرت فيه الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية والتمييز العنصري.

حتى أنها جعلت الصهاينة أنفسهم فوق بعضهم درجات، أشبه بطبقات المجتمع الهندوسي في الهند، حيث ينقسم سكان إسرائيل إلى طبقات متميزة بفروق واضحة هي:

1 ـ الاشكيناز: وهم اليهود من أصل أوروبي غربي وهم السّادة، ومنهم الحكام والقادة.

2 ـ الصابرا «اليهود الشرقيون»: وهم اليهود من أصل فلسطيني أو عربي يقيمون في البلاد العربية، ومن إيران وأفغانستان وكردستان.

3 ـ السفارديين: وهم اليهود من أصل آسيوي إفريقي والذين يسمّونهم بإسرائيل احتقاراً لهم «اليهود السود» للتدليل على قربهم من العرب السمر، من حيث لون البشرة، وهم يتعرّضون إلى تمييز عنصري فاضح في كافة مجالات الحياة، لقد عاش أسلافهم في اسبانيا حتى طُرِدوا منها عام (1492 م)[1].

4 ـ ثم يأتي العرب وكل الغرباء من الغوييم، فهم في أسفل السلم الاجتماعي وليس لهم في القيادة نصيب... هذه هي المنطلقات التي يعتمدونها في إرساء قواعد الحركة الصهيونية وركائزها. فهم يعدون أن اليهود أمّة، وأنهم متفوقون كعرق سامي، وأنهم شعب الله المختار. ويتذلّلون للعالم بأن اليهود مضطهدون، وأنهم مظلومون، يستحقون عطف العالم وتأييده، وأنهم بحاجة إلى جمع شتاتهم في وطن قومي هو «أرض الميعاد».

ورد في مقدمة كتاب الكوزاري، الصادر بتوجيه شعبة التربية، التابعة

---

(1) فر اليهود من الأندلس إثر اضطهادهم في عهد فرديناند الخامس (1452 - 1516 م) وإيزابيلا الأولى (1451 - 1504 م) وقيام محاكم التفتيش، ورفض اليهود الكاثوليكية.

السنين وما زالت مثالاً، ناضل وعمل وتعذب ومات من أجله خيرة أعمال شعبنا». إن بذور الفكرة الصهيونية ظهرت إلى الوجود من خلال عوامل سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو روحية حديثة من أهمها:

ظهور «المسألة اليهودية» وتعني الصراع الديني بين اليهودية والمسيحية الأوروبية واضطهاد المسيحية لليهودية، مثل ما حدث في اسبانيا عام (1492 م) حيث قامت محاكم التفتيش لتجبر اليهود على اعتناق الكاثوليكية، أو الهجرة من اسبانيا، أو الموت الزؤام..

كما ساهم في ظهور الصهيونية قضية «الانغلاق اليهودي» في أحياء «الغيتو»[1] الخاصة بهم والمفروضة عليهم من قبل المسيحيين الأوروبيين وما فرض عليهم من قيود قاهرة من الحكومات القيصرية بعد أن قام اليهود بتدبير اغتيال قيصر روسيا في عام (1881 م) فوقعت المذابح الشهيرة ضدهم مما أدى إلى هجرة واسعة خارج حدود روسيا وبولونيا القيصرية وإلى المزيد من انغلاق اليهود على أنفسهم في مدنهم وقراهم..

وفي عام (1880 م) تجدد نشاط الحركة المعادية لليهود «اللاسامية» في أوروبا الغربية وبخاصة في ألمانيا، بنتيجة الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي رافقت نمو الرأسمالية بعد الثورة الصناعية[2]. كل ذلك أدى بهم إلى التفكير في إظهار قوميتهم حتى لا يبقون مضطهدين أو منبوذين، يقول «موسى هيس» (1812 - 1875 م) أحد مفكري اليهود الألمان: «إذا ما استمر اليهودي في إنكار قوميته، وإذا ما استمر في إنكار انتمائه إلى شعب مضطهد ومنبوذ، فإن موقفه سيصبح غير محتمل، لقد اعتبرت الشعوب الأوروبية بأن وجود اليهود بينها شذوذ، وسوف نبقى غرباء بين الأمم إذا ظل اليهودي ينكر قوميته وانتماءه، وسوف لا يكتسب احترام الأمم التي يعيش بينها».

---

(1) كانت البندقية أول من أدخل نظام الغيتو في حياة اليهود عندما أصدر مجلسها عام (1516 م) أمراً يقضي على سكان المدينة بالسكن في حي مغلق خاص بهم، ثم انتشر في العالم.
(2) اليهودية والصهيونية ـ دراسات فتح.

.فأين هذه القومية التي يتحدث عنها؟ إن كل يهودي في أوروبا يحمل قومية البلد الذي ينتمي إليه ولا يحمل من عناصر القومية إلا الدين أي المظهر الروحي فقط.

ولذلك يرى بعضهم أن مفهوم الشعب الواحد، مرتبط بالجانب الروحي والفكري، ليس إلا.. يقول ب. سمولنسكين (1842 - 1885 م): «نحن شعب لأننا نعد أنفسنا بالروح، وبالفكر مرتبطين مع بعضنا بروابط الأخوة».. فأي ارتباط؟ وأي أخوة تجمع بين يهود الحبشة ويهود ألمانيا ويهود بولونيا، ويهود أميركا، ويهود الهند، ويهود الاتحاد السوفياتي، ويهود الصين؟ إنهم إخوة في الاضطهاد، وفي الضلال، وفي الفساد، فقد اضطهدتهم كل شعوب الدنيا، وألحقت بهم المصائب، لفجورهم، وجشعهم، وسوء أخلاقهم.. فلا وجود لشعب يهودي بالمعنى الصحيح ولا وجود لأمّة أو قومية يهودية بالمعنى الصحيح، يقول مونتاجو - وزير يهودي بريطاني - «لا توجد أمّة يهودية، ولا يصح القول إن اليهودي الإنكليزي واليهودي المغربي ينتميان إلى أمة واحدة» أما ماكس نورداو (1849 - 1923 م) وهو أحد دعاة الصهيونية البارزين فيوضح الفرق بين اليهودي الصهيوني واليهودي غير الصهيوني، فيقول: «النقطة الوحيدة التي تسبب عدم التفاهم بين الصهيونيين وغير الصهيونيين، هي مسألة القومية اليهودية، فمن لا يؤمن بأن اليهود أمّة ليس بصهيوني حتماً، ومن يؤمن بهذا يجب أن يتحوّل إلى صهيوني»[1].

ويجيبه ليوبنسكر وهو داعية صهيونية بارز أيضاً بقوله: «اليهود ليسوا أمة لأنهم يفتقرون إلى صفات قومية موجودة عند الأمم الأخرى، تلك الصفات الناجمة عن السكن معاً في بلد واحد، وتحت ظل حكم واحد. ولكن يجب عليهم إذا أرادوا التخلص من حالتهم المخزية أن يصبحوا أمة». إذن هي «عنزة ولو طارت» كما يقول المثل، ويجب أن يصبحوا أمة ولو بلا مقومات، ويجب أن يدخلوا التاريخ ولو رفضهم التاريخ خلال عمرهم، ويجب أن يكونوا دولة

---

(1) الفكرة الصهيونية، النصوص الأساسية، سلسلة كتب فلسطين. مركز أبحاث م. ت. ف.

التضحية عند اليهود لا تتعدّى نطاق «الأنا»، أما التضامن الذي تجده بينهم والذي يبدو قوياً، ليس أكثر من تجمّع زمني، أشبه بتجميع قطيع من الغنم، يواجه خطراً مشتركاً، أو أشبه بتجميع قطيع من الذئاب لمهاجمة الفريسة، فما أن تنتهي الوليمة حتى يتفرق المدْعوون واليهودي لا يعرف التضامن إلا في حالة الخطر، والتضامن هذا يصبح واجباً في حالتين: ـ تجاه العدو المشترك، ـ أو تجاه فريسة مشتركة، فإذا زالت مسببات التضامن يرجع اليهود إلى أنانيتهم، ويصبح همهم الوحيد الكيد والمؤامرات، ونهش بعضهم بعضاً».

إن كيدهم لمعلوم، وإن حقدهم لظاهر، وإن ذكرهم تتقزز منه النفوس البشرية.

وجاء كذلك: «إذا تمكن الشعب المختار يوماً أن ينشىء دولته اليهودية فستكون دون حدود لأن تحديد الدولة يفترض وجود مثالية لدى العرق الذي ينشئها، كما يفترض أن يكون مفهومه للعدل مبنياً على تقديرات صحيحة، وإذا فُقِد هذان الشرطان تخفق المحاولات لإيجاد دولة ذات حدود». فاليهود بحكم طبيعتهم ليسوا شعباً مثالياً، ولا هم يقدّرون العدل بوضع سليم، لأنهم عنصريون، وها هي «دولتهم» على كف عفريت وآيلة إلى السقوط بإذن الله.

جاء في الحديث الشريف: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتل المسلمون اليهود فيختبىء اليهودي وراء الشجر أو الحجر، فيقول يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي تعال فاقتلْه، إلا شجر الغرقد»[1].

وفي حديث موسى عليه السلام يقول: «أنا أعرف تمرّدكم، وقلوبكم الصلبة، إنكم بعد موتي تفسدون وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم، ويصيبكم الشر في آخر الأيام».

12 ـ عقدة الشعب المختار:

إن الحقد والأنانية والغيرة والكراهية التي تنبعث من نفوس الصهاينة

---

(1) رواه أبو هريرة.

جعلتهم ينظرون إلى باقي الشعوب على أنهم «جوييم»، وأنهم لا شيء في الوجود، وهم وحدهم الجيل الأفضل والعنصر الأمجد، وهم الشعب الذي اختاره الله وفضّله على العالمين، لذلك فهم يرتّبون تسلسل العرق والنسب، ويختارون من النسل ما يريدون، وفق ما يبتغون، منذ آدم عليه السلام حتى أبناء يعقوب، فهم يعتقدون أن آدم الأول، الذي خلقه الرب بنفسه كان كاملاً في غاية الكمال.. وقد ولد لآدم أبناء كثيرون كان أحسنهم (شيث)، وقد وقع عليه الخيار كي يستمر عنصر آدم الأول ويتكون منه شعب إسرائيل - حسب قولهم - وكان لـ (شيث) أبناء كثيرون كان أحسنهم (أنوش) الذي اختاره الرب لاستمرار نقاء العنصر... وهكذا حتى نوح، وكان لنوح ثلاثة أبناء كان أحسنهم (سام)، وكان أحسن أبناء سام (ارفخشاد) وأحسن أبنائه (شيلح) وهكذا حتى إبراهيم، فكان لإبراهيم ابنان: هما إسماعيل وإسحق، فوقع الخيار على إسحق، وكان أبناؤه عيسو ويعقوب، وكان يعقوب هو الأفضل، وهو الذي اختير لمواصلة نقاء العنصر، وكان أبناء يعقوب وهم الأسباط وكلّهم أخيار، ولا داعي لاختيار واحد منهم، فعنصر إسرائيل هو أنقى العناصر وأفخرها - على حد زعمهم - لأنه تكون عن طريق انتقاء الأفضل في كل جيل. ويقولون إن تربية شعب إسرائيل كانت أشرف تربية لأنها قامت على أيدي الأنبياء...

ومن المسلّم به أن شعباً يتولى تهذيبه أمثال هؤلاء الأفاضل لهو خير من باقي الشعوب على وجه الأرض. من هنا تولدت عندهم عقدة التفوق في العرق، والنزاهة في الحسب والنسب، والارتباط بهذه الذرية الطيبة. ولكن الحقيقة أن كثرة أنبياء اليهود دليل على ضلالتهم، وارتدادهم عن عبادة الله وعن الدين الحنيف بين الحين والآخر، وكلما كان يأتيهم نبيٌّ برسالة فإنما يكذبونه أو يقتلونه. يقولون: إن الفرق بين اليهودي وغيره كبير جداً، ولا وجه للمقارنة بينهما، فهما من مستويين مختلفين كلياً، ففي حين يجلس اليهودي في المرتبة العليا، وينحدر من الصنف الأسمى، تكون بقية الأمم في الدرك الأسفل، وتنحدر من الصنف الأدنى، حتى أن جسد اليهودي يختلف عن أجساد باقي البشر، وأرواحهم كذلك متميّزة..

ورد في كتاب «الجمارا» المقدس أن جسد اليهودي يختلف كلياً عن أجساد بقية الشعوب، وكذلك عن الأرواح، فأصل أرواح شعوب العالم هو من طبقات النجاسة الثلاث، بينما أصل أرواح بني إسرائيل هو من الروح المقدس بالذات..

يقول برنار لازار: «لقد انعزل اليهود وراء جدران أحاط بها التوراة، حتى أصبح اليهودي ينعت نفسه بوصف خطير، فهو يزهو بامتياز توراته، الأمر الذي أدى أن يعد اليهودي نفسه نسيج وحده، وأن شعبه فوق الشعوب جميعاً»[1]. هذه هي معتقداتهم بأن «شعب إسرائيل هو صفوة الشعوب كلها، ويرجع ذلك إلى تمييز عنصره وتفوّق تربته وجودة مناخ البلاد التي نما فيها وتطور». فإذا كان كذلك فمعظمهم جاء من أرض الشتات، وفيها ولِدوا، وفيها نموا وتطوروا جيلاً بعد جيل لعدة قرون خلت، فما البلاد التي تميزت بهذه السمات؟.

فالقسم الأعظم منها لم يولد على أرض «الميعاد» ولم تربطهم بها رابطة وليس لهم بها أي علاقة.

إن الديانة اليهودية تزعم أن اليهود انحدروا من سلالة واحدة هي سلالة إسرائيل، فلو صح هذا الزعم لتشابه اليهود في جميع أنحاء العالم، لأن الفروع يجب أن تشبه الأصول تشابهاً وراثياً، خاصة وأنهم منعزلون في بيئة مغلقة، لكن الحقيقة غير ذلك فمنهم اليهودي الأشقر ذو الشعر الأصفر ومنهم اليهودي الأسمر ذو الشعر الأجعد، مثل يهود الفلاشا القادمين من أثيوبيا، ومنهم الزنوج في جنوب الهند، ومنهم الصفر في بلاد الصين. وأما مصادر قدومهم فمتعددة بعدد بلدان الدنيا، ومعظمهم من مخلفات بحر الخزر اليهودية المنهارة. فأين وحدة الدم؟ وأين وحدة العرق النقي؟...

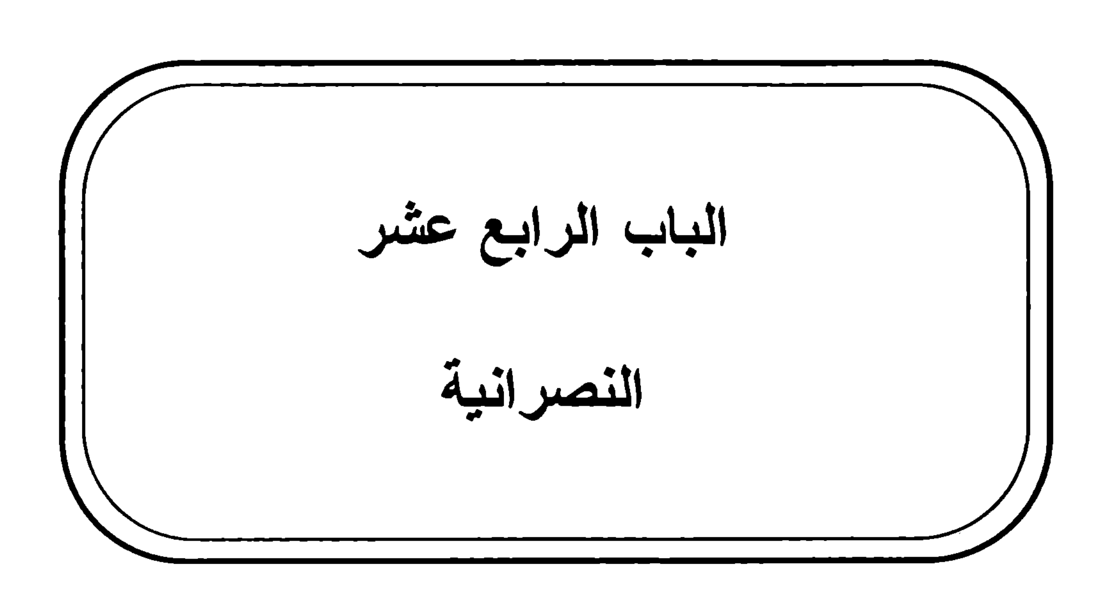
إن معظمهم لا يعرفون آباءهم، لأن نقاء الدم والعرق يعود إلى أمهاتهم وليس إلى الآباء... إن اليهود في أوروبا من أصل أوروبي اعتنقوا الدين

---

(1) برنار لازار في كتابه اللاسامية الصادر عام (1894 م)...

اليهودي على أيدي المبشرين اليهود، فاليهود الألمان ينتمون إلى الأصل الجرماني، وكذلك اليهودي الفرنسي والانكليزي والروسي والخزري، وهكذا. . .

فاليهود ليسوا من سلالة واحدة. بل هم ينحدرون من سلالات متعددة، وقد تفرقوا شيعاً في الأرض.



الباب الرابع عشر

النصرانية

1 - تمهيــد:

النصرانية ديانة سماوية منزلة، ظهرت بعد اليهودية على يد نبيها ومبلغ رسالتها المسيح عيسى بن مريم، جاءت لتكمل اليهودية إلا أنه دخل عليها مع الزمن تطور في المعتقدات والأفكار، وفي العبادات والطقوس، وهي منذ نشأتها ديانة توحيدية... فهي لم تعترف أصلاً بالوثنية الرومانية، ولا بالديانات الوثنية الأخرى، ولا بعبادة الامبراطور، ولا بعبادة مظاهر الطبيعة.. ومنذ أن ظهرت أخذت تدعو الناس كافة إلى عبدة الله وحده، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان، ولم تقتصر في دعوتها على اليهود وحدهم، كما فعلت اليهودية من قبل. بل كانت رسالة سلام ومحبة لجميع البشرية.

وقد رفض أتباعها عبادة الامبراطور والسجود العلني أمام تمثاله، أو تقديم القرابين، وغير ذلك. لهذا لاقوا اضطهاداً مريراً على أيدي الرومان لتعميم رسالتهم، تلك الرسالة التي تقوم على أساس المحبة والإخاء بين البشر بلا تمييز، ومن دون وجود طبقة اجتماعية مختارة أو مفضلة على أخرى. وتدعو إلى المساواة بين الناس، فالدين لم يكن لفئة دون أخرى، وقد تضمنت مبادؤه المثل العليا في الحياة، والدعوة إلى نبذ الأحقاد البشرية والكراهية، لذلك انضم إليها البؤساء والمستضعفون وزاد انتشارها عن طريق التبشير. على الرغم من قصر

مدة دعوة السيد المسيح لها، حتى زاد عدد معتنقيها على 1200 مليون مسيحي . .

إن معظم ما جاءت به النصرانية هو عظات ونصائح وحكم وأمثال لترشد الضالين من اليهود إلى الإخلاص في عبادتهم لله وحده كما ورثوها عن موسى عليه السلام. . وقد آمنوا بأن المسيح آت لينقذهم مما هم عليه من الشر والظلم، وأن يحمل العدل والمحبة ويسود السلام العالم كله، لقد كان عيسى عليه السلام مصلحاً اجتماعياً، دعا الناس إلى الفضائل ونهاهم عن الرذائل، ولم يتعرّض للتوراة بالتغيير والتبديل . .

يقول «بولس» في رسائله إن عيسى جاء مخلّصاً للإنسان أينما كان، وليس لإنقاذ اليهود وحدهم ففي رسالته إلى أهل غلاطية يقول «لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع، لأنكم كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح، وقد لبستم المسيح، ليس يهودي، ولا روماني، ليس عبد ولا حر، ليس ذكر ولا أنثى، لأنكم جميعاً واحداً في المسيح يسوع»[1].

2 ـ المعتقدات المسيحية :

تقوم العقيدة المسيحية في جوهرها على أساس المحبة والسلام بين البشر «فالله محبة». . ويتمثل ذلك بقول السيد المسيح عندما سئل عن أعظم وصايا الرب قائلاً: أن تحبَّ الربَّ إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك، هذه هي الوصية الأولى، والثانية مثلها هي : أن تحب قريبَك كنفسك، ليس وصية أخرى أعظم من هاتين» . . .

فقد ميّز في هذا القول بين حب الدنيا، وحب الآخرة، الذي عدّه مقياساً للإيمان في قلب كل مؤمن. يقول السيد المسيح : «لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة في قلب كل مؤمن، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد»[2].

---

(1) رسالة بولس إلى أهل غلاطية، الإصحاح 3.
(2) رواه سفيان الثوري .

ولهذا كان أتباع السيد المسيح أقرب الناس مودّة للذين آمنوا، فقد جاء في قوله تعالى: **﴿ولتجدَنَّ أقرَبهم مودَّة لِلّذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى﴾**[1].

وقد أخذت العقيدة المسيحية شكلها النهائي بعد السيد المسيح في القرن الرابع الميلادي، واستقرت على ما هي عليه، وهي تتلخص حسب الروايات المسيحية المتفق عليها كما ورد في كتاب: «سوسنة سليمان» لنوفل بن نعمة الله بن جرجس النصراني، الذي جاء فيه:

«**تتلخص العقيدة المسيحية بالإيمان بإله واحد، أب واحد، ضابط الكل، خالق السماء والأرض كل ما يُرىٰ، وما لا يُرى وبرب واحد، يسوع الابن الوحيد المولود من الأب قبل الدّهور من نور الله، إله حقّ من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر الذي به كان كل شيء، والذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خطايانا نزل من السماء، وتجسد من الروح القُدس، ومن مريم العذراء تأنس، وصُلِبَ عنا على عهد بيلاطس، وتألم وقبر، وقام من الأموات في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء، وجلس على يمين الرب، المحيي المنبثق من الأب الذي هو مع الابن يسجد له ويمجّد، الناطق بالأنبياء**». . .

هذا هو جوهر العقيدة المسيحية، الذي يقوم باختصار على ثلاثة عناصر:

1 ـ التثليث، والإيمان بثلاثة أقانيم. .

2 ـ صلبُ المسيح فداء عن الخليقة، وقيامه من قبره، ورفعه. . .

3 ـ أنه يُدين الأحياء، والأموات، ويحاسبهم على أفعالهم. . .

لقد سارت المسيحية طريقها في التطور، حتى تكونت فكرتها عن الثالوث المقدس، الذي يعني: الله الأب، والله الابن، والله الروح القدس. . فإلى الأب ينتمي الخلق بواسطة الابن وإلى الابن الفداء، وإلى الروح القدس التطهير، وإن العلاقة بين الأب والابن ليست ولادة بشرية بل هي علاقة المحبة والاتحَاد في الجوهر، وهم يعتقدون أن الإنسان أخطأ خطيئة كبرى، عندما

---

(1) سورة المائدة، آية: 82.

الأخلاق، فقد جاء ليعلّم البشرية المحبة والمسرة، ولينشر على الأرض السلام. لقد جاء مكملاً ومعدلاً لما جاء في ناموس موسى عليه السلام، ولكن من اتبعوه انحرفوا عن خط دعوته التوحيدية، وحرّفوا الكلام عن مواضعه، وادّعوا الإيمان..

خاطب محمد ﷺ وفد نجران من النصارى الذين جاؤوا لمبايعته على الإسلام حينما دعاهم إلى الإسلام.. فأبوا وقالوا: نحن مسلمون قبلكم.. فقال رسول الله ﷺ لهم إنما يمنعكم من الإسلام ثلاثة: «عبادتكم للصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن لله ولداً...».

3 ـ العبادات في المسيحية:

تقوم المسيحية على ركنين من العبادات هما: الصلاة والصوم.

والصوم شرع اختياري وقد اختلفت فيه فرقهم المتعددة..

أما الصلاة فهي أهم أركان الدين. لأنها تقربهم إلى الله عن طريق المسيح. فهم يردّدون كل يوم صلاة تدعى الصلاة الربانية، وهي الصلاة التي علمها الرب تلاميذه[1] وهي ثلاثة أقسام: دعاء، وطلبات وتمجيد.. كما ورد في إنجيل متى.

فالدعاء: هو «أبانا الذي في السماء» ينبّهنا إلى أننا أولاد الله وإخوة في الأرض التي نعمرها وأن السماء هي وطننا الحقيقي الذي يجب أن نرتقبه في الصلاة.

والطلبات: وهي قسمان: ثلاث منها تختص باسم الله وملكوته ومشيئته، وثلاث منها باحتياجات الإنسان الزمنية والروحية.

والتمجيد: هو القول: «لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد..

---

(1) إنجيل متى: 6-9.

آمين»[1]. وتؤدى الصلاة كل يوم، وليس عليهم عدد معين من الصلاة يومياً، وليس لها مواقيت معلومة.. ويستحسن الإكثار منها على عكس اليهود الذين يقلّلون من الصلاة حتى لا يملّ منهم الرب...

وللصلاة شرطان هما: أن تقدم باسم المسيح[2]. وأن يسبق الصلاة الإيمان الكامل بما عندهم جاء في كتاب الأصول والفروع: «إن الدين قلب مقتنع بوجود الله الخالق، والحافظ والفادي، فتكون الصلاة ترجمان ذلك القلب يعبّر بها عمّا يخالجه من الأشواق والعواطف، فبالنظر لاقتناعه بقداسته، تكون الصلاة كلمات التعظيم والتسبيح له، وبالنسبة لاقتناعه بجوده وإحسانه، تكون الصلاة عبارات الشكر والحمد، وبالنسبة لوقوعنا في الخطيئة، تكون الصلاة كلمات التذلّل والتواضع والاستغفار، وبالنسبة للاحتياج إليه تعالى، تكون الصلاة طلباً ودعاء».

وللمسيحية شعائر يجب القيام بها، ولا يصح التخلي عنها، ويعدونها فرائض مقدسة وضعها المسيح مثل التعميد، والعشاء الرباني..

فالتعميد: كما يقول صاحب كتاب الأصول والفروع: «فريضة مقدسة يشار فيها بالغسل بالماء، باسم الأب والابن والروح القدس، إلى تطهير النفس من أدران الخطيئة بدم اليسوع المسيح، وهي ختم عهد النعمة، كما في الختان في الشريعة الموسوية. والمعمودية تدل على اعترافهم العلني بإيمانهم وطاعتهم للأب والابن والروح القدس، كإلههم ومعبودهم الوحيد، ولا يجوز أن يعمّده إلا إذا اعترفوا جهاراً أمام كنيسة الله». فهم لم يقبلوا بالختان لأنهم عدّوه من الأسباب التي نفّرت الناس من اعتناق المسيحية وقبلوا التعميد الذي هو التطهير بالماء المقدس..

أما العشاء الرباني: فكان عندما حان وقت «تناول فطر الفصح» في عيد

(1) قاموس الكتاب المقدس.
(2) يوحنا الإصحاح: 16.
(3) مرقس: 11.

ولذلك سُمّيَ يوحنا المعمدان.. قابله يسوع على شاطىء النهر قرب أريحا وهو يقول لأتباعه ومريديه: أنا أعمّدكم بالماء ولكن سيأتي بعدي من هو أقوى مني، ولست جديراً بأن أصل إلى درجة الانحناء لفك رباط حذائه، .بو سيعمّدكم بالروح القدس وبالنار».

وعندما طلب منه يسوع أن يُعمِّدَه تردّد يوحنا وهو يقول: «أنا الذي في حاجة إلى أن تعمّدني ثم تأتي إليّ؟». فكانت بداية النبوّة، يقول متى في إنجيله «فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء وإذا السموات قد انفتحت له، فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة، وآتياً عليه وصوت من السموات قائلاً: هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت»[1].

إن حياة النبوة عند المسيح لم تستمر أكثر من ثلاثة أعوام تقريباً، لكنها كانت مليئة بالأحداث السريعة إنها طريق الآلام التي أدّت إلى نهاية درامية محزنة.

وبعد الدعوة والتبليغ بدأ السيد المسيح بالصيام في البرية أربعين يوماً، لا يأكل فيها ولا يشرب يُصلّي ويتأمل، ويتفكر في خلق الله... ثم عاد إلى الجليل وأخذ يعظ عباد الله في الناصرة ثم توجه إلى كفرناحوم وبدأ يرشد الناس هناك.. وفي عزلته تجلى له الشيطان لكي يجرّبه ويثبت كفاءته كمخلص للبشرية ومُنقِذ لها، وبدأ يجري معه محاولات إغراء وتضليل، فكان المسيح صابراً مؤمناً، يعرف كيف يرد كيد الشيطان وإغراءاته وعروضه الدنيوية، فها هو يعرض عليه ممالك الدنيا وما فيها مقابل سجوده له وطاعته.. فهو يقول للمسيح: «وقال إبليس له: أي يسوع أعطيك هذه الدنيا جميعها إن خررت وسجدت لي». فيرد عليه بقلب مؤمن: «اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك نَسجُد وإياه وحده نعبد، ثم تركه إبليس وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه»[2].

لقد انتصر يسوع على إبليس وإغراءاته، وهزمه وجنوده الضالين. قال

---

(1) إنجيل متى: 3.

(2) إنجيل متى: 4

يسوع لأمه وهو طفل: «يا مريم، أنا يسوع ابن الله، جئت كما أخبرك جبرائيل الذي أرسله أبي إليك، وقد أتيت لأخلص العالم»[1]. ثم بدأ خدمته الجهرية، ودعا تلاميذه الأوليين، وأظهر قوته الإلهية في تحويل الماء إلى خمر، وقد اتخذ كفرناحوم مركزاً لبث دعوته، ونشر رسالته لمدة عام من الزمن.. أعلن المسيح دعوته وخاطب بني إسرائيل جهاراً بأنه رسول الله إليهم، وأنه جاء مصدّقاً للتوراة ومكمّلاً لها.. وبشرهم بقدوم خاتم الأنبياء والمرسلين وسيدهم أجمعين محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿**وإذ قال عيسى بن مريم: يا بني إسرائيل، إني رسول الله إليكم، مصدقاً لما بين يدي من التوراة، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد**﴾[2].

لقد جاء المسيح رسول الله وكلمتُه حاملاً معه رسالة الإسلام والمحبة، رسالة الإخاء والمساواة بين جميع الناس، ودعا إلى عبادة إله الواحد الأحد، والإيمان به، بأنه الإله الحق وحده لا شريك له، مردّداً: الحمد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام. وفي الناس المسرة، هكذا قامت دعوته عليه السلام على أساس أنه لا توسّط بين الخالق والمخلوق.. فالأحبار والرهبان ليس لهم الوساطة بين الله وعباده وكل عبد يتصل بالله في عبادته بنفسه مباشرة.

وتقوم دعوته كذلك على الزهد في الحياة الدنيا. والإيمان باليوم الآخر الذي هو غاية الحياة، لقد جاء المسيح مكملاً لرسالة سلفه موسى عليه السلام ناشراً تعاليمه ومعتقداته. قال السيد المسيح: «أتيت لأكمل لا لأنقض».

لقد جاء لينقذ قومه من بني إسرائيل الضّالّين التائهين، المرتدين عن تعاليم الدين وليخلّصهم من الشتات والاضطهاد اللذيْن لحِقا بهم.. وقد أخبر تلاميذه أنه لم يأتِ ليدين العالم، بل ليقدّم نفسَه فدية عن الكثيرين...

لقد كان يسوع رسولاً لكل العالمين، وكان صريحاً جريئاً في دعوته، فكان يهاجم الحكام من بني إسرائيل وحاخاماتهم، مبيّناً لهم أن البشر لا

---

(1) إنجيل الطفولية: الإصحاح الأول.
(2) سورة الصف، آية: 6.

يحصلون على السلام، إلا بصفاء النفوس والتّفاني في حب الآخرين، وحب الله والناس، ونكران الذات والمساواة بين كل البشر والحكم بينهم بالعدل والتّفرغ لعبادة الله وحده، والتّخلي عن مَلّذات الدنيا وعبادة المال قائلاً لهم «لا تعبدوا ربّين: الله والمال»، وقد خلت توراتهم من ذكر اليوم الآخر وما يعقبه من نعيم أو جحيم.

فزاد حقد اليهود عليه وظلّوا يبيّتون له الغدر والمكيدة، ويغوون به رُعاع الناس، وسلطات روما، وعلى رأسها حاكم بيت المقدس الوالي «بيلاطُس البُنطي»، وقد رشوا يهوذا، أحد حواريّي عيسى ليخونه، ويدل عليه رجال الأمن الرومان الذين جاؤوا للقبض عليه..

ورد في إنجيل يوحنّا: «وقد ألقى الشيطان في قلب يهوذا سمعان الأسخريوطي أن يسلمه»[1] وعن المسيح أنّ نهايته قد دنت، وعرف أن ما سيلقاه من عذاب إنما هو تضحية يكفّر بها عن ذنوب شعبه.. وكان العشاء الأخير بين حواريّيه الاثني عشر.

واقتيد المسيح إلى رئيس الكهنة الذي عقد اجتماعاً من الكهنة والشيوخ لمحاكمته، وكانوا قد عقدوا العزم على التخلص منه بعد محاكمة صورية أجراها الكهنوت اليهودي.. وأصدروا عليه الحكم بالموت قائلين فيه: خير لنا أن يموت إنسان واحد من الشعب، ولا تهلك الأمة كلها»..

وصدّق الوالي الروماني الحكم للتنفيذ عن غير رضا، وكانت طريقة الإعدام عندهم الموت صلْباً على الخشب.. كان ذلك في يوم الفصح على جبل الجلجثة[2] (**انظر الشكل 29**) حوالي عام 30 م، عندما «صُلِبَ» بين لصّيْن حُكِم عليهما أيضاً ـ كما تقول الروايات المسيحية ـ أما أتباعه، وتلاميذه فقد

---

(1) إنجيل يوحنا، آ : 13.

(2) جبل الجلجثة: موضع بالقرب من أورشليم خارج أسوار المدينة، وفي حدودها دفن وفيها صلب يسوع حسب الاعتقاد المسيحي ويعتقدون ذلك لوجود جماجم غير مدفونة، وربما لأن المنطقة كانت ساحة إعدام. «قاموس الكتاب المقدس».

خافوا ولم يحضروا عملية الإعدام على الصليب.. ومات المسيح، ثم بعث في اليوم الثالث من نومه، ومكث أربعين يوماً، ثم صعد إلى السماء أمام تلاميذه الذين عينهم لنشر دينه. وقد زارت بعض النسوة قبر المسيح في اليوم الثاني، ولم يجدْن الجثة. ورأت مريم المجدلية المسيح بكامل هيئته، ورآه غيرها أيضاً، واعتقدوا أنه أعيد إلى الحياة ثانيةً وبُعِث من جديد.

هذا ما ترويه الأناجيل في خاتمة السيد المسيح، بأنه مر في أواخر أيامه على الأرض بنهاية شنيعة ومأساة فظيعة ـ ما عدا إنجيل برنابا الذي قال غير ذلك ـ وجعلوا هذا الاعتقاد وهو صلْب المسيح أصلاً من أصول دينهم ودعامة من دعائم عقيدتهم....

5 ـ الثالوث المقدّس «الأب، الابن، الروح القدس»:

تطورت المسيحية إلى أن تكونت فكرتها عن الثالوث المقدس، الذي يُعدّ جوهر العقيدة المسيحية. وهي أن الله الواحد له ثلاثة أقانيم «شخصيات» متساوية في الجوهر هي: الله الأب، والله الابن[1] والله الروح القدس. وهذه كلها واحد، فكلمة الله حلّت في مريم البتول وتجسّد منها إنسان وُلِد هو يسوع، فالأب: هو الذي خلق العالمين بوساطة الابن، والابن هو الذي أتمّ الفداء وقام به، والروح القدس: هو الذي يطهّر القلب والحياة...

ولكن كيف تكونت هذه الفكرة؟ وما هي أسسها؟؟

لقد عرّف قانون الإيمان هذه العقيدة بالقول التالي: «نؤمن بإله واحد، الأب والابن والروح القدس إله واحد جوهر واحد، متساوين في القدرة والمجد»[1].

---

(1) الابن: أو ابن الله ورد في قاموس الكتاب المقدس أنه أطلق هذا اللقب على المسيا، وهو يدل على العلاقة بين الأب السماوي والابن الأزلي والمسيح بما أنه ابن الله فهو إله بكل الكمالات غير المحدودة التي للجوهر الإلهي، والابن مساوٍ لله في الطبيعة. فالمسيح ابن الله ليس من وجهة النظر الجسدية كما يفهم من كلمة «ولد» إنما يفهم به كتشبيه ليعبر عن مقدار المحبة والتعاون والتساوي في الطبيعة بين الأقنوم الأول والأقنوم الثاني في الثالوث الأقدس..

يعتقد المسيحيون بوجود الله خالق كل شيء، لكنهم بعد أن رأوا معجزات السيد المسيح الكثيرة واعتقدوا أنه صُلِب، ثم ظهر ثانية، وهذه من خوارق الأمور، تكونت فكرة راسخة في نفوسهم عن مكانة المسيح وعن قدرته وقوته، فصاروا يبحثون عن طبيعة تكوينه وخصائصه معتقدين أنه لا مثيل له من حيث ولادته من غير أب، ولكنّ ذلك على الله هيّن.

قال تعالى: **﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾**[2]. وتكونت عندهم آراء مختلفة في القرن الرابع الميلادي، أهمها ثلاثة آراء هي:

1 ـ رأي الأب بولس الذي قال إن المسيح شخص سماوي نزل إلى الأرض وأنه روح الله وصورته..

2 ـ رأي اليوصفية: الذين قالوا إن المسيح هو كلمة الله، فهو إله لأن الكلمة فيض من الله...

3 ـ رأي ثالث يقول إن المسيح ليس رجلاً إلا في ظاهره ومظهره..

وفي هذه الآراء الثلاثة إجماع على أن المسيح أكثر من بشر وأنه متصل بالله. ولنسمع قول الله فيهم: **﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلاّ الحق. إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم، وروحٌ منه فآمِنوا بالله ورسله، ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد، سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾**[3].

إن المسيحية متمّمة لليهودية. فهي ديانة توحيد، لأنها رسالة من السماء، لكن فكرة التثليث هذه تتعارض مع فكرة وحدانية الله وهذا تناقض واضح في

---

(1) قاموس الكتاب المقدس..
(2) سورة آل عمران، آية: 59.
(3) سورة النساء، آية: 171.

الاعتقاد، وهي مشكلة معقّدة ظهرت أمام المسيحيين قبل القرن الرابع فكان عليهم إما الاعتقاد الكامل بوحدانية الله أو الاعتقاد المتناقض بأن الله ثالث ثلاثة. يقول غنيبر: «إن المسيحيين فضلوا الاعتقاد المتناقض على إهمال الثالوث، فقالوا: بإله واحد في ثلاثة، وهذه النتيجة عارضها اليهود المتنصرون في عهد المسيحية. هذا الجدل حول الثالوث المقدس، مزّق المسيحية إلى فرق متعددة، مع أنه لا يوجد أي دليل على أن رسل السيد المسيح سمعوا منه شيئاً عن الثالوث أو على الأقل سمعوا شيئاً عن ذلك من سيدهم نفسه. . وكذلك لا يقول عيسى كلمة واحدة عن عبادة والدته مريم. . »[1].

وقد جاء ذلك في كتاب الله المجيد عندما سأله قائلاً: **﴿وإذ قال الله: يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتّخذوني وأمي إلٰهيْن من دون الله؟ قال سبحانك ما يكون لي أن أقولَ ما ليس لي بحق. إن كنتُ قلتُه فقد علمتَه، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علامُ الغيوب﴾**[2]. فالله تعالى وحده المتجلّي على عباده وخلقه لا شريك له في ملكه، وما الأنبياء والرسل من عهد آدم إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ إلّا بشر يأتمرون بأوامرُ الله بوساطة وحي من عنده وكل ما عدا ذلك فهو باطل، بل يعد كفراً وإلحاداً. .

لقد جاء المسيح ليقود الناس في طريق السلام، ويهديهم إلى الصراط المستقيم، وهو حاضر معهم حضور الله الأزلي الدائم، ومتى اجتمع عدد من المسيحيين وكانت نيّتهم صافِية كان الروح القدس معهم. واستناداً إلى هذا الوعد من السيد المسيح عُدّ روح القدس مبدأ إلٰهياً دائماً حاضراً يعمل للمسيحية وللكنيسة المسيحية.

يحدّث الإنجيل عن المسيح بوجود روح القدس، ويصفه بأنه مُعزّ وأنه روح الحقيقة. يقول: «وأما المُعزّي الروح القدس الذي سيرسله الأبّ باسمي فهو يعلّمكم كل شيء ويذكّركم بكل ما قلتُه لكم»[3].

---

(1) من كتاب ويلز «معالم تاريخ الإنسانية».

(2) سورة المائدة، آ: 116.

(3) إنجيل يوحنا: 14.

وتتفق كل المبادىء المسيحية تقريباً على وجود روح القدس شاهداً أزلياً بين المسيحيين. .[1].

وتتلخص رسالة السيد المسيح بثلاثة مبادىء. . هي:

1 ـ إن المسيح كان يؤمن بالتوراة الموسوية، وإنه جاء مصدّقاً لِما بين يديه منها، ولم يكن يهدف إلى تأسيس دين جديد، ينقض اليهودية، بل جاء ليصدّقه ويتمّمه. . إلا أنه نبذ كل ما يخالف فكرة الدين التوحيدية الأصلية، وأغفل من كتبهم كل ما هو غير مقبول أو غير معقول، مما يدل على ضيق فكرهم وعدم تعمق فهمهم لأصول دينهم. .

2 ـ إن المسيح كان يقول بأن الله أب للناس جميعاً يحبهم كلهم بقدر متساوٍ وأنه رسوله لكل البشرية، دون تمييز، على عكس اليهودية التي اعتقد أتباعها بأنهم شعب الله المختار وأن الله إلٰههم وحدهم.

3 ـ إن المسيح كان يبشر بمجيء ملكوت الله، قاصداً بذلك السلام، والصفاء التام، والمحبة بين الناس، لكن اليهود فهموا من ذلك مجيء ملك وعرش وسلطان ينازعهم، فلم يؤيدوه بدعوته، فحاربوه وعذبوه، وزعموا أنهم قتلوه، كما قتلوا غيره من الأنبياء والرسل. ألا ساء ما يفعلون.

6 ـ انتشار الديانة المسيحية:

إن الأتباع الأوائل لِلسيد المسيح، كانوا قلة من اليهود، الذين آمنوا بقرب ظهور المهدي المنتظر أو المسيح المرتقب، وكانوا يعدون أنفسهم فئة متميزة في الدين اليهودي القديم.

وأنهم لا ينتمون إلى دين جديد مستقل إلى أن انتشرت المسيحية بين اليهود وغير اليهود حتى أخذت تشكل ديناً مستقلاً قائماً بذاته، منفصلاً عن اليهودية ومتميزاً عنها. . وعندما رفع المسيح حوالي عام 30 م كان عدد المؤمنين

---

(1) تاريخ الأديان د. يوسف العش، و د. محمد الزحيلي. .

بالمسيحية لا يتجاوز المائة والعشرين، كان أبرزهم: الحواريّون الإثنا عشر والتلاميذ الإثنان والسبعون، الذين راحوا يكرزون يسوع مسيحاً مما أغاظ مجمّع اليهود عليهم، وعدهم خارجين على الله والناموس، فقبض على الرسل، وقُتِلوا أمام المجمع اليهودي، وجُلِدوا بلا رحمة ولم يتراجعوا عن الكرازة.. واستمروا في تبشيرهم بالدين الجديد وحصروا نشاطهم بادىء الأمر في فلسطين، بلد السيد المسيح عملاً بوصية «المعلم» الذي قال لهم: «إلى طريق الأمم لا تمضوا بل اذهبوا إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة».

ولما توطّد العمل، وسّعوا نطاق التبشير، متجاوزين حدود البلدان والأمم، عندما أمرهم المسيح بقوله: «اذهبوا إلى العالم أجمع، واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلّها».

وفي خاتمة إنجيل متّى جاء على لسان السيد المسيح: «إني أرسلكم إلى الأمم، كما أرسلني أبي إليكم فاذهبوا، وادْعوا الأمم، باسم الأب، والابن، والروح القدس».

وقد تضاعف عدد الأتباع والمريدين في فلسطين مهد المسيح، ولكن حادثة موت استفانوس[1] أحد الرسل رجْماً بالحجارة على يد اليهود، أثرت في المسيحيين الذين لاقوا الظلم والاضطهاد، فاضطروا إلى الفرار من أورشليم القدس، حيث لجأوا إلى لبنان وسورية، والبادية وآسيا الصغرى واليونان وغيرها. وحلّ الاضطهاد بالرسل والتلاميذ، فقصدوا أنطاكية حيث لحق بهم بطرس الرسول في 45 م وفيها عُرِف المسيحيون بهذا الاسم أول مرة. وبعد مئة عام من رفع يسوع، انتشرت المسيحية في أرجاء واسعة من العالم، وزاد عدد المسيحيين، وأصبح كل منهم يَعُدّ نفسه مبشراً يقوم بنشر الدين الجديد في العالم..

---

(1) استفنوس: أول شهداء المسيحية، اسمه يوناني، لذلك فهو هيليني، أي أنه يهودي، تكلم اليونانية وكان واحداً من سبعة عُرِفوا بأول شمامسة في الكنيسة المسيحية، وهو مؤمن بالروح القدس وكان ينادي بالرسالة، اتهمه اليهود زورا [illegible] ن يجدف على الله وعلى موسى فقتلوه.

7 ـ الاضطهاد المسيحي:

تغلغلت المسيحية في روما، إلّا أنها لاقت أثناء انتشارها اضطهاداً واسعاً من الأباطرة والناس هناك، ومن اليهود الذين كانوا يشجعون على ذلك الاضطهاد ويقومون به، ويحرّضون الأباطرة على اضطهاد المسيحيين وذبْحهم أينما كانوا، وليس أدلّ على ذلك من قتل أصحاب الأخدود في نجران.

وأشد ما نزل بهم من أذى كان في عهد نيرون 64 م الذي أنزل بهم العذاب والبلاء، واتّهمهم بحرق روما فعاقبهم.. وفي عهد تراجان 106 م الذي أمر بمنع الاجتماعات السرية لقيام الصلاة وأنزل بهم الذل والعذاب، وكان أول مرسوم امبراطوري اضطُهِد النصارى بموجبه في القرن الثالث هو المرسوم الذي صدر في عهد الامبراطور سبتيموس سيفروس 192-211 م.

وكان أشد الأباطرة خطراً على النصارى، الامبراطور «ديكيوس 249-251 م» الذي يُروىٰ عنه بأن ضحاياه من المسيحيين زادوا على 12 مليون نسمة، ومع ذلك استمر انتشار المسيحية باضطراد، بالرغم من تعنّت سلطات روما وتعذيب من اعتنق المسيحية بالموت أو بالارتداد إلى الوثنية، وذلك بشتْم يسوع أو السجود للامبراطور، وكان المؤمنون منهم يضحّون بأنفسهم، ويفضّلون الموت على الردّة إلى الوثنية وبذلك دخلت المسيحية إلى بلاط الأباطرة أنفسهم..

وممن قاوم انتشار المسيحية الإمبراطور «دقلديانوس 284-305 م» الذي حكم على العديد من رجال الدين المسيحي بالتعذيب وبالإعدام، ويذكر التاريخ عنه «بأن عماله قطعوا الأنوف والآذان والألسن، وغرزوا القصب تحت الأظافر، ودقّوا الحديد في البطون».

لقد حل بهم العذاب الأليم لرفضهم الانخراط في جيش روما الوثني. وتذكر روايات التاريخ أن عدد الذين قُتِلوا في عهده من الأقباط تجاوز ثلاثمائة ألف إنسان، ولشدة بطشه في مصر جعلوه مبدأ تقويمهم في 284 م.

كل ذلك كان بتحريض من اليهود، لإنزال أشد العذاب في كل من يعتنق الدين الجديد. وفي عهد الإمبراطور قسطنطين كلوروس 306-337 م أعطاهم بعض الحرّية الدينية، وخفّف عنهم الاضطهاد والعذاب، وظهر بعض المدافعين عن المسيحية فقالوا «إن المسيحيين يعيشون على الأرض، أما مملكتهم فهي في السماء، إنهم يحترمون القوانين الموضوعة، لكنهم يتجاوزون في حياتهم عدالة هذه القوانين» وفي سنة 313 م أصدر الإمبراطور المذكور مرسوم «ميلان»، الذي أقر مبدأ حرّية العقيدة، وسمح بموجبه للناس باعتناق المسيحية دون خوف من أحد، وتوقف الاضطهاد ضدّهم، وأصبحت المسيحية ديناً رسمياً للدولة. وفي سنة 319 م أصدر مرسوماً آخر أعفى بموجبه رجال الإكليروس من جميع الواجبات المترتّبة عليهم كمواطنين رومان من أجل التفرغ والانصراف إلى ممارسة واجباتهم الكهنوتية. وبعد ذلك توالت الاعترافات بالمسيحية وأقيمت الكنائس، وكُتِبت الأناجيل، وتُرجِمت، وتقهقرت الوثنية أمام انتشار المسيحية ديانة التوحيد والمحبة والسلام. وأصبحت المسيحية ديناً رسمياً لروما، أكبر ديانات الشرق، وأكثرهما تلبية لأماني وآمال الناس، وخاصة المستضعفين منهم، الذين هوت قلوبهم إليها واعتنقوها فسادت المحبة والمساواة بين الناس واختفت التفرقة العنصرية أو الجنسية التي جاء بها اليهود، ثم انتقلت المسيحية إلى شمال افريقية، وإلى غرب أوروبة وشرقها، ثم إلى روسيا وإلى أوروبة الشمالية[1] في القرن 13 م، حتى عم انتشارها عن طريق الموجات الاستعمارية إلى البلدان المغلوبة، وبعدها بدأ النزاع بين المسيحيين أنفسهم، وظهرت حركات الإصلاح الديني، وتعدّدت الطوائف والفرق وأخذت تنشر كل واحدة منها اعتقادها الخاص ومذهبها المستقل، حيث افترقت النصرانية إلى اثنتين وسبعين فرقة، أكبرها ثلاثة هي: الملكانية، والنسطورية، واليعقوبية.

وتشعبت منها: الاليانية، والبليارسية، والمقانوسية، والسبالية، والبوطينوسية، إلى سائر الفرق الأخرى وقد أقيم العديد من الكنائس المسيحية تجتمع في ثلاث كبرى هي:

---

(1) الملل والنحل: أحمد الشهرستاني.

الكنيسة الأرثوذكسية، والكاثوليكية، والبروتستانتية.. كما توجد كنائس أخرى أقل أهمية وأقل انتشاراً.

8 ـ مريم[1] العذراء «البتول»:

هي ابنة عمران، من سلالة داوود، من سبط يهوذا، اصطفاها الله وطهّرها وفضّلها على نساء العالمين.. فهي من منبت طيب وأصلٍ كريم، وقد كان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه.. وكانت أمُّها (حنة بنت فاقود بن قبيل) من العابدات المؤمنات. قال تعالى: **﴿يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوءٍ، وما كانت أمُّك بَغِيّا﴾**[2].

وقد نشأت نشأة طهر وعفاف، بعيدة عن الرذيلة والاسفاف، وكانت أمها قد نذرتها لخدمة هيكل الرب الذي تقبلها بقبول حسن، وأنبتها منبتاً كريماً.. وكانت عناية الله تكلؤها وترعاها. فهو يرسل لها من رزقه كل يوم قوتها بغير حساب، وكفلها النبي زكريا[3] وقد اختارها الله لتكون أمّاً لكلمته المتجسدة، وكانت مخطوبة ليوسف بن يعقوب النجار، أحد أقاربها..

وقد أرسل الله تعالى جبريل إليها ليخبرها بأنه سيكون لها غلام زكي، وأنها ستصبح أمّاً.. فأخذتها الدهشة، إذ كيف يكون لها ولد وهي عذراء ولم يمْسَسْها بشر. إلا أن جبريل عليه السلام أدخل الطمأنينة إلى قلبها الحائر الخائف، بأن الله على كل شيء قدير وهو عليه هيِّن.

فقد خلق الله جل شأنه آدم قبله من طين، فكيف لا يخلق إنساناً من إنسان؟.. فالله قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء. وبشرها جبريل باسم ابنها وهو المسيح عيسى ابن مريم، وأنه سيكون وجيهاً في الدنيا والآخرة، ومن المقرّبين، ومن علامات نبوته وصدقه أنه يكلّم الناس في المهد وكهلاً، وأن الله

---

(1) مريم: اسم عبري معناه «عصيان» كما ورد في قاموس الكتاب المقدس.
(2) سورة مريم، آية: 28.
(3) النبي زكريا: زوج خالتها اليصابات أم يوحنا المعمدان المسمى في القرآن يحيى..

سيعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة، ويعطيه البشارة «الإنجيل» وسيكون آية للناس على قدرته ورحمة من الله لعباده ليهديهم إلى الصراط المستقيم من بعد ضلالهم وليخرجهم من الظلمات إلى النور، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين ويكلّم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين﴾[1]. وحملت مريم العذراء بيسوع بمجرد أن نفخ فيها جبريل وأدخل إلى نفسها الأمان قائلاً لها: قال ﴿إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً. قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكُ بغيّاً، قال كذلك قال ربُّك هو علي هيّن﴾[2] ولقد كاشفت خطيبها يوسف النجار بالإلهام الإلٰهي، وصُعِقَ لهْول الخبر الذي لم يكن يصدقه لولا ثقته المطْلَقة بمريم التي نذرت نفسها لخدمة الهيكل ولعبادة الله. وقد رأى ملاك الرب في المنام يخاطبه بقوله: (يا يوسف بن داوود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك لأن الذي حُبِلَ به هو من الروح القدس فستلد ابناً وتدعوه يسوع لأنه يخلّص شعبه من خطاياهم)[3].

وقد عاتبه ملاك الرب عندما حاول الابتعاد عن مريم قائلاً: «لماذا عزمت على إبعاد امرأتك؟ اعلم أنه ما كُوّن فيها إنما هو بمشيئة الله فستلد العذراء ابناً وستدعونه يسوع، تمنع عنه الخمر والمسكر وكل لحم نجس، لأنه قدّوس الله من رحم أمه، فإنه نبيّ من الله، أرسِل إلى شعب إسرائيل، ليحول يهودا إلى قلبه، ويسلك إسرائيل في شريعة الرب، كما هو مكتوب في ناموس موسى، وسيجيء بقوة عظيمة يمنحها الله له، وسيأتي بآيات عظيمة تفضي إلى خلاص كثيرين» وهكذا فقد جاءها المخاض كعادة النساء ولجأت إلى جذع النخلة فولدت عيسى من غير أب.. وقد وُضِع بعد ولادته في مزود للبقر. حيث ولدته أمه لعدم وجود بيت يأويها في بيت لحم. كما تدّعي كتبهم. ولكنها إرادة الله، وكان الرّعاة غائبين مع ماشيتهم في الرعي، فكانت كلمة الله، ومعجزته

---

(1) سورة آل عمران، آية: 45-46.

(2) سورة مريم، آية: 19-21.

(3) إنجيل متى: الاصحاح الأول..

الخارقة، وقد أُقيمَت كنيسة بيت لحم على موضعَ ولادته فيما بعد، والتي أُطلِق عليها اسم كنيسة المهْد، وهي موضع إجلال وتقديس لدى كافة الطوائف المسيحية.

وأما مدّة الحمل، فقد اختلف الرّواة في تحديدها، فمنهم من قال: ـ تسعة أشهر كباقي النساء. ـ وهو الرأي الأرجح. ـ ومنهم من قال: ثمانية أشهر، ـ ومنهم من قال: عدة ساعات. والله أعلم. وكذلك عن عُمْر مريم حيث جاءت بالمسيح، يقول البيضاوي في تفسيره: إنـه كان عمرها (13) سنة ويقال إنها عشرين سنـة، وإنها حاضت قبل الحمل مرتين فقط. والله بذلك عليم..

لقد جاء المسيح الرسول من أم صالحة صدّيقة طاهرة، ذكرها جل شأنه في كتابه وابنها في مواضع متعدّدة، قال تعالى: ﴿**ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبلِه الرّسل وأمّه صِدّيقة**﴾[1] وفي الأخبار عن سيد البشر أنه قال: «كل مولود من بني آدم يمسه الشيطان بإصبعه، إلا مريم بنت عمران، وابنها عيسى»[2].

إن ولادة عيسى من غير أب، معجزة خارقة من معجزات الله، وآية فائقة من آياته البيّنات التي تدل على عظمة الخالق، وقدرته سبحانه وتعالى، وقد ظلّت مريم بعد عيسى خمس سنين وماتت وعمرها (53) سنة تقريباً. رضي الله عنها وأرضاها...

9 ـ المسيح رسول السلام:

عيسى بن مريم: هو عبد الله، وكلمته، ألقاها إلى مريم، وروحه، وهو النبي المبعوث برسالة بعد موسى وقد بشرت التوراة بمجيئه، وهو خاتم أنبياء الله ورسله من بني إسرائيل، وقد بشرهم بقدوم خاتم الأنبياء والرّسل من بعده، قال تعالى: ﴿**وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدّقاً**

---

(1) سورة المائدة، آ ـ: 75.

(2) رواه أبو هريرة.

لما بين يدي من التوراة ومبشّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾[1].

وكان بنو إسرائيل ينتظرون مجيئه لينقذهم من ضلالهم من جيل إلى جيل، وتجدد الوعد به إلى أن بشّر بقدومه يوحنا المعمدان في (6) كانون الثاني عام (27) ميلادية. .

إن عيسى معجزة الله في خلقه، وفي نبوته، وكانت له آيات بيّنات، ودلائل ظاهرات ومعجزات باهرات وقد اختلف المسيحيون في نسبه، كما ورد في إنجيل متّى، وإنجيل لوقا، المنفردين بذكر النسب، والاختلاف بينهما واضح[2].

وُلِدَ يسوع في بيت لحم في فلسطين: (مهد الأنبياء سنة 4 أو 5 ق. م). تقريباً، عندما كانت أمّه مريم بصحبة خطيبها يوسف النجار، الذي أنزلها في إحدى الحظائر في مدينة بيت لحم حيث وَضَعَت طفلَها هناك، وقد لاحظ الرعاة في المدينة نوراً باهراً. وإذا بملاك الرب يخاطبهم قائلاً: «لا تخافوا، فها أنا أبشركم بفرح عظيم، يكون لجميع الشعب، أنه وُلِدَ لكم اليوم في مدينة داوود مخلّص هو المسيح، وهذه لكم العلامة، تجدون طفلاً مُقمّطاً مُضطجِعاً في مِزود». ذهب الرعاة إلى المكان المقصود، فوجدوا الطفل بالمزود، وكان أمْرُ الله. .

كان هيرودس ملكاً على اليهود في ذلك الحين بأمرٍ من قيصر أوغسطوس، امبراطور الرومان الذين احتلّوا فلسطين في ذلك الزمان، وقد علم بولادته من حكماء المجوس ثلاثة، جاؤوا إلى أورشليم لعبادة المسيح «ملك اليهود في المستقبل». فأمر هيرودس الملك العجوز الظالم بقتل كل طفل يولد في بيت لحم، خوفاً على عرشه، وكان ملكاً شديداً، وهو في السبعين من عمره، يحب المُلْك ويخشى ضياعه، فكان يثور غضبه بمجرد أحاديث الناس عن مجيء المسيح من نسل داوود الذي سيصبح ملكاً على اليهود، ولذلك قرر التخلّص

---

(1) سورة الصف، آ: 6.

(2) ارجع إلى العهد الجديد.

منه، فبدأ بقتل كل مولود ذكر في بيت لحم وفي كل تخومها من ابن سنتين فما دون. . .

ورد في إنجيل متّى بأن الله أمر يوسف النجار وهو في المنام بأن يأخذ الطفل إلى مصر، خوفاً عليه وحماية له، يقول متّى: «فقام يوسف وأخذ الصبيَّ وأمه ليلاً، وانصرف إلى مصر، وبقي هناك إلى وفاة هيرودس»[1]. ويُعتَقدُ أن مكان استقرارهما في مصر كان عين شمس، أو حيث الدير المحرق، ولم يطل بهما المقام فبعد أن أقاموا بضعة أشهر اعتزموا الرحيل بناء على أوامر الربّ. يتابع متّى حديثه قائلاً: «فلما مات هيرودس، إذا ملاك الرب قد ظهر في حلم ليوسف في مصر قائلاً: قمْ وَخُذْ الصبي وأمَّه إلى أرض إسرائيل، لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبيّ، فقام وأخذ الصبيّ وأمه إلى أرض إسرائيل ولكن لما سمع أن أرخيلاوس يملك على اليهودية عوضاً عن هيرودس أبيه، خاف أن يذهب إلى هناك، وإذ أوحي إليه في حُلْم، انصرف إلى نواحي الجليل. . وأتى وسكن في مدينة يقال لها ناصرة، لكي يتم ما قيل بالأنبياء، إنه سيدعى ناصرياً»[2].

إن حياة عيسى المسيح من طفولته إلى شبابه كانت حياة عادية كأي إنسان، إلا أ نها كانت حياة مثالية كاملة كما أرادها الله فقد بدأت في معجزة، وانتهت بمعجزة. . لقد ختن المسيح لما مرت ثمانية أيام من ولادته، وترعرع في مدينة الناصرة حتى السابعة من عمره. . ولما بلغ اثني عشر عاماً، صعد مع أمهِ مريم ويوسف إلى أورشليم للحج في عيد الفصح، ليسجد هناك حسب شريعة الرب المكتوبة في توراة موسى، وقد علمه الله الكتاب والحكمة وما جاء في التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾[3]. وذهب إلى الهيكل في القدس وخالط العلماء، وأخذ يردّ على

(1) متّى: 2.
(2) متّى: 2.
(3) سورة المائدة، آ: 110.

حججهم ويجيب على أسئلتهم بحكمة وبلاغة وحصافة رأي، ثم عاد مع أمّه إلى الناصرة ومكث فيها . . ولم تتضح فترة حياته منذ كان عمره اثنتي عشرة سنة إلى أن بلغ من العمر تسعة وعشرين عاماً، فلم تذكر نشاطاته بشكل بيّن وإن كانت بعض الإشارات تدل على أنه قضاها في الناصرة مع أمّه بعد أن مات يوسف، ثم انتقلت أمُّه من الناصرة إلى «كانا» موطنها الأصلي، حيث اشتغل بحرفة النجارة التي تعلّمها عن يوسف النجار. وبقي حتى جاءه الوحي وبدأت الرسالة، وبدأ يبشر بالروح وحجْر الملذات الدنيوية. التي غمرت النفوس، ويدعو إلىٰ عبادة الله وهو في الثلاثين من عمره، حتى رُفِع إلى السماء وهو في الثالثة والثلاثين من عمره.

كان السيد المسيح يحمل خطايا البشرية، مع أنه بلا خطيئة، وقد أيده الله بمعجزات بدء من ولادته من غير أب، حتى رفعه إلى جواره[1]، وقد خلق سبحانه وتعالى على يديه طيراً من الطين وأحيا الموتى على يديه، وأبرأ الأكمه والأبرص، وأنزل المائدة التي طلبها الحواريون من السماء، وأنبأ بأمور غائبة عن حسه البشري ولم يعاينها[2]. . .

وفي فترة من حياته يذكر بعض الباحثين الأوروبيين أن السيد المسيح ذهب إلى الهند، وتلقى تعاليم بوذا وأخذ آداب البوذية، وبعض معتقدات الهندوسية مستندين في ذلك إلى تطابق الوصف الذي ورد لكل من كريشنة، وبوذا، والمسيح . .

وفي مجمل القول أن عيسى عليه السلام نبيّ من بني إسرائيل، جاء لهداية البشر جميعهم، ولينقذهم مما هم فيه من ظلمات وخطايا، وارتداد وعبادة أوثان، وكان لليهود انتشار واسع في امبراطورية الرومان، وكان لهم تأثير واضح، فقد ناصبه أحبار اليهود العداء وبيّنوا له الغدر والمكيدة، وتآمروا عليه فخافت أمُّه عليه وهربت به بوحي من الله لها أن تنطلق به إلى ربوة تأويه. قال

---

(1) راجع سورة المائدة. . .

(2) سورة آل عمران.

تعالى: ﴿وجعلنا ابن مريم وأمَّه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾[1].

وقد اختلف المفسرون في المقصود بهذه الربوة الموصوفة بقوله تعالى، فمنهم من قال إنه المكان الذي وَلَدت فيه المسيح، وقيل إنها الرملة في فلسطين، وقيل إنها دمشق، ولكن الأرجح أنها مصر على نحو ما بيّناه. . .

نشأ عيسى ابن مريم نشأة طيبة، وكان غيوراً على الدّين منذ صغره، حريصاً على تفهّم أحكامه، وتعاليمه، ودرس العهد القديم، وكان يجالس العلماء ويناقشهم ويتفوق عليهم ويسائلهم ويجيب على تساؤلاتهم بحجج بالغة وإجابات دامغة، وكانت ولادته آية من آيات الله الخالق، وكانت رسالته معجزة خارقة من معجزات الله العظيم. . يقول لوقا: «وأما يسوع فكان يتقدّم في الحكمة والقامة والنّعمة عند الله والناس»[2] لقد اصطفى الله من النساء مريم، وألقى إليها كلمته وروحاً منه. . . فماذا قال عنها اليهود ومن هم في حكمهم؟؟؟. .

اتّهم اليهود مريم بالزّنا والبُهتان، وكانوا يسمّونه ابن البغيّة، لقد كفروا في قولهم، يقول جل شأنه: ﴿وبكفْرهم وقوْلهم على مريم بُهتاناً عظيماً﴾[3]. وقالت فئة منهم أنه هو الله، وكانوا بذلك كافرين. . وقال غيرهم إنه ابن الله، وكانوا أيضاً كافرين. . قال تعالى: ﴿وقالت اليهود عُزيْر ابن الله وقالت النّصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم﴾[4].

وفي هذا القول إشراك بالله، إنه ما اتخذ صاحبة ولا ولداً، سبحانه عمّا يصفون.

وقالوا عن المسيح بأنه ثالث ثلاثة وفي هذا القول كُفْر بالله أيضاً. . قال تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالثُ ثلاثة وما من إله إلاّ إله واحد﴾[5]

---

(1) سورة المؤمنون، آ ـ: 50.
(2) إنجيل لوقا: الاصحاح 2.
(3) سورة النساء، آ ـ: 156.
(4) سورة التوبة، آ ـ: 30.
(5) سورة المائدة، آ ـ: 73.

والمراد بذلك قولهم بالأقانيم الثلاثة: اقنوم الأب، واقنوم الابن، واقنوم الكلمة المنبعثة من الأب إلى الإبن وهي روح القدس.

وقد أنذرهم الله بكفرهم من عذاب أليم قال تعالى: **﴿فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾**(1) تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً..

ولكن الذين آمنوا بالله ورسوله قالوا إن المسيح هو عبد الله ورسوله وابن أَمَتِه، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، أولئك هم المؤمنون الصّادقون. قال تعالى: **﴿والتي احْصَنتْ فرْجَها فنفخْنا فيها مِنْ روحِنا، وجعلْناها وابنَها آية للعالمين﴾**(2).

نعم لقد كانت ولادة المسيح معجزة، وحياته معجزة، ونهايته معجزة خارقة، تدل على قدرة الخالق وعظمته، وقد لاقى العناء الشديد في سبيل دعوته، وتحمّلِ العذاب، ومشى على طريقِ الآلام، ودعا الناس إلى كل عمل عظيم، وإلى نُكران تام لذاتهم، ودعا إلى بعث جديد في عالم يسوده الحب والإخاء والمساواة بين الناس، كل الناس، رضي الله عنه.. وأرضاه..

10 ـ رأي الإسلام في كلمة الله وروحه:

يعتقد المسلمون بأن عيسى هو رسول الله، وعبد الله، وكلمة ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن مريم بنت عمران نشأت على الطهر والعفة، والبعد عن الدنس، تكلؤها عناية الله ورعايته منذ ولاتها، ولما بلغَت مبلغ النساء أرسل الله إليها الملك جبريل على صورة فتى، وأعلمها أنه مرسل من عند الله ليهب لها غلاماً زكياً، فحملت به وولدته، فجاء المسيح ليكون رسولاً للبشرية من عند الله، وإنه ليس إلٰهاً ولا ابناً للإلٰه.. **﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾**(3).

---

(1) سورة مريم، آية: 37.

(2) سورة الأنبياء، آية: 91.

(3) سورة آل عمران، آية: 59.

ورد في القرآن الكريم توضيح لهذا الحدث في مواضع كثيرة منه لأهميته وعظمته، قال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لا تغْلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلّا الحق، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فآمِنوا بالله ورسلِه، ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيراً لكم، إنما الله إله واحد، سبحانه، أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض، وكفى بالله وكيلاً﴾[1].

لقد سأله الله جل شأنه مستفسراً وهو خير العارفين، ودار حوار بين الله الخالق القوي، وعبده الضعيف الفقير إلى الله، هل يدّعي الألوهية؟.

جاء في قوله تعالى: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم، أأنت قلْت للناس اتّخذوني وأمي إلٰهين من دون الله، قال سبحانك، ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما نفسي، ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علام الغيوب، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به: أن اعبدوا الله ربّي وربّكم، وكنتُ عليهم شهيداً ما دمت فيهم، فلما توفّيْتني كنتَ أنتَ الرقيبَ عليهم، وأنتَ على كل شيء شهيد﴾[2]. فعيسى لم يكن إلٰهاً ولم يكن ابن إله، ولم يدّع الألوهية يوماً، وهو العبد الصادق المخلص الذي يدعو إلى عبادة الله وحده من دون تثنية ولا تثليث، هذا بشرع الإسلام وعُرْفِه، بينما المسيحيون يؤمنون بتجسد المسيح وباتحاد طبيعتي اللّاهوت والنّاسوت فيه، وأنه هو الله تجسّد في صورة البشر..

قال رسول الله ﷺ في رسالته إلى النجاشي امبراطور الحبشة: «.. وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونفخه، كما خلّق آدم بيده ونفخه.. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له..» صدق رسول الله.

هذا هو رأي الرسالة المحمديّة في أن الله واحد لا شريك له، وأنه لم

---

(1) سورة النساء، آية: 171.

(2) سورة المائدة، آية: 116.

يتّخذ له صاحبة ولا ولَداً، وأن عيسى واحد من أنبياء الله ورسله بعثه الله لهداية البشر جميعهم إلى عبادة إله واحد...

11 ـ مقارنة بين المسيحية والديانات الأخرى:

يعتقد المسيحيون في المسيح ما يعتقده الهنود في كريشنه الهندوسي، وما يعتقده البوذيون في بوذا. ومن خلال مقارنة أقوالهم يظهر التشابه في أصولهم الثلاثة ومعتقداتهم ونورد بعض القول هنا لمعرفة ذلك وللمزيد من المعلومات نعود إلى كتاب الشيخ محمد أبو زهرة «محاضرات في مقارنات الأديان ـ الجزء الأول، مأخوذة من كتاب «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية» الذي أجرى صاحبه مقارنة بين الأقوال الثلاثة، وهذه الأقوال تقاربت إلى درجة المطابقة شبه التامة..

* يقول الهنود الوثنيون في كريشنة «ابن الله»:

1 ـ كريشنة: هو المخلص والفادي والمعزي والراعي الصالح والوسيط، وابن الله، والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس، وهو الأب والابن وروح القدس...

2 ـ لقد مجّد الملائكة «ديفاكي» والدة كريشنة ابن الله، وقالوا: يحق للكون بأن يفاخر بابن هذه الطاهرة...

* ويقول المسيحيون في يسوع «ابن الله» القول نفسه:

1 ـ يسوع المسيح: «هو المخلص والفادي والمعزي والراعي الصالح والوسيط، وابن الله، والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس، وهو الأب والابن وروح القدس..».

2 ـ دخل الملاك على مريم العذراء والدة يسوع، وقال لها سلام لك أيها المنعم عليها، الرب معك.

* ويقول الهنود في بوذا «ابن الله»:

1 ـ كان تجسد بوذا بوساطة حلول روح القدس على العذراء «مايا».

2 ـ لمّا نزل بوذا من مقعد الأرواح، ودخل في جسد العذراء مايا صار رحمها كالبلور الشفاف النقي، وظهر بوذا فيه كزهرة جميلة..

* ويقول المسيحيون في المسيح ابن الله القول نفسه:

1 ـ كان تجسّد يسوع المسيح بوساطة حلول الروح القدس على العذراء «مريم».

2 ـ لمّا نزل يسوع المسيح من مقعده السّماوي، ودخل في جسد مريم العذراء صار رحمها كالبلور الشفاف النقي، وظهر فيها يسوع كزهرة جميلة.. وإذا عدنا إلى تاريخ كل من البرهمية والبوذية لوجدناهما أسبق من النصرانية بكثير. فمن الأصل؟ ومن الفرع؟ ومن المشتق؟ ومن المشتق منه؟.

12 ـ الإنجيل المقدس «البشارة»:

كتاب منزل من عند الله على المسيح عليه السلام، تضمن الهدى والنّور وقول الحق بالدعوة إلى وحدانية الله، وقد أهاب بني إسرائيل الضالين، الرجوع إلى عبادة الله وحده..

وقد جاء متمماً لتوراة موسى عليه السلام، بشّر به الرسل والمبشرون ولكن، أين هذا الإنجيل المنزل من عند الله؟. إنه غير متداول الآن، ولا وجود له بين الكتب المسيحية التي يعدونها مقدسة...

قال تعالى: **﴿وآتيناه الإنجيل فيه هدىً ونور، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين﴾**[1].

وبدون هذا الإنجيل فهم ليسوا على شيء، لأن فيه شريعة السماء، وتعاليم الرب رب العالمين، جاء في قوله تعالى: **﴿قل يا أهل الكتاب لستم**

(1) سورة المائدة، آية: 46.

على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل، وما أنزل إليكم من ربكم﴾[1].

فالإنجيل الذي أنزل على السيد المسيح، والذي سلمه بدوره إلى حوارييه وتلاميذه، وأمرهم أن يبشّروا به، غير موجود بين أيديهم. . فقد هجره الناس على مرّ الزمان، وترتب على ذلك ضياعه أو نسيانه، ولذلك قام تلامذة المسيح وغيرهم بتأليف الكثير من الأناجيل بشكل قصصي، يزيد عددها على مئة إنجيل، منها أناجيل غير قانونية، وأخرى غير مشروعة، مثل أناجيل الناصريين وأناجيل العبرانيين وأناجيل المصريين، وإنجيل توما، وإنجيل برنابا، وبعض الرسائل الدينية الأخرى، وقد تعرضت هذه الأناجيل إلى التحريف والتكرار، والتناقض والزيادة والنقصان، لذلك لا يعمل بها على مستوى الكنيسة وهي أشد اختلافاً وأكثر تفاوتاً من التوراة. . .

أما الأناجيل القانونية فهي التي أقرّتها المجامع الكنسيّة وذوو السلطان فيها، حيث اتفقوا على عدد من الكتب، عدوها صادقة صحيحة، لأنها تحتوي على شهادات الرسل عن حياة المسيح وتعاليمه، وهي التي تعبر عن دينهم وعقيدتهم، فأقرّوها، وهي أربعة أناجيل هي:

إنجيل متّى، إنجيل مرقس، إنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا. إضافة إلى بعض أعمال الرسل، مثل رسائل بولس، ورسالة يعقوب، ورسائل بطرس الرسول، ورسائل يوحنا الرسول، ورسالة يهوذا ورؤيا يوحنا اللاهوتي، وما عداها فهي أناجيل مزيّفة ومزّورة، وغير صحيحة، وبالتالي فهي غير مشروعة، ولا يؤخذ بها، وغير معترف بها رسمياً.

إن هذه الأناجيل المتداولة تقص أخبار السيد المسيح وسيرته، في أحواله وأقواله وأفعاله. . سجلها أتباعه بعد وفاته بإلهام صادق وبشكل صحيح، وأول من ذكر هذه الأناجيل الأربعة «آرينيوس» في سنة (209 م)، ثم جاء بعده «كليمنس اسكندريانوس» في سنة (216 م) وقد دلت بعض الإشارات الواردة في هذه الأناجيل المعترف بها وبخاصة رسائل بولس على أن السيد المسيح كان

---

(1) سورة المائدة، آية: 68.

يتكلّم عن إنجيل منزل خاص به حيث يقول: «. . ولكن إن كان انجيلنا مكتوماً فإنما هو مكتوم في الهالكين»[1].

وتتفق هذه الأناجيل في بعض أقوال وأعمال السيد المسيح وخاصة منها: إنجيل متّي، ومرقس ولوقا، وتسمى الأناجيل المتشابهة، وتختلف في مواقف كثيرة أيضاً. ولعل هذه الاضطرابات في الأناجيل أنها دوّنت في عصور اضطهاد المسيحية الأولى التي استمرت مدة (313 سنة)، ويقرّ مناظروهم بأن هذه الاضطهادات كانت سبباً في فقدان سندها المتصل بصاحب الشريعة.

إن هذه الأناجيل التي أصبحت رسمية فيما بعد لم تعرف إلا في عصر متأخر على الرغم من أنها كُتِبت في بداية القرن الثاني. يقول كولمان: «إن المبشرين لم يكونوا إلا متحدثين باسم الجماعة المسيحية الأولى التي تثبت التراث الشفهي، فقد بقي الإنجيل طيلة ثلاثين أو أربعين سنة في شكله الشفهي فقط»[2]. ويتابع حديثه قائلاً: «إن احتياجات التبشير والتعليم والممارسة الدينية هي التي دعت الجماعة الأولى إلى تثبيت هذا التراث عن المسيح بأكثر من اهتمامها بتسجيل حياة المسيح ذاته».

إن أول الكتابات المتداولة قبل الأناجيل هي رسائل بولس التي كُتبت قبل ذلك بعشرات السنين، وأنه قبل عام (140 م) لم يكن هناك ما يدل على وجود كتابات إنجيلية صادقة.

إن الأناجيل المذكورة تكاد تخلو من النقاط النهائية التي وصلت إليها العقيدة المسيحية على حد قول «ويلز» في كتابه «معالم تاريخ الإنسانية» حيث يقول: «هنالك أمر ثابت، هو أننا لا نجد في الأناجيل شيئاً تقريباً يثبت ما تؤكّده النصوص اللاهوتية، مما يشكل في مجموعه دين المسيحية، فلا يوجد في أي

---

(1) رسالة بولس كورنثيوس.
(2) كولمان في كتابه العهد الجديد.

موضع منها بصورة صريحة ما يثبت بوضوح المذاهب التي يعدّها كل المبشرين من شتى الفِرق ضرورية للسلام، ومن العسير أن نجد كلمة واحدة خرجت من فم المسيح يمكن أن تدل على أنه كان يعدّ نفسه مسيح اليهود، أو أنه كان يعتقد بأنه يشارك في الألوهية. . ». وقد جاء في إنجيل متّى على لسان المسيح: «ولا تدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السموات، ولا تدعوا معلمين لأن معلمكم واحد، المسيح»[1].

إلّا أن النصارى خالفوا أحكام التوراة والإنجيل بتشريعات وضعوها لأنفسهم، من ذلك: تحويل صلاتهم جهة الشرق لأنها مطلع الكواكب النيّرة، وتصويرهم في كنائسهم صوراً آدمية، وتركهم الخِتان، ونقلهم صيامَهم إلى فصل الربيع، وزيادته إلى خمسين يوماً، وأكلهم لحم الخنزير واتباع الرهبانية، وتحريم الزواج لمن أراد التعبّد، واتباع القوانين التي وضعها أساقفهم ورهبانهم في زمن قسطنطين الامبراطور، وكثرت أعيادهم بسبب عظمائهم، وكثرت كنائسهم على أسماء عبادهم، فقد بُني في أيام قسطنطين بالشام وغيرها من المدائن والقرى أكثر من اثنتي عشر ألف كنيسة، وتفاقم كفرهم، وغلظت مصيبتهم، وتخلّد ضلالهم، وعظم وبالهم، ولم يهدِ الله قلوبهم ولا يصلح بالهم، بل صرف قلوبهم عن الحق وأمالها عن الاستقامة. . ثم اجتمعوا في النّسطورية واليعقوبية، وكل فرقة من هؤلاء تكفّر الأخرى، وكلهم يقول في الأقانيم الثلاثة: أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الكلمة. . ولكن بينهم اختلاف في الحلول والاتحاد، فيما بين اللاهوت والناسوت، هل تدرعه، أو حلّ فيه، أو اتحد به؟. . واختلافهم في ذلك شديد. .[2].

الأناجيل الأربعة:

هي كتب ذُكرت فيها ترجمة حياة السيد المسيح وأقواله وأفعاله وتعاليمه، وأقرّت بوحدانية الخالق الأب السماوي لجميع البشرية والعمل بأوامره،

---

(1) متى 33.
(2) ابن كثير في البداية والنهاية.

إصحاحاً، كُتب اللغة اليونانية، وهو كتاب حرّره تلميذ لأحد الحواريين واسمه يوحنا وهو من السبعين، وليس من الحواريين يقول عنه الأب روجيه: «إن مرقس كاتب غير حاذق، وهو أكثر المبشرين ابتذالاً، فهو لا يعرف أبداً كيف يحرر حكاية». ويقول عنه بطرس قرماج: «إن مرقس كان يهودياً لاوياً، وهو تلميذ لبطرس، صنف إنجيله بطلب أهل رومية، أنكر الألوهية للمسيح هو وأستاذه بطرس الحواري، مات مقتولاً في سجن الإسكندرية سنة (68 م) حيث قتله الوثنيون»[1].

لقد اتخذ مرقس مصر مستقراً له للتبشير بدينه، حتى مات. .

إن الكتّاب المحدثين يعدّون خاتمة هذا الإنجيل في الإصحاح السادس عشر مؤلفاً مضافاً إليه، وهي لا تنتسب إلى مرقس وإنما هي مستخرجة من أناجيل أخرى، وقد اختُلف في تاريخ تأليفه، ويُعتقد أنه كُتِب بتدبير بطرس ما بين 61-68 م. يقول ابن البطريق: «وفي عصر نيرون قيصر، كتب بطرس رئيس الحواريين إنجيل مرقس، عن مرقس في مدينة رومية، ونسب إلى مرقس». ولكن أربينوس يقول عكس ذلك: «إن مرقس كتب إنجيله بعد موت بطرس وبولس». .

(جـ) **إنجيل لوقا**: يقع في أربعة وعشرين إصحاحاً، كُتب بلغة يونانية راقية، وهو إنجيل أدبي جيد، انفرد بذكر طفولة السيد المسيح، وقد أعطى نسباً مختلفاً عما جاء في إنجيل متّى، كُتِب حوالي 60 م وربما بعد ذلك، حرّره لوقا وهو كاتب روائي حقيقي. وحسب رأي الباحثين فيه أنه كاتب حوليّات، وهو وثني آمن بالمسيحية، ويُعتقد أنه كان طبيباً ناجحاً، وهو من أهل أنطاكية ومنهم من قال إنه من إيطاليا، ولم يرَ المسيح أصلاً، لُقِّنَ النصرانية عن بولس وعمل معه، وبولس كان يهودياً، متعصّباً على المسيحية، ولم يرَ المسيح في حياته، وكان يسيء كثيراً إلى النصارى، ثم اعتنق النصرانية. .

يذكر الأب كانينجر: «لوقا هو أكثر كتّاب الأناجيل الأربعة إرهافاً في

---

(1) كتاب مروج الأخبار في تراجم الأبرار لبطرس قرماج. .

الحسّ وأكثرهم ميلاً للأدب، إنه يتمتع بكل صفات الكاتب الروائي الحقيقي. ويرجح الدكتور بوست أنه كُتِب في قيصرية في فلسطين مدة أسر بولس سنة (58-60 م)..

(د) إنجيل يوحنا: يقع في واحد وعشرين إصحاحاً، وهو مختلف عن الأناجيل الثلاثة السابقة له، حُرِّرَ في نهاية القرن الأول، وله ثلاث رسائل أخرى، كتبه يوحنا بن زبيدي الصياد، وهو أحد الحواريين، وُلِد في بيت صيدا من الجليل، وأمّه «سالومة» كانت فاضلة نقية، وكان يحبه المسيح كثيراً، حتى سمّاه «التلميذ الحبيب».

يروي يوحنا في إنجيله قصة ظهور المسيح بعد قيامته، وربما ساهم في كتابة هذا الإنجيل أكثر من كاتب واحد، وهو يتميّز بذكر بعض الأحداث التي لم ترد في الأناجيل الثلاثة السابقة، وقد جاء ليكمّل ما لم يُكْتب في هذه الأناجيل، فكتب عن ألوهية المسيح التي لم تذكر عند غيره من قبل، مع أن هذه الألوهية هي أصل الدين عند النصارى.. كتبه يوحنا في أفسس بعد انتشار الأناجيل الأخرى واستمر في تبشيره في أفسس حتى توفي شيخاً هرماً في 98 م، وكان يوحنا يهودياً من فلسطين، من أقواله في الألوهية: «أما هذه فقد كُتِبَت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله، ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمة»[1]..

(هـ) إنجيل برنابا: اسم آرامي معناه (ابن الوعظ) وهو لاوي من قبرص. يذكر في إنجيله ترجمة عن حياة المسيح، وعن أعماله وأقواله، يمتاز ببلاغته ودقة تعبيره، وقوة تصويره، وسموّ تفكيره، بشر باقتراب ملكوت السموات، يعده رجال الكهنوت المسيحي بأنه إنجيل منحول، لأنه يخالف رأي الكنيسة ولا يتفق مع الكتب المسيحية في كثير من المواقف الدينية الجوهرية، وبخاصة قضية الثالوث وقضية الصلب وألوهية المسيح، وقوله أن الذبيح الذي تقدم به إبراهيم الخليل للفداء، هو إسماعيل وليس إسحق كما تدعي التوراة، وقوله إن المسيح أو مسيا المنتظر هو محمد ﷺ.

---

(1) يوحنا: 20.

وبرسولي قالوا آمنا وأشهد بأنّنا مسلمون﴾[1]. فالحـواريون كـانوا مسلمين بعقيدتهم وتفكيرهم، فقد آمنوا بالله ورسوله، وعملوا بوصاياه، وامتثلوا أوامره، لأنهم أحبوه وصدّقوه، بينما كذّبه اليهود، ونعتوه بأقذع الكلمات، ورفضه أبناء قومه وأهل بلده، ولهذا قال عليه السلام: لا كرامة لنبي في أرضه..

ويذكر جل شأنه الحواريين في موضع آخر من كتابه الكريم، يؤكد فيه على أن الحواريين كانوا مسلمين قال تعالى: **﴿فلمّا أحسَّ عيسى منهم الكفر قال: من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله، آمنّا بالله، واشهد بأنّا مسلمون﴾**[2].

يقول يوحنا على لسان يسوع: «إن كنتم تحبّونني، فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزّياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد»[3]. ويبين لنا قصده من المعزّي فيقول في موضع آخر: «وأما المعزّي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، ويذكّركم بكل ما قلته لكم﴾[4]. وقد فرّق كتابهم المقدس بين التلاميذ وأخوة الرب، فقد ذكر في العهد الجديد أسماء أربعة هم: «يعقوب، ويوسي، وسمعان، ويهوذا، وقد ذكر أنهم أخوة الرب»[5]. فهل آمن هؤلاء الأخوة برسالة المسيح؟؟.

يقول يوحنا: «وحتى نهاية خدمته لم يكونوا قد آمنوا به بعد»[6]. ويقول متّى: «ومرة فيما كان يسوع يكلّم الجمع جاءت أمّه وأخوته طالبين أن يكلموه»[7]. وربما كان هؤلاء الإخوة الأربعة أولاد مريم من يوسف بعد أن ولدت ابنها البكر يسوع، وهي عذراء. أو أنهم أخوته، أي أولاد يوسف من زوجة

---

(1) سورة المائدة، آ-: 111.
(2) سورة آل عمران، آية: 52.
(3) يوحنا: 14.
(4) يوحنا: 14.
(5) متّى: 13.
(6) يوحنا: 7.
(7) متّى: 12.

أخرى قبل أن يخطب مريم العذراء.. والرأي الأخير هو الأكثر قبولاً وتصديقاً...

14 ـ قصة التلميذ الشبيه بعيسى المسيح:

تقول الروايات الدينية أن كل الحواريين آمنوا بيسوع رسولاً ونبياً هادياً، إلا أن واحداً منهم قد خانه وتآمر عليه هو: يهوذا الأسخريوطي. الذي وعد على تسليمه إلى أعدائه من اليهود، الذين كانوا لا يعرفونه شكلاً، مقابل ثلاثين قطعة من الفضة، وكان يسوع ـ بقدرة الله ـ يعلم ذلك فقال لأصحابه في نهاية العشاء الأخير «أقول لكم إن واحداً منكم يسلِّمُني».. وفي وقت متأخر من الليل خرج يسوع إلى جبل الزيتون عند أطراف المدينة المقدسة وصلّى للرب ليخفّف عنه العذاب القادم إليه، الذي سيلقاه قريباً... ولقد جاء في إنجيل برنابا: «ولمّا دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع، سمع يسوع دنوّ جمّ غفير، فلذلك انسحب إلى البيت خائفاً، وكان الأحد عشر نياما، فلما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وإدريل سفراءه، أن يأخذوا يسوع من العالم، فجاء الملائكة الأطهار، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب فحملوه، ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبّح الله إلى الأبد، ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أُصعِدَ منها يسوع، وكان التلاميذ كلهم نياماً، فأتى الله العجيب بأمر عجيب، فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه، فصار شبيهاً بيسوع حتى أننا اعتقدنا أنه يسوع أما هو: فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم؟.. لذلك تعجبنا.. وأجبنا أنت يا سيدي معلّمنا.. أنسيتنا الآن؟». وكان ما كان، لقد صُلِبَ يهوذا نفسه الذي أوقعه الله في شر أعماله، فقد أخذ وهو في شبه المسيح، واقتيد وهو يحمل الصليب وعلى رأسه الشوك إلى مكان الصلب، وضُرِبَ وعُذِّب وجُرِح على أنه المسيح، والكل يظنونه المسيح، ودُقّت يداه وقدماه إلى الصليب، ثم ضُرب حتى مات مصلوباً، وكُفِن ودُفن في مقبرة (يوسف الرامي). ثم اختفى منها، بينما كان المسيح في طريقه صاعداً إلى السماء للقاء ربه في الأعالي، وما قتلوه يقيناً. وقال يسوع: الحق

وجلس على يمين الله»[1]. وإن كان بعض الباحثين مثل الأب روجي، يعدّ هذه الجملة ليست نصّاً صحيحاً، وأنها ليست من أصل الإنجيل، وإنما كُتبت وأُضيفت بعد ذلك، مع أن الكنيسة تعدّه نصاً قانونياً، ومن صُلْب الإنجيل..

بينما يذكر لوقا حدث الصعود في خاتمة إنجيله أيضاً قائلاً: «وفيما هو يباركهم انفرد عنهم، وأُصْعِد إلى السماء، فسجدوا له ورجعوا إلى أورشليم بفرح عظيم»[2]. وهو يحدد الصعود مساء يوم الفصح حيث اكتشف القبر فارغاً يوم القيامة، وكان رابع عيد الفصح حضره السيد المسيح مع تلامذته وحوارييه..

وفي أعمال الرسل ذُكِر حدث الصعود صراحة، فقد ذُكِر أن يسوع كان يخاطب الرسل الذين اختارهم، والذين أراهم أيضاً نفسه حيّاً ببراهين كثيرة بعدما تألّم. وهو يظهر لهم أربعين يوماً، ويتكلم عن الأمور المختصة بملكوت الله»[3]. فهو يحدد العيد المسيحي للصعود بأربعين يوماً بعد الفصح حيث يحتفل بالقيامة..

ويتابع القول في أعمال الرسل: «ولما قال هذا ارتفع وهم ينظرون، وأخذته سحابة عن أعينهم..»[4]. وكان في منطقة الجليل، وأهل الجليل هم المعنيون بالأمر، واليهم كان الخطاب ومن بينهم قد ارتفع إلى جوار ربّه.. واختتمت حياة المسيح على الأرض بهذا النصر النهائي، وتم فيه ما أعلنه الرسل يوم الخمسين.. «إن الله قد جعل يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم ربّاً ومسيحاً»[5]. وفي كل هذه الأقوال تصريح وإقرار بصعود المسيح عليه السلام إلى جوار ربه في السموات العُلا..

17 ـ رأي الإسلام في صلب المسيح ورفعه:

للإسلام رأي واضح وصريح في صلْب المسيح وقتْله كما يدّعي أتباعه.. جاء ذلك في قوله تعالى وهو القول الفصل: **﴿وقولهم إنا قتلْنا المسيح عيسى ابن**

---

(1) مرقس: الاصحاح 16.

(2) لوقا: الاصحاح 24.

(3) أعمال الرسل: الاصحاح الأول.

(4) أعمال الرسل: الاصحاح الأول.

(5) أعمال الرسل: الاصحاح 2-36.

مريم رسول الله، وما قتَلوه، وما صلَبوه، ولكنْ شُبِّهَ لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه، ما لهم به من عِلْم إلاّ اتباع الظن، وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه﴾[1].

هذا هو رأي الإسلام صراحة، قطع الشك باليقين للذين آمنوا وإن عيسى لم يُصْلَب ولم يُقْتل بل رفعه الله إليه. إلا أن بعض الباحثين من أتباع المسيح قال إنه عندما أحرَج السيد المسيح الكتبة والفريسيين من اليهود بتعليمه، وتجريحه إياهم في طريقتهم، وفضح ريائهم وخبثهم وكشف مكرهم وخداعهم بدأوا يكيدون له، ويدبّرون قتله ـ على نحو ما ذكرنا ـ فادّعوا عليه إلى الوالي الروماني «بيلاطُس البُنطي» بأن المسيح يدعي أنه مِلك اليهود وأنه يثير الشغب بين الناس، وهم لا يعترفون إلا بقيصر ملك روما وكانت أيام حكم طيباريوس قيصر (42-37 ق. م) وكان ما كان، على الشبيه كما ذكرنا. وهكذا فقد نجا المسيح من شرهم بقدرة الله، واختفى عن أعين أعدائه، فقد رفعه الله بروحه وجسده حياً إلى السماء. قال تعالى: **﴿إذ قال الله يا عيسى، إني متوفيك ورافعك إليّ، ومطهّرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتّبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾**[2]. لقد رفع الله المسيح إلى السماء حيّاً جسداً وروحاً بعد أن توفّاه بالنوم فقط، وكان عمره ثلاثة وثلاثين سنة، وكان ذلك في 7 نيسان عام 30 ميلادية على ما يذكر التاريخ، والمسيح الآن في السموات العُلا إلى جوار ربه.. وإنه سينزل يوماً إلى الأرض سينزل في آخر الزمان قبل قيام الساعة، وأنه سيقوم بإصلاح ما فسد من أمر فسيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويقتل المسيح الدّجال الكاذب الدّاعي إلى الضّلال، رمز الأسطورة والدّجل وكل القبائح، والله بذلك عليم...

18 ـ يوم ميلاد المسيح:

إن العالم المسيحي وكل العالم الحديث الذي يتبع في تاريخه التقويم

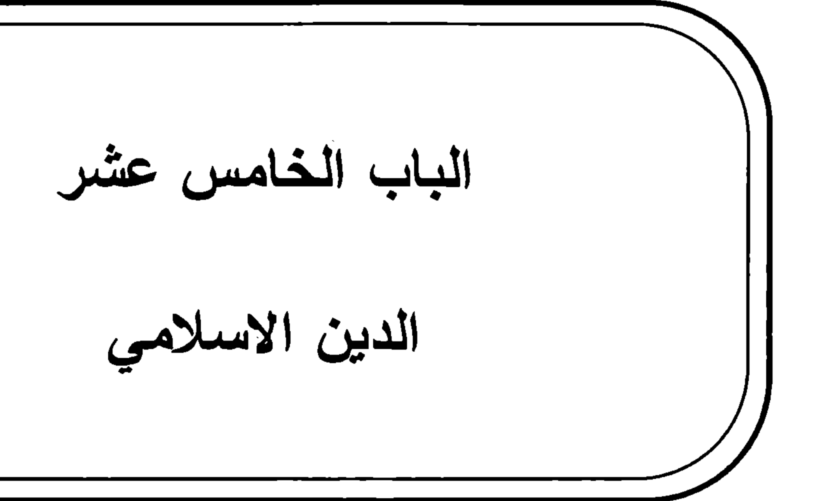
---

(1) سورة النساء، آية: 157-158.

(2) سورة آل عمران، آية: 55.

المسيحي الغربي يحتفل بميلاد المسيح في 25 كانون أول، وهذا اليوم الذي يعدونه فلكياً يوم الانقلاب الشتوي، الذي تصل فيه الشمس إلى آخر مدى لها في ميلها عن كبد السماء، ويكون أقصر نهار في السنة في النصف الشمالي للكرة الأرضية. ثم يبدأ بعد ذلك يطول على حساب الليل، لذلك اعتبر هذا اليوم في الديانات الشمسية عيد ميلاد للشمس، وقد ارتبطت بالشمس عبادة أدونيس في سورية، وأويزيرس في مصر، وكان السوريون يحتفلون بمولد أدونيس ليلة 25 ك1 فكانوا يجتمعون في المعابد، ويصرخون عند منتصف الليل: «لقد أنجبت العذراء ابناً والنور ينتشر» ويقصدون بالعذراء هنا عشتار أو عشتاروت ملكة السموات.. وقد اعتُبِر كذلك يوم 25 ك1 عيد ميلاد «ميترا» إله النور والخير، وكانت الشمس رمزاً له، الشمس التي لا تقهر، والتي تبدأ في هذا اليوم بالصعود إلى كبد السماء، دافعة أمامها قوى الشر والظلام.. وفي المسيحية يختلف الأمر، فيعد هذا اليوم تاريخ ميلاد المسيح، ولو أن الأناجيل الأربعة لم تذكر تاريخاً محدّداً لميلاده، ولذلك لم تحتفل الكنيسة الأولى بميلاد السيد المسيح، وإنما اتفق المؤرخون على أن ولادته في 25 كانون أول من عام 5 ق. م. بينما احتفل المسيحيون في مصر، وبلاد الشرق بيوم 6 كانون ثاني على أنه يوم ميلاد السيد المسيح وهو تاريخ المعمودية، لكن الكنيسة الغربية تبنت يوم 25 ك1 تاريخاً رسمياً لميلاد المسيح مع نهاية القرن الثالث الميلادي أو مع بداية الرابع، ثم تبعتها الكنيسة الشرقية في ذلك، وأصبح يوم 6 كانون ثاني على أنه عيد الغطاس..

أما عيد الفصح، فهو عيد قيامة المسيح من بين الأموات بعد أن عانى ما عاناه على درب الآلام في يوم الجمعة الحزينة ويأتي في أول يوم أحد يأتي بعد أول «بدر» يلي نيروز الربيع.. وهذا ارتباط بحركة القمر...



الباب الخامس عشر

الدين الاسلامي

1 ـ الإسلام:

دين البشرية كلها، ورسالة كل الأنبياء والرسل، منذ عهد آدم عليه السلام حتى بعثة محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، والذي كلفه الله بتبليغ شريعة الإسلام ونشر تعاليمه، والتي هي آخر شرائع السماء وأكملها، الصالحة لكل زمان ومكان. وهو يعني عبادة الله وحده، والإخلاص له دون سواه. . .

فدين الإسلام هو دين محمد عليه الصلاة والسلام. وقد سمّاه الله كذلك في كتابه الكريم. فقد وردت كلمة الإسلام والمسلمين في مواقع كثيرة منه، وعلى لسان معظم الرسل. .

فالإسلام هو الشريعة السمحاء، والدين القيم الذي رضيه الله لعباده وأمرهم بطاعته من خلاله. وهو الدين الكامل الذي لا يعتريه الشك، ولا يأتيه الباطل. قال تعالى: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾**[1].

والإسلام من الوجهة الشرعية يعني توحيد الله وطاعته، والخضوع له، والإخلاص في عبادته، والإيمان بالأصول الدينية التي جاءت من عند الله ودعا

---

(1) سورة المائدة، آ: 3.

إليها جميع الأنبياء والمرسلين منذ عهد آدم عليه السلام إلى عهد نوح من بعده الذي أمره الله أن يكون من المسلمين إذ قال: **﴿وأمِرْتُ أن أكونَ من المسلمين﴾**[1] وتبعته ذريته من بعده إلاّ من كفر. ثم جاء أبو الأنبياء إبراهيم الخليل الذي اصطفاه الله في الدنيا، وجعله في الآخرة من الصالحين، فلبّى نداء ربه وكان من المسلمين. قال الله يخاطبه: **﴿إذْ قال له ربُّه أسْلِم، قال: أسلَمْت لربِّ العالَمين﴾**[2].

وجاء على لسان إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام قوله تعالى: **﴿ربّنا واجعلْنا مُسلِمَيْن لك ومن ذرّيتِنا أمّةً مُسلمةً لك﴾**[3]. وقال في محكم كتابه: **﴿ومن أحسنُ ديناً ممن أسْلَم وجهَهُ لله وهو مُحسِن واتّبع ملّةَ إبراهيمَ حنيفاً﴾**[4]. وجاء في قوله تعالى: **﴿قل إنّي أمِرْت أن أكونَ أوّلَ مَن أسْلَم ولا تكوننَّ من المشركين﴾**[5]. فمن أسلم فقد اهتدى، ومن رفض الإسلام فقد زاغ، وضلّ عن الصراط المستقيم فهود دين الهداية والتقوى، وليس ثمة أعظم من الإسلام ديناً. وليس أفضل وأجلّ ممّن اتخذوا الإسلام ديناً... فهذا يعقوب عليه السلام يقول لأبنائه: **﴿إن الله اصطفى لكم الدّين، فلا تموتُنّ إلاّ وأنتُم مسلمون﴾**[6]. فأبناء يعقوب كانوا من المسلمين، وأمرهم ألاّ يموتوا على غير دين الإسلام الذي اختاره الله لهم....

وكذلك يوسف عليه السلام، إذ خاطب ربّه راجياً أن يتوفّاه مسلماً ويُلحقه بالصالحين، حيث قال: **﴿أنتَ وليي في الدنيا والآخرة، توفّني مُسلِماً وألحقني بالصالحين﴾**[7].

---

(1) سورة يونس، آية: 72.
(2) سورة البقرة، آية: 131.
(3) سورة البقرة، آية: 128.
(4) سورة النساء، آية: 125.
(5) سورة الأنعام، آية: 14.
(6) سورة البقرة، آية: 132.
(7) سورة يوسف، آية: 101.

وعلى لسان سيدنا موسى جاء في التنزيل الحكيم **﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله، فعليه توكّلوا إن كنتم مسلمين﴾**[1]... وجاء على لسان سحرة فرعون الذين آمنوا بموسى نبياً قالوا: **﴿ربّنا أفرِغْ علينا صبراً، وتوفّنا مسلمين﴾**[2]... وجاء كتاب التوراة من عندالله فيه الهدى وفيه النور لمن يحكم به، كشريعة الإسلام تماماً. قال جلّ شأنه: **﴿إنّا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونور يحكم بها النبيّون الذين أسلموا للّذين هادوا والربّانيون والأحبار﴾**[3].

وقد جاء على لسان السيد المسيح وهو يخاطب حوارييه: **﴿قال: من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله آمنا بالله، واشهد بـأنّا مسلمون﴾**[4].

فمصدر الديانات السماوية واحد، وكتب التشريع من عنده جلّ شأنه، وقد دخلها التحريف والتحوير والتزوير، إلاّ ما أُنزِل على محمد ﷺ وهو القرآن الكريم، ناسخ كل الكتب السماوية وفيه تشريع الإسلام آخر شرائع السماء. قال تعالى: **﴿وممّن خلقنا أُمّةٌ يهدون بالحق وبه يَعدِلون﴾**[5] فالأمة المعنية هي أمة محمد ﷺ الذي جاء ليكمل رسالة سلفه من الشرائع السماوية وليعيد الحنيفية إلى البشرية الضالّة، وهي دين إبراهيم ودين نوح وآدم من قبله، دون تفريق بين أحد من أنبياء الله الذين أوحى الله إليهم بالدعوة إلى وحدانيته وعبادته وحده.

فقال لرسوله محمد ﷺ: **﴿قل يـا أيها النـاس إنّي رسولُ الله إليكم جميعاً﴾**[6] وقال جلّ شأنه: **﴿وما أرسلناك إلاّ كافّة للناس بشيراً ونذيراً﴾**[7].

---

(1) سورة يونس، آية: 84.
(2) سورة الأعراف، آية: 126.
(3) سورة المائدة، آية: 44.
(4) سورة آل عمران، آية: 52.
(5) سورة الأعراف، آية: 181.
(6) سورة الأعراف، آية: 158.
(7) سورة سبأ، آية: 28.

فرسالة محمد ﷺ كانت لكل العالَمين لهدايتهم وإرشادهم، ولم تكن لفئة دون غيرها، لقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالَمين﴾[1]. فرسالته إنقاذ ورحمة لكل البشرية، ويذكّرنا جلّ شأنه بأنه ما من رسول كان قد أُوحي إليه قبل محمد ﷺ إلاّ وكان يدعو إلى وحدانية الله وعبادته. قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون﴾[2]. فالإسلام هو الديـن عند الله، ولا دينَ غيره، ومن جاء بغيره فقد ضلّ، وكان من الخاسرين، قال تعالى: ﴿إن الدّين عند الله الإسلام﴾[3]. ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين. وكذلك قال: ﴿ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يُقْبلَ منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[4].

وجاء في الحديث الصحيح قول رسول الله ﷺ: «مَثَلي ومثل الأنبياء قبلي، كمثَل رَجُل بنىٰ بيتاً فأَحْسنهُ وأجْملَهُ إلاّ موضعِ لَبنةٍ في زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون به، ويقولون: هلاّ وُضِعَتْ هذه اللَّبِنة؟ فأنا تلك اللَّبِنَة وأنا خاتم النّبيّين»[5].

فالدين الإسلامي هو الدّين المقبول عند الله، والشرع الإسلامي هو الشرع المعتمد عنده، ومن جاء بغير ذلك فقد خسر وضلّ، وقد نسخ الله بالإسلامَ كل شرع سابق، ولن ينزل بعده شرع لاحق. فالنبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، والشرع الإسلامي خاتم كل الشرائع السماوية، وقد جاء دين الإسلام ليوفّق بين من اختلف من أصحاب الشرائع والأديان، وليبيّن الحق لمن حاد عنه، وليصلح ما طرأ عليها من البدع والضلالات، وكل ما جاء بعد محمد باطل.

فقد جاء في فاتحة كتاب الله بعد حَمْـده تعالى: ﴿إهـدنا الصـراط

---

(1) سورة الأنبياء، آية: 107.
(2) سورة الأنبياء، آية. 25.
(3) سورة آل عمران، آية: 19.
(4) سورة آل عمران، آية: 85.
(5) أخرجه الشيخان...

المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين﴾[1].
والدين الإسلامي في جوهره، عقيدة وعبادة وبناء.. فهو عقيدة تتمثل بالشهادتين، وأركان الإيمان..

وهو عبادة تتمثل بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج..

وهو بناء يقوم فوق كل هذه الأركان ديناً قيّماً مستقيماً، كاملاً متكاملاً.. ومن هداه الله يشرح صدره للإيمان وينور قلبه بالإسلام لقوله تعالى: **﴿فمن يُرد اللَّهُ أنْ يَهديَه يشرح صدره للإسلام﴾**[2] ربّنا اشرح صدورنا للإسلام، ونوّر قلوبنا بالإيمان.

2 ـ من تعاليم الإسلام.

جاء جبريل عليه السلام إلى حضرة المصطفى ﷺ على هيئة أعرابي وجلس بجانبه وقال: «يا رسول الله، ما الإسلام؟ فقال: أن تشهد أن لا إله إلاّ الله، وأني رسول الله، وأن تُقيم الصلاة، وتُؤتي الزكاة، وتصوم شهر رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال: صدقت.

ثم قال: ما الإيمان؟ قال عليه الصلاة والسلام: أن تؤمن بالله وملائكته وكُتُبِهِ ورُسلِهِ واليوم الآخر وأن تُؤمن بالقدر خيره وشرّه. قال: صدقت.

ثم قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد اللَّهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: صدقت. ثم قام وخرج، فقال النبيّ لصحبه: «هذا جبريلُ جاءَكم يعلِّمُكم أمرَ دينكم»

لقد تضمّن القرآن الكريم نصوص التشريع الإسلامي مفصّلة، ويُعدّ المصدر الأول للتشريع الإسلامي. وتضمنت الآيات القرآنية عقائد وعبادات وتعاليم الإسلام، إذْ وضّحت العلاقة بين العبد وخالقه، وبين أفراد البشر مع بعضهم.. فقد دعت إلى التوحيد والإيمان بالله وحده لا شريك له، وحذّرت من اتّباع الوثنية أو التمسّك بها...

---

(1) الفاتحة، آية: 5-7. (2) سورة الأنعام، آية: 125.

وضرب الله الأمثال للناس بالأمم الخالية، وما حلّ بهم من عـذاب لطغيانهم، وعدم إيمانهم به، وعِصيانهم له. وقصّ عليهم أحسن القصص لتكون عبرة لمن يعتبر. . .

وتضمّنت الإيمان بيوم الحساب الذي يُجازىٰ فيه كل إنسان بما فعل في الحياة الدنيا، إن خيراً فخير، وإنْ شـراً فشرّ، فأين المفر؟. قال تعالى: **﴿لقد جئتمونا فرادىٰ كما خلقناكم أول مرة، وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنّهم فيكم شركاء، لقد تقطّع بينكم وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون﴾**[1].

لقد تضمّنت آيات الله العبادات في الإسلام، ونظّمت علاقة الإنسان بربّه.

ونصّت التشريعات كلّ ما يتعلق بالصلاة والصيام والحج والزكاة، وهذه أركان الإسلام.

كما تضمّنت قواعد وأصول التشريع الاجتمـاعي التي تنظّم العـلاقة الإنسانية. كما في الأحوال الشخصية من زواج أو طلاق أو ميراث. . ومن حقوق وواجبات أُسَرية أو فردية. وقد بيّن الله تعالى في كتابه الكريم أسس الأخلاق الفاضلة التي تقرّب العبد من ربه، وبيّن الخير والشر، والحلال والحرام وما ينتج عن اتّباع كلّ منهما، إذ قال: **﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنه وليٌّ حميم﴾**[2].

وقال جلّ شأنه: **﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾**[3]. وقد دعا الإسلام إلى الحرية في العقيدة والعبادة بدليل قوله تعالى: **﴿لا إكراه في الدّين﴾**. كما دعا إلى المساواة بين جميع البشر كقول رسول الله ﷺ: **«الناس سواسية كأسنان المشط»**. . ونصّ الإسلام على أخوّة

---

(1) سورة الأنعام، آ ـ : 94.

(2) سورة فصّلت، آية: 134.

(3) سورة آل عمران، آ ـ : 177.

المؤمنين، وأنهم أسرة واحدة تنظّمها علاقات تشريعية صريحة، وجعل المحبة سبيل الإيمان، حيث قال عليه السلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه».

ونهى الإسلام عن أكل أموال الناس بالباطل، وأباح الربح الحلال، فأحلّ الله البيع وحرّم الربا، وحدّد أصول التّدايُن بين الناس، ونهى عن الفواحش كلها ما ظهر منها وما بطن، وأمر باجتناب الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وعدّها رجساً من عمل الشيطان، وأمر الناس بالتقوى بقوله جلّ وعلا: **﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربىٰ وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكّرون﴾**[1]. وحرّم قتل النفس بالباطل، ووضع لكل خطيئة عقاباً، ولكل حسنة ثواباً، قال تعالى: **﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾**[2].

وحرّم الكذب النميمة والغش الغيبة، وشهادة الزور، والزنا، وعدّها من الفواحش والكبائر.

وقد أمر الإسلام بالوفاء والعدل والعفو والصبر، وأمر بالطهارة والنظافة وعدّها من الإيمان وأمر بإفشاء التحية والسلام، وبالاستئذان عند دخول بيوت الآخرين. .

ونهى عن العصبيّة والمفاخرة بها لقول رسول الله: «ليس منّا من دعا إلى عصبيّة». وحضّ على العلم والتعلّم لكل مسلم ومسلمة. . ولم يترك كبيرة ولا صغيرة إلّا أحصاها، وما هذا إلّا غيض من فيض. . . فالإسلام أعظم من أن تعدّ محاسنه أو تُحصىٰ منافعه، فهو محراب الحق، ومدرسة الأخلاق. . . فهو دين كامل متكامل، رضيه الله لعباده ديناً، وجعله خاتم ديانات السماء وأجلّها، عندما قال جلّ جلاله: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾»**[3].

---

(1) سورة النحل، آية: 90.

(2) سورة البقرة، آ-: 179.

(3) سورة المائدة، آية: 3.

فهو دين عقيدة وعبادة، وشريعة وأخلاق، وأي خلل في أحدها يشوّه وجه الدين . .

3 ـ أركان العقيدة الإسلامية :

تقوم عقيدة الإسلام على قواعد خمس، ثابتة راسخة، فُرِض على المسلم اتّباعها وتأديتها كاملة غير منقوصة :

1 ـ شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله .
2 ـ إقامة الصلاة، بأوقاتها الخمسة .
3 ـ إيتاء الزكاة، والبرّ بالفقراء، والإحسان إليهم .
4 ـ صيام شهر رمضان المبارك .
5 ـ حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .

فالتوحيد: أول أركان الدين الإسلامي وأهمها، وبدونه لا تصح العبادات، فالدعوة إلى وحدانية الله وعبادته هي جوهر العقيدة الإسلامية، ولم يتقبل محمد ﷺ وصحبه وادة ولا مساومة في الدعوة إلى وحدانية الله، ومقاومة الأصنام، وعبادة الأوثان، ومحاربة المشركين أيّا كانوا، وأينما كانوا، لقوله تعالى : **﴿وقال الله لا تتخذوا إلٰهيْن اثنين إنّما هو إله واحد﴾**[1] وكان يظهر أحياناً بعض التسامح مع أهل الكتاب من أتباع موسى وعيسى عليهما السلام، لأنهما ديانتا توحيد، على الرغم مما فيهما من مخالفات مبتدعة، وتعاليم دخيلة، وتحريف لكلام الله ورسالة أنبيائه، ولكن لم يساوم ولم يهادن في وحدانية الله وصمديته . **﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد﴾**[2] وهكذا سيبقى شعار المسلمين الأزلي الخالد مرفوعاً إلى الأبد وهو لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله .

أما الصلاة: وهي ثاني أهم أركان عقيدة الإسلام، فقد فرضت على

---

(1) سورة النحل، آية: 51.
(2) سورة الإخلاص.

المسلمين بأوقاتها وعدد ركعاتها، وكيفية أدائها في ليلة الإسراء في شهر رجب من السنة الحادية عشر للبعثة (621 م) وهي أعظم المنح الإلٰهية للبشرية قدّمها جلّ شأنه لرسول البشرية محمد عليه الصلاة والسلام. . ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾[1].

وأول ما يُحاسَب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإنْ صَلُحت فقد صلح، وقد نجح وأفلح، وإن فسدت فقد خاب وخسر. والصلاة عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين. والفرق بين المؤمن والكافر ترك الصلاة، وهي من العبادات كالرأس من الجسد. . وكان الدرس الأول في الصلاة عندما هبط جبريل عليه السلام كعادته إلى رسول الله ﷺ يعلّمه وهو بأعلى مكّة، فهمز له بعقبه في ناحية الوادي، فخرجت منه عين ماء، فتوضأ جبريل ليعلّمه كيف يتطهر للصلاة، ثم توضّأ رسول الله مثل ما فعل جبريل، ثم قام جبريل وصلّى به الظهر. في وقتها أربع ركعات، حين كان ظل كلّ شيء مثله، أي عندما تبدأ الشمس بالزوال عن كبد السماء.

ثم صلّى به العصر في وقتها أربع ركعات، حين كان ظل كل شيء ضعفه.

ثم صلّى به المغرب في وقتها ثلاث ركعات، حين غابت الشمس.

ثم صلّى به العشاء في وقتها أربع ركعات، حين غاب الشفق الأحمر.

ثم صلّى به الصبح في وقتها ركعتين، حين بزوغ الشمس.

وهكذا فقد صلّى رسول الله ﷺ، مثل ما صلى جبريل عليه السلام، وقال لصحبه وأتباعه: صلّوا كما رأيتموني أُصلّي.

والثالثة الزكاة: وقد فُرضت في مكة على من اتبع الإسلام، حيث يدفع المسلمون زكاة أموالهم وما تنتجه أراضيهم وممتلكاتهم، وقد فُصّلت أنصبة الزكاة بعد هجرة النبي العظيم إلى المدينة المنورة، لقوله تعالى: ﴿خذ من

---

(1) سورة النساء، آية: 103.

أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾[1]. وكثيراً ما اقترنت فريضة الزكاة بإقامة الصلاة، كقوله تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾. لذلك خصّهم الله برحمته عندما قال: ﴿ورحمتي وسِعت كل شيء، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة، والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾[2].

أما مستحقوا الزكاة فقد بيّنهم الله بقوله: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين، والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم، وفي الرّقاب، والغارمين، وفي سبيل الله، وابنْ السبيل، فريضة من الله، والله عليم حكيم﴾[3].

والرابعة: الصيام، الذي فرضه الله على المسلمين في السنة الثانية للهجرة. ويعني الإمساك والكف عن الشيء. ومن الوجهة الشرعية: هو الإمساك عن الأكل والشرب والاتصال الجنسي من الفجر إلى غروب الشمس، ابتغاء مرضاة الله خلال شهر رمضان بكامله من كل عام. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياماً معدودات﴾[4].

والخامسة: الحج، فُرضت في السنة السابعة للهجرة بأمر الله تعالى مرة واحدة في العمر لمن استطاع، وهو زيارة بيت الله الحرام في مكة والطواف حوله، وقد كان الحجاج الوثنيين قبل الإسلام يحجون إلى مكة، ويطوفون بالبيت الحرام، عُراة الأجسام، مشبكين أصابعهم يُصفّرون ويُصفّقون. قال تعالى: ﴿وما كان صلاتهم عند البيتِ إلا مُكاءً[5] وتصْدِية[6]﴾[7]. واستمر المشركون على هذا الحال حتى عام تسعة هجرية عندما جاء أمر الله بالمنع

---

(1) سورة التوبة، آية: 103.
(2) سورة الأعراف، آية: 156.
(3) سورة التوبة، آية: 60.
(4) سورة البقرة، آية: 183-184.
(5) المكاء: الصفير.
(6) التصدية: التصفيق.
(7) سورة الأنفال، آية: 35.

والتحريم. لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجسٌ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾[1] وقد حج رسول الله مرة واحدة هي حجة الوداع وكانت قبيل وفاته بحوالي ثمانين يوماً. واعتمر رسول الله أربع مرات، وقد علّم البشرية طريق الحق والصواب إذ يقول لصحبه: «خذوا مناسككم عني».

فهل يفوز برضا الله وقبوله مَن أدى هذه الفرائض الخمسة كاملة؟

عن طلحة بن عبيد الله قال: «إن أعرابياً جاء إلى رسول الله فقال: يا رسول الله أخبرني ماذا فرض الله عليّ من الصلاة؟ فقال: الصلوات الخمس إلاّ أن تطوع شيئاً.. فقال أخبرني ماذا فرض الله عليّ من الصيام؟ قال شهر رمضان إلاّ أن تطوع شيئاً.. فقال أخبرني بم فرض الله عليّ من الزكاة؟ فقال: فأخبره رسول الله بشرائع الإسلام.. قال: والذي أكرمك لا أتطوع شيئاً، ولا أنقُص مما فرض الله عليّ شيئاً.. فقال رسول الله: أفلح إن صدق».

وقد جاء في الحديث عن سيد البشر أنه قال: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا دراهم له ولا متاع. فقال: إن المفلس من أمّتي مَن يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا.. فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طُرح في النّار»[2].

وأما عقيدة الإيمان فهي أن يؤمن المسلم بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وأن يؤمن بالقدر خيره وشره.

لقد خص الله المؤمنين بصفات مميزة من جاء بها فقد فاز وكان طريقه في الآخرة إلى الفردوس وكان من الخالدين، ومَن أعرض عنها فقد خسر وكان من الضالّين..

---

(1) سورة التوبة، آية: 28.

(2) رواه مسلم.

قال تعالى: ﴿قَدْ أفلَحَ المُؤْمِنون، الّذين هُمْ في صَلاَتِهِمْ خَاشِعونَ، والّذين هُمْ عن اللّغو مُعْرِضون، والّذينَ هُمْ لِلزّكَاةِ فـاعِلونَ، والّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظون، إلاَّ عَلىٰ أزْوَاجِهم، أوْ مَا مَلَكَتْ آيمانُهُم فإنّهم غيـرُ مَلُومِين، فَمَن ابتَغَىٰ وَرَاء ذَلِكَ فأولَئِكَ هُمُ العَادُون، والّذينَ هُمْ لأمانَاتِهم وَعَهْدِهِمْ رَاعُون والّذينَ هُمْ على صَلواتِهم يُحافظون، أولئك هُم الوَارِثُون، الّذِين يَرِثُونَ الفِرْدَوسَ، هُمْ فِيها خَالِدون﴾[1].

النداء إلى الصلاة:

بنىٰ محمد ﷺ أول مسجد في الإسلام، في يثرب لإقامة الصلاة جماعة، وتداول المسلمين شؤون حياتهم ليزيدوا روابط الألفة والمحبة بينهم. وكان مُحمد عليه السلام يجلس مع صحابته يعلّمهم أمور دينهم ويفقههم فيه، ويقضي بينهم بما أنزَل الله، ويتشاورون فيما يعـود بالخيـر والمنفعة علىٰ المسلمين، وكان يستقبل رسول الله في مسجده وفود العرب وسفراء القبائل، فهو للدين والدنيا. وعندما يحين وقت الصلاة كان المسلمون يتوافدون إلىٰ المسجد لأداء فريضة الصلاة من دون نداء أو تنبيه، إلاّ أنهم شعروا فيما بعد الحاجة إلىٰ ما يُنبّههم إلىٰ أن وقت الصلاة قد حان. فاقترح بعض الصحابة على رسول الله أن تُرفع راية على المسجد عندما يحين وقت الصلاة. واقترح آخرون إيقاد نار على مرتفع من الأرض كما يفعل المجوس. أو استعمال البوق كما تفعل اليهود. أو استعمال الناقوس كما تفعل النصارى. ورُفضت جميع هذه المقترحات، لكن عمر بن الخطاب أشار إلىٰ النداء. حيث يُنادىٰ بالصلاة إذا حان وقتها. فوافق المسلمون علىٰ هذه الفكرة ونادىٰ مؤذن الإسلام «بلال ابن رباح» بقوله: الصلاة جامعة، وكان ينادي إلى الصلاة أيضاً عبد الله بن زيد بن ثعلبة الأنصاري، الذي رأى في المنام أن رجلاً يقول له: ألا أعلمك كلمات تقولها عند النداء إلىٰ الصلاة قال: بلى. قال قل الله أكبر مرتين ـ وتشهد مرتين ـ ثم قل: حيَّ على الصلاة مرتين ـ حيَّ على الفلاح مرتين ـ ثم كبّر مرتين ـ ثم

---

(1) سورة المؤمنون، آية: 1-11.

قل: لا إله إلا الله...».

قصّ عبد الله هذه الرؤيا على محمد ﷺ، فقال: إنها رؤيا حقّ، وأمر بلالاً أن ينادي للصلاةِ، فقام بلال ونادى للصلاة. ولما سمعه عمر قال: يا رسول الله لقد رأيت في منامي مثله...، وأصبح نداء خالداً يردده أئمة المسلمين وخطباؤهم في كل أرجاء الأرض..

تحويل قبلة المسلمين نحو الكعبة:

عن البراء بن عازب قال: كان رسول الله ﷺ يصلّي نحو بيت المقدس وهو بالمدينة بعد الهجرة، واستمر كذلك مدّة سبعة عشر شهراً تقريباً.

وكان محمد ﷺ يحب أن يُوجه إلى الكعبة، فأمره الله بالتحويل إليها في صلاته لقوله تعالى: **﴿قد نرىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ في السّماء فلَنُولِّيَنَّك قِبْلةً ترضاها. فَوَلِّ وَجْهك شطْر المسْجِد الحرام. وحيث ما كنتم فولّوا وُجوهَكم شطْره. وإن الذين أوتوا الكتاب ليعْلَمون أنه الحقُّ مِن ربهم﴾**[1]. ومع ذلك تساءل السفهاء من اليهود عن سبب هذا التحويل، مع أن محمداً ﷺ يقول بأنه على ملّة إبراهيم ودينه الحنيف. إذ قال جلّ شأنه: **﴿سيقول السفهاء من الناس: ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾**[2].

يقول المسعودي: «صرفت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة في صلاة الظهر من يوم الثلاثاء، للنصف من شعبان السنة الثانية للهجرة، فاستدار النبي وهو راكع في الركعة الثانية، ودارت الصفوف خلفه وسمي ذلك المسجد بمسجد القبلتين»[3].

وقيل إن ذلك تم بعد فرض الصوم في شهر رمضان بثلاثة عشر يوماً.

---

(1) سورة البقرة، آ-: 144.
(2) سورة البقرة، آ-: 142.
(3) المسعودي في كتابه التنبيه والأشراف.

وهكذا تحولت قبلة المسلمين من بيت المقدس «أولى القبلتين» نحو الكعبة المشرفة، التي أصبحت قبلة للمسلمين جميعهم في أرجاء الأرض يولّـون وجوههم نحو المسجد الحرام أينما كانوا.

أما قبلة اليهود فكانت بيت المقدس وبعد أن هدم الرومان هيكل سليمان سنة 75 م، فقد ولّوا وجوههم شطر الجزيرة العربية، ثم هاجروا إليها بعد أن اشتدّ صراعهم مع النصارى، فأقامـوا في يثرب، ثم هـاجروا إلى اليمن، وغيرها..

4 ـ مصادر التشريع الإسلامي:

(أ) القرآن الكريم:

هو كلام الله المنزّل على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام بوساطة الوحي جبريل عليه السلام، المكتوب في المصحف الشريف، المنقول عنه بالتواتر المتعبّد بتلاوته، وهو آخر الكتب السماوية المنزلة، ومصدر التشريع الأول عند المسلمين.

وقد بلّغ رسول الله هذه الرسالة الإلهية، وأدّى هذه الأمانة الثقيلة بالرغم من الصعوبات والمعاناة التي لاقاها وتحمّلها عند التبليغ، لقوله تعالى: **﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾**[1]. ونزل هذا القرآن على سيد البشر الذي حمل الرسالة وبلّغها لكل البشرية دون أن يجزع أو يتصدع. والقرآن كتاب صِدْق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلا سبيل إلى الشك في صحّة نصّه، وهو كتاب هدى ورحمة لكل العالمين، لقوله تعالى: **﴿إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾**[2]. وفي القرآن مقاصد ثلاثة: عقائد توحيد، وأحكام وعبادات، وقصص لتكون عبرة لأولي الألباب، ويشتمل على ثلاثين جزءاً، تقع في مئة وأربع عشرة سورة، منها ما نزل على النبي ﷺ

---

(1) سورة الحشر، آية: 21.

(2) سورة الإسراء، آية: 9.

في مكة قبل الهجرة، وهي السور المكيّة. ومنها ما نزل عليه في المدينة المنورة بعد الهجرة، وهي السور المدنيّة. ولكل من هذه الآيات امتيازات خاصة تتناسب مع الوقائع والأحداث اشتملت على مبادىء التشريع الإسلامي. فمن خصائص السور المكية مثلاً: قصر السّور والآيات، وإيجازها، وقوة تعبيرها، وتجانسها الصوتي، والدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وتصوير الجنة والنار، ويوم القيامة والحساب، والدعوة إلى التمسك بالأخلاق الكريمة، والاستقامة على فعل الخير، ومجادلة المشركين، وتسفيه أحلامهم وعقائدهم، وفيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة ومصائرها، وفيها قصص آدم وإبليس، وما دار بينهما من حوار بشأنهما... كما تميّزت السّور المدنية: بطول السور والآيات، واستخدام الأسلوب التشريعي الهادىء في المعاملات كالبيع والشراء والزواج والطلاق وتحريم المنكرات والحضّ على الجهاد وبيان أحكامه، وتفاصيل الأحكام والحدود والفرائض والحقوق.. والقوانين المدنية والاجتماعية والدولية، ومخاطبة المنافقين وأهل الكتاب ودعوتهم إلى عدم الغلّو في الدين...

نزول القرآن: نزل القرآن بلغة العرب وعلى نهج بلاغتهم، فكانوا يفهمونه ويعْلَمون معانيه في مفرداته وتراكيبه، ويستبينون منه شريعة الله. وقد نزل في عصر لا يستطيع الكل أن يكتب أو يقرأ، ولكن الكل يستطيع أن يفهم القرآن ويحفظه عن ظهر قلب، بحيث تصبح التلاوة ذات فائدة قيّمة، قال تعالى: ﴿**إنّا أنزلناه قرآناً عربياً**﴾[1]. وكان نزول القرآن معجزة للبشرية وكان باللغة العربية فخر اللغات وأعزها.

روى الترمذي عن أبي كعب قال: «لقي رسول الله جبريل، فقال: يا جبريل إني بُعِثْت إلى أميّين منهمْ العجوز والشيخ الكبير، والغلام والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط، قال: يا محمد إن القرآن أُنزِل على سبعة

(1) اشتهرت القراءات السبع بأسماء العلماء الذين نشروها، والقرّاء السبع هم: عاصم بن أبي النجود، عبد الله بن عامر، عبد الله بن كثير، أبو عمرة العلاء، حمزة بن حبيب الزيات، علي بن حمزة الكسائي نافع بن عبد الرحمن..

عن ابن عباس أن رسول الله قال: «أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل استزيده، ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف (قراءات)»[1].

وقال رسول الله أيضاً: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسّر منه».

جمع القرآن وترتيبه: كان يسجّل القرآن على الرق. والجلود. والألواح الخشبية وعظام ألواح البعير. والأحجار الطرية.

روي عن زيد بن ثابت أنه قال: «كنّا عند رسول الله نؤلف القرآن من الرقاع، وهذه الرقاعُ قد تكونِ من الجلد أو الورق أو الكاغد».

وكانت وسائل الكتابة على عهد رسول الله ﷺ: من اللِّخاف[2]، العُسُب[3]، الأكتاف[4]، والأقتاب[5]، وقطع الأديم[6]. .

وكان للوحي كُتّاب صادقون، آمنوا بربهم عملوا على جمع القرآن وحفظه من التغيير أو التحريف أو التزوير. وكان ذلك بمشيئة الله وإرادته فهو جلّ شأنه الذي تكفل بجمع القرآن وحفظه، لقوله تعالى: ﴿إن علينا جَمْعَه وقُرآنه﴾.

كان من بين كتبة الوحي الذين عملوا على جميع القرآن وحفظه وتدوينه: الخلفاء الراشدون الأربعة، وزيد بن ثابت، والمغيرة بن شعبة، الزبير بن العوام، وأبيّ بن كعب، وثابت بن قيس، ومعاوية بن أبي سفيان، وأخوه يزيد، وأنس بن مالك، وعبد الله بن مسعود، وخالد بن الوليد، وغيرهم. رضي الله عنهم جميعاً. . وكان النبي يأمرهم بكتابة كل ما يُنزّل إليه من القرآن، ولذلك اهتموا بتلاوته وحفظه. قال رسول الله ﷺ: «خذوا القرآن عن أربعة: عبد

---

(1) صحيح البخاري. .
(2) اللخاف: جمع لخفة وهي الحجارة الرقيقة.
(3) العسب: جمع عسيب وهو جريد النخل.
(4) الأكتاف: جمع كتف وهو عظم البعير أو الشاة.
(5) الأقتاب: جمع قتب وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير للركوب عليه.
(6) الأديم: الجلد.

الله بن مسعود، وسالم بن معقل، ـ مولى أبي حنيفة ـ، ومعاذ بن جبل، وأبيّ بن كعب»[1] يقول عبد الله بن مسعود: «والذي لا إله غيره ما نُزِّلت آية من كتاب الله تعالى إلاّ وأنا أعلم فيمن نُزِلت، وأين نُزِّلت»[2].

وكان محمد ﷺ من حفظ القرآن، وخير من جمعه، وكذلك كان صحابته. يقول البخاري في صحيحه: «إن عدد الحفّاظ في عهد الرسول كانوا سبعة من كبار الصحابة، وهم: عبد الله بن مسعود، سالم بن معقل، معاذ بن جبل، أبيّ بن كعب، زيد بن ثابت، أبو زيد بن السكن، أبو الدرداء». .

ويذكر أبو القاسم بن سلام في كتابه (القراءات) عدداً من الصحابة الذين حفظوا القرآن في صدورهم، وعرضوه على النبي وسمعه لهم، وهم: الخلفاء الراشدون الأربعة، وطلحة، وسعد، وابن مسعود وحذيفة، وسالم، وأبو هريرة، وعبد الله بن السائب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبير، وعائشة، وحفصة، وأم سلمة، وهم من المهاجرين. . وعبادة بن الصامت، ومعاذ، ومجمع بن جارية، وفضالة بن عبيد، ومسلمة بن مخلد، وهم من الأنصار. .

أما الذين حفظوا القرآن ولم يتيسر لهم عرضه على النبي الكريم فهم كثيرون جداً. .

وكان همّهم الوحيد قراءة القرآن وحفظه، وتحفيظه والاستماع إليه بكل شغف واشتياق.

ومن الذين اشتهروا بإقراء القرآن وتعليمه من صحابة رسول الله: عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، أبيّ بن كعب، زيد بن ثابت، عبد الله بن مسعود، أبو موسى الأشعري، أبو الدرداء. . . . عن أبي موسى الأشعرى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إني لأعرف أصوات رُفقة الأشعريين بالليل حين

---

(1) رواه البخاري.
(2) أخرجه البخاري.

أحرف». أي أنه كان يكتب وفق لهجات عربية سبع[2] وعندما كان ينزل الوحي بكلام الله، كان النبي ومن حوله من المؤمنين يتْلون القرآن عن ظهر قلب. وكان الكَتبة من صحْبه يقومون بتدوينه بشكل صحيح وموثوق أولاً بأول بشكل متواتر. واستمر نزول القرآن مدة ثلاث وعشرين سنة، منها ثلاث عشرة سنة في مكة، وعشر سنوات في المدينة. وقد ظلّ الوحي جبريل عليه السلام متجاوباً مع محمد ﷺ يعلّمه في كل يوم شيئاً جديداً ومفيداً، يرشده ويهديه، ويثبته ويزيده اطمئناناً كلما بدا الوحي قادماً من عند الله يحمل كلامه، ويبلّغ رسالته.

بدأ التنزيل في ليلة القدر المباركة في شهر رمضان، قال تعالى: ﴿إنّا أنزلناه في ليلة القدر﴾ هذه الليلة المباركة التي اختارها الله لذلك الحدث الإلهي العظيم وهي خير من ألف شهر. حيث تم اللقاء الأول بوساطة الوحي بين الخالق وعبده، بين الله ورسوله، اختار شهر رمضان المبارك لينزل فيه القرآن معجزته الخالدة، قال تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أُنزِل فيه القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان﴾[1]. وقال جلّ شأنه: ﴿إنّا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنّا منذرين﴾[2] لقد كان مظهر النزول مُنّجماً أي مفرّقاً كالنجوم، وأنه كان ينزل حسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر من ذلك وأقل. وكان يتم كذلك لتيسير حفظه على المؤمنين. يقول عليّ كرّم الله وجهه: «أُنزِل القرآن خمساً خمساً، إلّا سورة الأنعام. ومَن حَفِظهُ خمْساً خمْساً لم يَنْسَهُ». أخرج البيهقي عن خالد بن دينار فقال: «تعلّموا القرآن خمس آيات، فإن النبي كان يأخذه من جبريل خمساً خمساً».

ويقول ابن خلدون: «كان القرآن يُنَزَّلُ جُملاً جُملاً، وآيات آيات، لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقائع».

وقد ظل القرآن يُنزّل نجوماً، ليقرأه النبي على مهل، ثم يتلوه على صحابته من بعده شيئاً فشيئاً، وقد كان يتدرج في نزوله مع الأحداث والوقائع،

---

(1) سورة البقرة، آية: 185.

(2) سورة الدخان، آية: 3.

والمناسبات الفردية والاجتماعية التي تعاقبت خلال البعثة النبوية، وكانت أول الآيات التي أنزلت على رسول الله ﷺ، قوله تعالى: **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم..﴾**(1).

وكان جبريل يعود إليه بين الحين والآخر ليطمئنه قائلاً: «يا محمد أنت رسول الله حقاً» فيسكن لذلك جأشه وتستقر نفسه، ثم يعود فيستأنف النزول ليتمم رسالة الله للبشرية..

وكثيراً ما يتساءل اليهود وأهل الكفر، لماذا لم يُنزّل القرآن كله مرة واحدة كالتوراة مثلاً؟

﴿وقال الذين كفروا، لولا نُزّل عليه القرآن جملةً واحدة، كذلك لنثبّت به فؤادك، ورتّلناه ترتيلاً﴾(2) لكن إرادة الله شاءت ذلك، ليثبت به فؤاد نبيّه، ويقوّي به قلبه، بما يتجدد نزوله من القرآن بعد كل حدث أو واقعة، ولتيسير حفظ القرآن، فالنبي كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ففرقه بالنزول لييسّر عليه حفظه، بخلاف غيره من الأنبياء والمرسلين...

وتذكر الروايات أن محمداً كان يدعو أحد صحابته كلما نزل جزء من القرآن ليُمليه عليه، ويحدد مكانة هذا الجزء الجديد في مجموع ما نزل عليه سلفاً، وكان النبي يطلب إلى كاتبه بعد الإملاء أن يقرأ له ما كتب، حتى يستطيع أن يصحح ما قد يكون ناقصاً. وتذكر كذلك أن النبي كان يتلو أمام جبريل في رمضان من كل عام القرآن الذي أنزل عليه حتى ذلك الحين، وأن جبريل قد استقرأ النبي القرآن مرتين في آخر شهر رمضان من حياته، حتى أن المسلمين في عصر النبي اعتادوا السهر في شهر رمضان يسمعون القرآن كله في صلاة التراويح.. حتى صار القرآن يُحفَظ عن ظهر قلب، من قبل كثير من المؤمنين الحافظين الذين عرفوا القرآن وحفظوه بالكتابة والذاكرة معاً..

---

(1) سورة العلق.
(2) سورة الفرقان، آية: 32.

عن ابن عباس أن رسول الله قال: «أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل استزيده، ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف (قراءات)»[1].

وقال رسول الله أيضاً: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسّر منه».

جمع القرآن وترتيبه: كان يسجّل القرآن على الرق. والجلود. والألواح الخشبية وعظام ألواح البعير. والأحجار الطرية.

روي عن زيد بن ثابت أنه قال: «كنّا عند رسول الله نؤلف القرآن من الرقاع، وهذه الرقاعُ قد تكونِ من الجلد أو الورق أو الكاغد».

وكانت وسائل الكتابة على عهد رسول الله ﷺ: من اللِّخاف[2]، العُسُب[3]، الأكتاف[4]، والأقتاب[5]، وقطع الأديم[6]. .

وكان للوحي كُتّاب صادقون، آمنوا بربهم عملوا على جمع القرآن وحفظه من التغيير أو التحريف أو التزوير. وكان ذلك بمشيئة الله وإرادته فهو جلّ شأنه الذي تكفل بجمع القرآن وحفظه، لقوله تعالى: ﴿إن علينا جَمْعَه وقُرآنه﴾.

كان من بين كتبة الوحي الذين عملوا على جميع القرآن وحفظه وتدوينه: الخلفاء الراشدون الأربعة، وزيد بن ثابت، والمغيرة بن شعبة، الزبير بن العوام، وأُبيّ بن كعب، وثابت بن قيس، ومعاوية بن أبي سفيان، وأخوه يزيد، وأنس بن مالك، وعبد الله بن مسعود، وخالد بن الوليد، وغيرهم. رضي الله عنهم جميعاً. . وكان النبي يأمرهم بكتابة كل ما يُنزّل إليه من القرآن، ولذلك اهتموا بتلاوته وحفظه. قال رسول الله ﷺ: «خذوا القرآن عن أربعة: عبد

---

(1) صحيح البخاري . .
(2) اللخاف: جمع لخفة وهي الحجارة الرقيقة.
(3) العسب: جمع عسيب وهو جريد النخل.
(4) الأكتاف: جمع كتف وهو عظم البعير أو الشاة.
(5) الأقتاب: جمع قتب وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير للركوب عليه.
(6) الأديم: الجلد.

الله بن مسعود، وسالم بن معقل، ـ مولى أبي حنيفة ـ، ومعاذ بن جبل، وأبيّ بن كعب»[1] يقول عبد الله بن مسعود: «والذي لا إله غيره ما نُزِلت آية من كتاب الله تعالى إلاّ وأنا أعلم فيمن نُزِلت، وأين نُزّلت»[2].

وكان محمد ﷺ من حفظ القرآن، وخير من جمعه، وكذلك كان صحابته. يقول البخاري في صحيحه: «إن عدد الحفّاظ في عهد الرسول كانوا سبعة من كبار الصحابة، وهم: عبد الله بن مسعود، سالم بن معقل، معاذ بن جبل، أبيّ بن كعب، زيد بن ثابت، أبو زيد بن السكن، أبو الدرداء»..

ويذكر أبو القاسم بن سلام في كتابه (القراءات) عدداً من الصحابة الذين حفظوا القرآن في صدورهم، وعرضوه على النبي وسمعه لهم، وهم: الخلفاء الراشدون الأربعة، وطلحة، وسعد، وابن مسعود وحذيفة، وسالم، وأبو هريرة، وعبد الله بن السائب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبير، وعائشة، وحفصة، وأم سلمة، وهم من المهاجرين.. وعبادة بن الصامت، ومعاذ، ومجمع بن جارية، وفضالة بن عبيد، ومسلمة بن مخلد، وهم من الأنصار..

أما الذين حفظوا القرآن ولم يتيسر لهم عرضه على النبي الكريم فهم كثيرون جداً..

وكان همّهم الوحيد قراءة القرآن وحفظه، وتحفيظه والاستماع إليه بكل شغف واشتياق.

ومن الذين اشتهروا بإقراء القرآن وتعليمه من صحابة رسول الله: عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، أبيّ بن كعب، زيد بن ثابت، عبد الله بن مسعود، أبو موسى الأشعري، أبو الدرداء.... عن أبي موسى الأشعرى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إني لأعرف أصوات رُفقة الأشعريين بالليل حين

---

(1) رواه البخاري.
(2) أخرجه البخاري.

يدخلون، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أرَ منازلهم حتى نزلوا بالنهار»[1].

لقد كانت ألسنتهم تلهج بالذكر الحكيم، وكانت قلوبهم مليئة بالإيمان بقول الله العظيم؛ . . . وهؤلاء هم الفقهاء والعلماء في مدرسة القرآن وتعليمه في عصر النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم. وقد أخذ عنهم خلق كثيرون، وقد اعتمدوا في نقل القرآن على حفظ الصدور من الكتابة في السطور. . قال رسول الله: «إن ربي قال لي: إني مبتليك، ومُبْتَلٍ بك، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً، ويقظان»[2].

إن الله الذي أنزل القرآن المعجزة على عبده، تعهّد بالحفظ والصون من كل تحريف أو تشويه يطرأ عليه، فهو القائل جل شأنه: **﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾** [3].

وقد تحدّى الله تعالى بقدرته وعظمته أمم الأرض كلها أن يأتوا بحرف منه حين قال: **﴿قل لَئِنْ اجتمعت الإنسُ والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾**[4] فالقرآن المجيد هو معجزة رسالة الإسلام، وهو منزّه عن التغيير أو التحريف منذ نزوله وإلى يوم يبعثون. فهو قرآن مجيد في لوح محفوظ، بعيد عن كل تشويه أو تحوير أو تزوير. . .

لقد كُتب القرآن كله في عهد محمد ﷺ، وكان يقرؤه ويرتله ويحفظ لقوله تعالى: **﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهّرة، فيها كتب قيّمة﴾**[5]. لكنه لم يجمع في مصحف واحد في عهده وكان كل ما يُكْتب منه يوضع في بيت رسول الله، ويحتفظ الكاتب بنسخة منه، مع ما يحفظه الصحابة في صدورهم، وبهذا فقد حُفِظ بأمر الله. . . وقد ساهم خليفة رسول الله بجمع القرآن وحفظه فكان أبو بكر

---

(1) رواه الشيخان.
(2) رواه مسلم.
(3) سورة الحجر، آية: 9.
(4) سورة الإسراء، آية: 88.
(5) سورة البينة، آية: 2.

أول من جمع الآيات والسّور المكتوبة والمفرّقة في عهد الرسول في مصحف واحد، فقد طلب من زيد بن ثابت أن يعدّ نسخة كاملة من القرآن ففعل، وعمل زيد بمشورة عمر، فجمع كل ما استطاع من وثائق بالمدينة من شهادات الحافظين خلال سنة واحدة تقريباً. .

كان ذلك في (12 هـ) بعد موقعة اليمامة، التي استشهد بها جمع كبير من الصحابة، من حفظة القرآن، في حربهم مع مسيلمة الكذّاب، الذي ادّعى النبوة، وقوي أمره بعد وفاة رسول الله. . قال علي بن أبي طالب: «رحم الله أبا بكر، فهو أول من جمع كتاب الله بين اللوحين». وقد بقيت هذه النسخة الكاملة عند أبي بكر حتى وفاته، ثم نُقِلت إلى عمر حتى وفاته، ثم إلى حفصة بنت عمر زوج رسول الله وأم المؤمنين، وهي تحفظ القرآن كله في صدرها، وكانت تجيد القراءة والكتابة، وفي عهد أبي بكر سمّي القرآن بـ«المصحف الشريف». . .

وفي عهد عثمان بن عفان كلَّف لجنة من حفظة القرآن في عام (25 هـ)، للتأكد من صحة هذه النسخة وهم: زيد بن ثابت، عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، ونسخوها في المصاحف بمنتهى الدقة، معتمدين على الأصل الموجود عند حفصة، التي هي بالأصل نسخة أبي بكر، المستند بدوره إلى أصل النبي، المكتوب بين يديه بأمره، وتوقيف منه. . وقد أوصى عثمان القريشيين الثلاثة بأنهم إذا اختلفوا مع زيدٍ في شيء من القرآن، فلْيكْتبوه بلسان قريش، فإنه نزل بلسانهم، ففعلوا مثل ما أمِروا.

وكانت النسخة الأصلية الصحيحة النقية، وأرسل عثمان إلى كل بلد مسلم مصحفاً مما نسخوا، وأمر بحرق كل كتابة من صحف أو مصاحف أخرى، لأن بقاءها سيزيد من أسباب الخلاف بين صفوف المسلمين، ويفرق كلمتهم، وأرسل مع كل نسخة من المصحف إلى بلاد المسلمين حافظاً يوافق قراءته، فكان زيد بن ثابت مقرىء المصحف المدني. وعبد الله بن السائب مقرىء المصحف المكّي. والمغيرة بن شهاب مقرىء المصحف الشامي. وأبو عبد

الرحمن السلمي مقرىء المصحف الكوفي. وعامر بن عبد القيس مقرىء المصحف البصري..

وكان القرآن العثماني خالياً من النقاط[1] والشكل، ومن أسماء السّور والفواصل، وكانت صحفه مجردة من الشروح والتفاسير، التي أضافها بعض الصحابة للتفسير والإيضاح، إلى أن تمّ وضعه وإخراجه على أفضل صورة بمساعدة: عبد الله بن زياد (ت 67 هـ). والحجاج بن يوسف الثقفي (ت 95 هـ). ومساهمة كل من أبي الأسود الدؤلي (ت 69 هـ). ويحيى بن يعمر (45-129 هـ). ونصر بن عاصم الليثي (ت 98 هـ). في تنقيط المصحف، وتشكيله حتى أصبح في أبهى صورة، وأجمل منظر، في نهاية القرن الثالث الهجري، ولم يزل كذلك، وسيبقى إلى الأبد لأن الله يحفظه..

ترتيب السّور والآيات:

كان يتم ترتيب السور والآيات وفق إشارة النبي وتوقيفه، وكان ذلك بوحي من الله جلّ شأنه. يقول الزركشي: «فأما الآيات في كل سورة، ووضع البسملة في أوائلها، فترتيبها توقيفي بلا شك، ولا خِلاف فيه، ولهذا لا يجوز تعكيسها». فقد أوحى الله إلى نبيه ترتيب الآيات ضمن سورها، ليقطع دابر كل اختلاف في الآراء حول ذلك.

قال ابن عباس: لما نُزِّلت آخر آية قرآنية على النبي ﴿واتقوا يوماً تُرجَعون فيه إلى الله﴾.

قال له جبريل: يا محمد ضعها على رأس ثمانين ومئتي آية من سورة البقرة..

---

(1) التنقيط: وضع أبو الأسود الدؤلي حركات الإعراب بشكل نقط، بلون مغاير للون الحروف، وطورها الخليل بن أحمد الفراهيدي، الذي جعل حركات الإعراب كما هي عليه اليوم. أما التنقيط فقد قام به نصر بن عاصم. لتمييز الحروف المتشابهة عن بعضها بالنقط...

فقد كان جبريل عليه السلام يعلّم الرسول عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، مواضع الآيات وترتيبها في سورها بالمكان الصحيح..

فضل القرآن وقراءته:

قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»[1].

وفي حديث آخر عن أبي موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مثل الذي يقرأ القرآن كالأُتْرُجَّة[2] طعمها طيّب وريحها طيّب، والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة طعمها طيّب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مرّ، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مرّ ولا ريح لها»[3]. إنه قول الله عز وجل. ومن أصدق من الله حديثاً، فلا يعلو عليه قول، ولا يجاريه كلام، فيه الهدى والشفاء. وفيه الرحمة لكل العالمين.

قال تعالى: **﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى﴾**[4].

وقال جلّ شأنه: **﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾**[5].

ويأبى الذين كفروا قراءة القرآن والاستمتاع بهديه، ونوره، ويعرضون عنه ويلْغون فيه، قال تعالى: **﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والْغوا فيه لعلكم تغلبون﴾**[6]. فقد أمرنا الله جل شأنه بقراءة القرآن والتفكر بآياته وبه

(1) رواه مسلم.
(2) الأترجة: فاكهة معروفة تطرد الجن من البيت إن وجدت فيه.
(3) صحيح بخاري.
(4) سورة فصلت، آية: 44.
(5) سورة الإسراء، آية: 82.
(6) سورة فصلت، آية: 26.

تطمئن القلوب وبخاصة قرآن الفجر ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾[1]. وقال كذلك: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله، لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[2].

ولم يشجّع الشرع الإسلامي قراءة الكتب غير القرآن، لقول رسول الله ﷺ: «لا تُصدّقوا أهل الكتاب، ولا تُكذّبوهم، وقولوا آمنّا بالذي أُنزِل علينا، وأُنزِل إليكم وإلٰهنا وإلٰهكم واحد».

وقد رأى النبي يوماً ورقة من التوراة في يد عمر بن الخطاب، فغضب حتى تبيّن الغضب في وجهه، ثم قال رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام: ألم آتكم بها بيضاء نقية؟ والله لو كان موسى حيّاً ما وسعه إلّا اتباعي..

ما أعظم القرآن، وأعذب قراءته، وما أجلّه، وأكرمه، وأكمله، فقد ختمه الله بقوله الكريم: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾[3].

وقد قال عن هذه الآية الكريمة طارق بن شهاب: إن اليهود قالت لعمر بن الخطاب: إنكم تقرؤون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيداً..

فلماذا لا نتخذه كذلك نحن معشر المسلمين؟ ولماذا لا نهتدي بهدْيه وننهَج نهجه؟... اللهم ارحمنا بالقرآن، واجعله لنا إماماً ونوراً، وهدىً ورحمة...

(ب) الحديث النبوي «السُّنّة»:

هو كل ما أُثِر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، ويُعدّ بمنزلة القرآن الكريم في العمل بتحليله وتحريمه. لقوله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه

---

(1) سورة الإسراء، آية: 78.
(2) سورة النساء، آية: 82.
(3) سورة المائدة، آية: 3.

وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[1]. وتعدّ السّنة النبوية المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، لقوله تعالى: **﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم﴾**[2]. وحقيقة السنة النبوية أنها وحْي من الله تعالى قالها بصيغته: ويبيّن رسول الله ﷺ موضّحاً الفرق بين كلام أوْحاه الله إليه وكلامه الشخصي، فيقول «إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر»[3]. وجاء في قوله تعالى: «**﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحىٰ إليّ﴾**[4].

فالفرق واضح بين حديثه ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، والذي لا يدخله الريب، ولا يقربه الباطل، وحديثه الشخصي الذي لا وَحْيَ فيه، فهو قد يخطىء ويصيب. . . .

ذكر السرخسي في أصوله قول النبي ﷺ: «إذا أتيتكم بشيء من أمر دينكم فاعملوا به، وإذا أتيتكم بشيء من أمر دنياكمْ فأنتم أعلم بأمر دنياكم».

وقد ظل الحديث النبوي يتداول شفهياً لفترة طويلة، ولم يجرؤ أحد على كتابته حتى ظهرت أول مجموعة مكتوبة لأحاديث الرسول بعد وفاته بزمن طويل. وكانت أضخم المجموعات من الأحاديث النبوية، تلك التي ظهرت بعد وفاة الرسول بأكثر من قرنين من الزمن. . فقد جُمعت أوسع المعلومات وأوثقها، بالرغم من أنه لم يكتبها شاهد عيان، ولهذا كان من الأحاديث ما هو صحيح بإجماع علماء الحديث، ومنها أحاديث مشكوك فيها، وأخرى ضعيفة، ومنها أحاديث مرفوضة قطعاً. .

فقد ورد عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «لا تكتبوا عنّي شيئاً سوى القرآن، ومن كتب عني شيئاً سوى القرآن فلْيمحه». وعن علي بن أبي طالب عن الرسول ﷺ أنه قال: «لا تكذبوا عليّ، فإنّ مَن كَذب عليّ فلْيلج النار». .

---

(1) سورة الحشر، آية: 7.
(2) سورة النحل، آية: 44.
(3) رواه مسلم.
(4) سورة الكهف، آية: 110.

عمرو بن الصّلاح، ومحي الدين النّووي، وغيرهم.. رضي الله عنهم جميعاً وجزاهم كل خير..

الحديث القدسي:

هو كلام الله تعالى، الذي أخبر محمداً ﷺ، معناه بالإلهام أو المنام، وليس عن طريق الوحي أو التنزيل، فأخبر محمد ﷺ بدوره أُمّته، هذا الحديث بعبارة نفسه ويختلف هذا القول عن القرآن الكريم الذي أنزله الله على نبيّه الكريم بطريقِ الوحي. كما أنه يختلف عن الحديث النبوي الذي قاله محمد ﷺ ورُوي عنه بشكل مسند ومتواتر.

والحديث القدسي هو الحديث الإلٰهي أو الربّاني وهو كل ما معناه من عند الله تعالى ولفظه من عند رسول الله ﷺ يرويه عن ربه عز وجل، فهو من كلام الله وقد جاء في أكثر من مئة حديث تتكرر في روايات الأئمة. ولا تنحصر الأحاديث بكيفية ما من كيفيات الوحي بل يمكن أن تنزل بأي كيفية من كيفياته كرؤيا النوم، والإلقاء في الرّوع، وغير ذلك.. والفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي ما ورد في فوائد الأمير حميد الدين وقد جاء على ستة أوجه:

- أولاً: أن القرآن معجز، والحديث القدسي ليس معجزاً.

- ثانياً: أن الصلاة لا تصح إلا بالقرآن الكريم، بخلاف الحديث القدسي.

- ثالثاً: أن جاحد القرآن كافر، بخلاف الحديث القدسي.

- رابعاً: أن جبريل عليه السلام كان واسطة بين النبي وخالقه لتنزيل القرآن، بخلاف الحديث القدسي.

- خامساً: يكون اللفظ في القرآن بقوله تعالى، أما الحديث القدسي فيجوز أن يكون اللفظ من رسول الله.

- سادساً: إن القرآن لا يمسه إلا المطهرون بينما الحديث القدسي يجوز مسه من الحدث.

فالقرآن معجزة أبدية باقية على مر الدهور، حفظه الله من كل تغيير أو تبديل، ويُحرَّم مسُّه للمحدث، فلا يمسه إلا المُطهَّرون، ولا يجوز تِلاوته من الجُنب، ولا تجوز روايته بالمعنى، ويكون لفظه وقراءته كما نزل ولا تجوز الصلاة بدونه، وكل حرف منه بعشر حسنات ولا يجوز بيِعه تحريماً أو كراهية.

أما الحديث القدسي فيمكن مسُّه وتلاوته لمن ذُكِر، وروايته بالمعنى ولا يُجزي في الصلاة بل يبطِلها، ولا يسمّى قرآناً مع أنه كلام الله، ولا يُثاب قارئه بكل حرف عشر حسنات، ويجوز بيعه فلا يُمنَع ولا يُكْرَه، والأحاديث القدسية موجودة في كتب الأحاديث لأئمة المسلمين وفقهائهم. . .

فهو في موطأ الإمام مالك، وفي صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وجامع الترمذي، وسنن أبي داوود، وسنن النسائي، وابن ماجه، وغيرهم رحمهم الله ورضي عنهم جميعاً وجزاهم كل خير. . . .

(جـ) الإجماع:

وهو المصدر الثالث من مصادر التشريع الإسلامي، ويعني اتفاق جميع المجتهدين من أئمة المسلمين وفقهائهم على حكم شرعي في زمن ما. . وكل فتوى تخرج عن الإجماع باطلة في نظر أئمة الدين. قال رسول الله ﷺ: «لا تجتمع أمتي على ضلالة»[1]. وفي زمن صحابة رسول الله كان الخليفة أمير المؤمنين إذا سُئل عن قضية ما بحث عن حُكْمِها في القرآن، فإن لم يجد بحثَ في السُّنة، وإن لم يجد جمع العلماء والأئمة من المسلمين فاستشارهم فيه. . فإن اتفقت آراؤهم وأجمعوا على حكم ما كان ذلك هو القرار الفصل، كإجماع المسلمين على قتال مانعي الزكاة، وغير ذلك من أحكام. .

(د) القياس:

وهو أصل من أصول الشريعة الإسلامية، الغرّاء، وبه اتسع نطاقها، ويعني قياس الأمور بأشباهها ونظائرها، ويعدّ المصدر الرابع من مصادر التشريع

(1) رواه الإمام أحمد وغيره.

الإسلامي، ويجب العمل به شرعاً، بدليل الكتاب والسنّة والإجماع والعقل. قال الإمام أحمد بن حنبل: «لا يستغني أحد عن القياس». وقد أجمع الفقهاء، أن نظير الحق حق، ونظير الباطل باطل. وقد كثر المجتهدون في الإسلام في العصور الأولى. ولم يبق من مذاهبهم إلّا: مذهب أبي حنيفة، ومذهب مالك بن أنس، ومذهب الشافعي، ومذهب أحمد بن حنبل، رضي الله عنهم جميعاً. . . .

5 ـ مُحمَّد «عليه الصلاة والسلام»:

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب «شيبة» بن هاشم «عمرو» بن عبد مناف «المغيرة بن قصيّ «زيد» بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة «عامر» بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدّ بن مقوّم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب نابت بن إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن بن تارح «آزر» بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن فالخ بن عبير بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ «ادريس» بن يرد بن مهليل بن قينن بن يانش بن شيث بن آدم[1].

(أ) مولده:

ولد محمد ﷺ يوم الإثنين في 12 ربيع الأول في عام الفيل الموافق 20 آب (570 م)، في دار جده عبد المطلب بمكّة، وكان أبوه عبد الله قد توفي قبل ولادته، وقد سمّاه جدّه محمداً[2] في اليوم السابع من ولادته، واسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر هي حليمة ابنة أبي ذؤيب زوجة الحارث بن عبد العزّى. وكان قد رضع أيضاً من ثويبة جارية أبي لهب فترة من الزمن وهي التي

---

(1) من كتاب سيرة ابن هشام.

(2) محمّد: سمّي بهذا الاسم قبل رسول الله ثلاثة أطفال فقط هم: محمد بن سفيان بن مجاشع جدّ الشاعر الفرزدق، ومحمد بن أحيحة بن الحلّاج محمد بن حمران بن ربيعة.

وقد علم آباؤهم من أهل الكتاب بقدوم نبي هذه الأمة، فسمّوا على اسمه تيمنا.

أرضعت بعده عمه حمزة. فكانا أخوي رضاع، أما إخوته في الرضاعة من حليمة فهم: عبد الحارث، وأنيسة، وحذيفة وهي الشيماء.. بقي في بادية بني سعد حتى الخامسة من عمره، ينهل الفصاحة والبلاغة من منابعها، وكثيراً ما كان يعتزّ بذلك، ويتباهى حيث قال: «أنا أعربكم، أنا قرشيّ، واستُرضِعْت في بني سعد بن بكر». كفله جده عبد المطلب، ولما بلغ من العمر ست سنين توفيت أمُّه بالأبواء، ودفنت فيها، بين مكة والمدينة، في أثناء زيارة قبر زوجها، وهي برفقة ولدها محمد، وجاريتها أم أيمن... توفي جده عبد المطلب عن عمر يناهز ثمانين عاماً، وكان عمر محمد (8) سنوات، حيث انتقل للعيش في كنف عمه أبي طالب «أخي عبد الله من أبيه وأمه»، الذي أخذ يصحبه معه إلى التجارة ولم يفارقه أبداً، وكان على فقره وكثرة عياله، أنبل وأكرم أولاد عبد المطلب، وقد عانى مرارة اليتم من الأب والأم والجد، فرفق به عمه أبو طالب وصَحِبَه في رحلة إلى الشام، حيث وقعت قصّة مع الراهب «بحيرا» في بصرى عاصمة الغساسنة والذي رأى خاتم النبوة على ظهره بين كتفيه، والذي أوصى به عمه أبا طالب وحذّره من اليهود، فهم إن عرفوه قتلوه...

ولمّا شبَّ محمد عليه الصلاة والسلام عمل برعي الغنم عند أهله في قريش بمكة، مغتبطاً حيث يقول: «ما بَعثَ الله نبيّاً إلاّ راعي غنم».

وفي العشرين من عمره شهد مع أعمامه حرب الفِجَار بين كنانة وقيس، فهو يقول: «كنتُ أَنْبُل علىٰ أعمامي». فتمرس في بداية حياته على الخشونة والقسوة والتدريب وعلى التجارة والقتال. وكان أشدها مرارة اليتم والحرمان. حضر مع أعمامه حلف الفضول، في دار عبد الله بن جدعان. ذاع صيت محمد بين قومه وأصحابه بعظم الأمانة وصدق الحديث، وطيب المعاملة وحسن المعشر، وكرَم الأخلاق، وبدأ منذ نشأته بمظهر الرجولة والكمال وأمانة النفس حتى لُقِّب بـ «الأمين».

(ب) دور خديجة في حياته:

عُرف محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم بصدقه وأمانته، وعَرفت عنه

خديجة بنت خويلد كل خير، فاستدعته، وهي امرأة صاحبة تجارة، وذات شرف ومال، وخرج بتجارتها إلى الشام، برفقة ميسرة غلام خديجة، وكانت هذه رحلته التجارية الثانية إلى الشام. ولما عاد من تجارته إلى مكة، أعجِبت خديجة به وبأمانته وبأخلاقه الفاضلة، فمالت إليه، فقالت له: يا ابن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك وسطّتك «شرفك» في قومك، وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها، وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهن شرفاً، وأكثرهنّ مالاً. . فقبل بها محمد ﷺ، وخطبها له عمه حمزة من أبيها، فتزوجها وكان عمرها أربعين سنة، وهو في الخامسة والعشرين من العمر، وكان صداقها عشرين بكرة. وبقيت معه حتى توفيت، ولم يتزوج غيرها في حياتها. وولدت له كل أولاده ما عدا إبراهيم[1]، وهم: القاسم، والطيب، والطاهر، وعبد الله، وجميعهم ماتوا في الجاهلية.

أما البنات وهنّ: زينب، ورقيّة، وأم كلثوم، وفاطمة، فقد أدركن الإسلام وأسلمن. وهاجرن مع رسول الله ﷺ، وقد زُوِّجت زينب من أبي العاص بن الربيع، وهو ابن خالتها، وتزوجت رقية وأم كلثوم عتبة وعتيبة ابني عمه أبي لهب.

وبعد الإسلام سرحتا، فتزوجهما عثمان بن عفان «ذو النورين» الواحدة بعد الأخرى.

وأما فاطمة فتزوجت علياً بن أبي طالب بعد الإسلام. وكانت خديجة[2] أول من آمن برسول الله من النساء، وصدّقت رسالته، وكانت تخفف عنه وتواسيه، وتؤازره في محنه ومآسيه، وخاصة في بداية بعثته النبوية.

(جـ) صفات الرسول وأخلاقه:

النبي الصادق الأمين أعظم من أن يوصف بكلام من كاتب، أو بأبيات من

---

(1) إبراهيم من مارية القبطية التي أهداها المقوقس عظيم أقباط مصر إلى محمد رسول الله.

(2) خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصيّ بن كلاب، كانت قد تزوجت مرتين في بني مخزوم، ومات عنها زوجاها، فورثت عنهما أموالاً وافرة. . .

شاعر، فقد كان رسول الله ﷺ، أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأشرفهم نسباً، كان أحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم عن الفحشاء والرذيلة، وأعظمهم أمانة حتى لقب بـ «الأمين». . كان كامل الخلْق والخلُق حتى وصفه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ وقال عنه كذلك: ﴿وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين﴾. قال ابن إسحق عن صحابة رسول الله عندما قالوا له: أخبرنا عن نفسك؟ قال: «نعم أنا دعوة أبي إبراهيم، وبُشرىٰ أخي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر».

وقال رسول الله متباهياً معتزّاً في حسبه ونسبه: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريش، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار، من خيار». . .

كان المصطفى عليه الصلاة والسلام رجلاً معتدل القامة، متوسط الطول، كثيفْ الشعر، سبط الأطراف، عريض بين الكتفين، أبيض اللون مشرباً بحمرة، أكحل العينين، أدعجهما، وكان حاضر البديهة، فصيحاً بليغاً، سريع الجواب في أدب ووقار. وكان ﷺ أوسع الناس صدراً، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، وكان شديد الحياء إلاّ في حدود الله، حتى قيل عنه: بأنه أشد حياء من العذارى، وكان عاقلاً فطناً، ذا رأي سديد، وفكر ثابت، وعقل راجح رغم أميته. كان حكيماً فقد ألّف بين الأوس والخزرج، وكان قد أنهى خلافاً محتّماً بين أهل قريش عند إعادة بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود مكانه، فكان حكم الأمة وأمينها، وهو في الخامسة والثلاثين من عمره، ووضع الحجر وبني عليه، ورضي الجميع بحكمته وتحكيمه، وكان يكظم غيظه، ويصفح عن المسيء، ويصبر على المكاره والشدائد، كان يعطي من حرمه، ويصل من قطعه، ويعفو عمن ظلمه. كان رسول الله ﷺ عفوّاً عند المقدرة، وهو القائل للمشركين من قريش يوم فتح مكة بعد أن وقعوا في قبضته: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» وكان رؤوفاً رحيماً، لم ينتقم لنفسه يوماً إلاّ إذا انتهكت حرمة الله فينتقم لله وحده، وكان

(هـ) مرض الرسول ووفاته:

في السنة العاشرة للهجرة، وبعد حجة الوداع بثلاثة أشهر، أُصيب محمد ﷺ بالحمّى، وبقي مريضاً مدة ثلاثة عشر يوماً، كان يتنقل خلالها إلى بيوت زوجاته، حتى اشتد عليه المرض، فاستأذن زوجاته أن يمرّض في بيت عائشة بنت أبي بكر، فأذِن له. ولم يعد بإمكانه الخروج إلى الصلاة. فأناب عنه أبا بكر ليصلّي بالمسلمين، ولما علم الأنصار بذلك تجمعوا حول المسجد يريدون مشاهدته، والاطمئنان عليه، فخرج إليهم متكئاً على ابني عمه: علي بن أبي طالب، والفضل بن العباس، وهو معصوب الرأس، فخاطب المسلمين قائلاً: «أيها الناس، بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم، هل خُلِّد نبي قبلي فيمن بعث الله، فأخلَّد فيكم؟ ألا إني لاحق بربي، وإنكم لاحقون بي، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصي المهاجرين فيما بينهم، وإن الأمور تجري بإذن الله، ولا يحملنّكم استبطاء أمر على استعجاله، فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد، ومن غالب الله غلبه، ومن خادع الله خدعه، وأوصيكم بالأنصار خيراً، فإنهم الذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم، ألا فإنّ موعدكم الحوض، ألا فمن أحبّ أن يرده علي غدا فلْيكفف يده ولسانه إلاّ فيما ينبغي».

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت وهو مسند إليّ ظهره يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق». وكانت آخر كلمة تكلم بها رسول الله قوله: «اللهم الرفيق الأعلى».

لقد كان فضل محمد ﷺ على البشرية كبيراً جداً، «وإذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ»[1]..

وفي يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة الموافق الثامن من حزيران من عام (632 م) انتقل رسول الله الأعظم إلى الرفيق الأعلى وقد أتمّ الثالثة والستين من عمره. وقد دخل الجزع نفوس

(1) غوستاف لوبون في كتاب حضارة العرب.

المسلمين كما أنكر بعضهم وفاة رسول الله، حتى علم أبو بكر الخبر، فدخل بيت عائشة، وكشف عن وجه رسول الله، وأخذ يقبله ويبكي وهو يقول: «توفي والذي نفسي بيده، صلوات الله عليك يا رسول الله، ما أطيبك حياً وميتاً، بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك مرتين». ثم خرج أبو بكر وخاطب جموع المسلمين قائلاً: «أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت. إن الله قد تقدم إليكم في أمره، فلا تدعوه جزعاً وإن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم، وقبضه إلى ثوابه، وخلّف فيكم كتابه وسنّة نبيه، فمن أخذ بهما عرف، ومن فرّق بينهما أنكر». ثم تلا قوله تعالى: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾. وقوله تعالى: ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين**﴾..

فلما سمع عمر قال في نفسه: فكأني لم أتلُ هذه الآية قط.

جهّز رسول الله، وغسّله علي بن أبي طالب بمساعدة عمه العباس وابنه الفضل، وكفن في ثلاثة أثواب، ووضع على سريره في بيته، ودفن في حجرة عائشة في اليوم التالي من وفاته، في يوم الثلاثاء أو ليلة الاربعاء، «فالأنبياء يدفنون حيث يقبضون..».

لقد عاش محمد ﷺ ثلاثة وستين عاماً، منها أربعون عاماً قبل البعثة، وثلاثة عشر عاماً بعدها، أقامها في مكة، وعشر سنين في المدينة.

لقد ولد يتيماً، وعاش فقيراً أميّاً، لكنه أوجد أمة عظيمة كانت خير أمة أخرجت للناس، وسنّ شريعة جامعة، وأسس دولة قوية، وما زالت أمته الإسلامية تنادي في كل الآفاق وإلى الأبد: لا إله إلا الله، محمد رسول الله..

6 ـ الدعوة النبوية: (610 م):

كان بعض الناس من أهل مكة وهم في الجاهلية، يخلون إلى أنفسهم في شهر رمضان، يتفكرون في خلق السموات والأرض، ويتأملون في قدرة الله جل

أسلم من الموالي زيد بن حارثة، الذي أعتقه محمد وتبنّاه بعد وفاة أولاده الذكور قبل أن يوحى إليه.

وكان أبو بكر الصديق «عبد الله عتيق بن أبي قُحافة» أول من صدّق رسول الله وآمن به من الرجال، ثم أسلم عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وكان هؤلاء أسبق الناس إلى الإسلام، ثم أسلم غيرهم كثيرون ولم تزل الدعوة سرية. ولما أصبح عدد المسلمين أربعين رجلاً بإسلام عمر بن الخطاب، خرجوا، وجهروا بها.

الجهر بالدعوة:

كان الرسول ينشر دعوته سراً من دار الأرقم بن أبي الأرقم، واستمر كذلك مدة ثلاث سنين، حتى جاءه أمر الله بإظهار دينه، قائلاً له: **﴿فاصدع بما تؤمر، وأعرض عن المشركين﴾**[1].

وذكّره بأن عليه أن يبدأ بدعوته أقاربه وأبناء عشيرته، لأنهم أقرب إلى قلبه، ولا يعرفون منه إلا الصدق والأمانة، بقوله تعالى: **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾**[2].

بدأ الرسول ينذر قومه، وينكر عليهم دينهم، ويعيب آلهتهم، وكان أكثر الناس عداوة له ولدينه أقرباؤه، إلاّ من عصم الله منهم بالإسلام، وهم قلة..

لقد دعاهم إلى دين الإسلام، قائلاً لهم: «ما أعلم إنساناً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، فقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر؟». أعرض القوم عنه، ولم يأبهوا به، فقام علي بن أبي طالب على صغر سنه، وقال: «أنا يا رسول الله عونك، أنا

---

(1) سورة الحجر، آية: 94.
(2) سورة الشعراء، آية: 214-216.

حرب على من حاربت».

انصرف المدعوون من بني هاشم من بيت رسول الله، وكان قد دعاهم إلى طعام في بيته، وهو يتابع نشر دعوته إلى قومه الذين خذلوه وسخروا منه، فنادى أهل مكة جميعهم من على الصفا، وقال لهم: «يا معشر قريش، فأقبلوا عليه يسألونه ما به؟ فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل، أكنتم تصدقونني؟ قالوا: نعم، أنت عندنا غير متّهم، وما جرّبنا عليك كذباً قط، قال: فإنني أنا نذير لكم بين يدي عذاب شديد، أن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وأني لا أملك لكم من الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيباً، إلاّ أن تقولوا: لا إله إلا الله».

فردّ عليه أبو لهب غاضباً: تباً لك، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت بحقه سورة اللهب..

رفع زعماء قريش أمر رسول الله إلى عمه أبي طالب قائلين له: «يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإمّا أن تكفه عنا، وإمّا أن تخلّي بيننا وبينه». ولكن أبا طالب ردّهم رداً جميلاً، وقال لهم قولاً كريماً، فانصرفوا عنه.. واستمر النبي في نشر دعوته بين الناس، حتى ذاع صيته، وكثر الحديث عنه، وعن دينه الجديد، وعمّا أصاب آلهتهم ودينهم من مهانة وتحقير على أيدي المسلمين..

عاد زعماء قريش إلى أبي طالب مرة أخرى يطلبون منه أن يكف يد محمد عنهم، قائلين له: «يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وقد استنهيناك من ابن أخيك، فلم تنهه عنّا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين»..

فالأمر في منتهى الجدية، فهم يريدون إهلاك النبي محمد ﷺ وكل من يحميه أياً كان. أعلم أبو طالب محمداً بالأمر، وقال له: «يا ابن أخي لا تحملّني من الأمر ما لا أطيق». ظن رسول الله أن عمه قد ضعف عن نصرته، فقال لعمه وهو يحاوره، قوله المأثور: «يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في

يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله، أو أهلك دونه». .

وأخذته العبرة وبكى. فقال له عمه: «يا ابن أخي، قلْ ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً» وبدأت الحرب الخفية بين محمد عليه الصلاة والسلام وعشيرته، وبخاصة الفرع الأموي من أولاد عبد شمس بن مناف، وتحرك السفهاء من معارضيه، فكذبوه، وآذوه، وحقّروه، واتهموه بالسحر والشعر، والكهانة والجنون، وألحقوا به وبأصحابه المهانة والأذى، حتى قال لهم وهو يطوف بالكعبة من كثرة ما غزوه، وتمادوا عليه: «أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح». .

واتحد المشركون كأنهم رجل واحد، وأحاطوا بمحمد يريدون قتله، والخلاص منه.

فقال لهم أبو بكر وهو يبكي: ويْحكم، أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، فانصرفوا عنه. ولكن محمداً لم يعبأ بهم، بل مضى لما أمره الله من دعوة التوحيد، يرفع شعار الإسلام: لا إله إلاّ الله، ويردد قوله تعالى: ﴿**قل سبحان ربي، هل كنت إلا بشراً رسولاً**﴾[1] أخذت قريش تؤذي المستضعفين من المسلمين، وتعذبهم أشد العذاب، وتنزل أقسى أنواع الاضطهاد في كل من اعتنق الإسلام، فكانوا يضربونهم، ويحبسونهم، ويعذبونهم بالجوع والعطش وحرّ الهاجرة، ومنهم من صُلِب وجُلِد، وكان الله يعصمهم أمثال بلال بن رباح، وعمار بن ياسر، وأبوه، وأمه، الذين قال لهم رسول الله: «صبرا آل ياسر إن موعدكم الجنة»، ومات أبو عمار من شدة التعذيب، وقتل أبو جهل سميّة بحربة كانت بيده، فكانت أم عمار أول شهيدة في الإسلام.

وعمّ نور الإسلام وتعاليمه أنحاء الأرض، وقد حمل لواءه رجال أشداء عظماء، تمكنوا من تحقيق انتصارات متوالية على قريش وغيرها، ومن عقد صلح الحديبية، وضمان قريش من عدم الاعتداء.

---

(1) سورة الإسراء، آية: 93.

وفي السنة الثامنة للهجرة (629 م)، فكّر الرسول الكريم بإرسال دعوات إلى ملوك الساسانيين والبيزنطيين، وإلى أمراء غسان واليمن والحبشة، يدعوهم جميعاً إلى الإسلام لأنه بُعِث لكل العالمين، فقد خاطب أصحابه بقوله: «أيها الناس، إن الله بعثني رحمة للناس كافة، فلا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريون على عيسى ابن مريم، قال أصحابه: وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله؟ قال: دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضي وسلّم، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه، وتثاقل».

ثم أُرسِلت الوفود إلى كل الجوار من عرب أو عجم، واختلفت الردود، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وكان لا بد من قتالهم لرفع راية الإسلام ونشر تعاليمه. . . .

نزول الوحي:

نزل الوحي جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ، بشكل منفصل أو متصل.

وكان الوحي يتم على شكل حوار عُلْوي بين ذاتين: ذات تتكلم بلسان الله عز وجل تأمر وتنهى، وذات مخاطبة مأمورة تتلقى الأوامر لتبلّغها إلى بني البشر. قال تعالى: **﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلاّ وحْيا أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء، إنه عليّ حكيم﴾**[1].

وقد حدثت عائشة أم المؤمنين عن الوحي وكيفية نزوله على الرسول، فقالت: «أول ما بدىء به رسول الله من الوحي: الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيحنث فيه»[2].

وقد صوّر المصطفى طريقة نزول الوحي بقوله: «كان أحياناً يأتيني مثل

---

(1) سورة الشورى، آية: 51.
(2) صحيح البخاري.

صلصلة الأجراس، وهو أشدّه عليّ فينفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني، فأعي ما يقول» وقد أجمع العلماء والمفسرون على أن الوحي كان ينزل على محمد رسول الله في صور مختلفة. فكان يأتي كالرؤيا في المنام، وهي رؤيا صادقة كفلق الصبح، أو أنه كان يسمع صوته دون أن يراه، أو أنه يظهر على شكل رجل يخاطبه بوعي وثبات، أو أنه كان يأتي كصلصلة الأجراس، أو أنه كان يظهر في صورته التي خلقه الله عليها، وكيفما كان شكل نزوله ثقيلاً أم مطْمئناً، فقد كان النبي يحرص على وعي كل ما يوحى إليه، فقد كان له الوعي الكامل قبل الوحي وفي أثنائه وبعده بعيداً عن كل التخيلات أو التهيؤات، وكان يأمره الله تعالى بقوله: **﴿يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزِل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته، والله يعصِمك من الناس﴾**[1].

وقال كذلك: **﴿قل ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي، إن أتبع إلاّ ما يوحى إليّ﴾**[2].

لقد بلّغ رسول الله كل ما أوحي إليه من ربه، وكان محمد الأمين لا يأمر إلا بما أمره الله، ولا ينهى إلا بما نهى عنه الله، فكان خير من بلّغ، وكان الله خير الشاهدين، لأن محمداً لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى...

7 ـ الهجرات في الإسلام:

تعرّض رسول الله ﷺ وصحبه إلى مضايقات شديدة، واضطهاد وأذى من قريش. ولم يستطيعوا دفع هذا الأذى عنهم لقلتهم، وضعف حيلتهم في بداية أمرهم.

فأذِن لهم الرسول بمغادرة مكة هرباً بدينهم إلى أي بلد فيه الصدق والأمان، فتعددت الهجرات وكان أولها:

---

(1) سورة المائدة، آية: 67.
(2) سورة يونس، آية: 15.

(أ) هجرة الحبشة الأولى:

تمت في السنة الخامسة للبعثة الموافقة (614 م)، عندما أشار النبي على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة لأن فيها مَلِكاً لا يُظلَم عنده أحد، قائلاً لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه». خرج المسلمون إلى أرض الغربة، مبتعدين عن أهلهم وديارهم، وكان عددهم أحد عشر رجلاً وأربع نساء، وكانت هذه أول هجرة جماعية في الإسلام، ولم يسلموا من ملاحقة قريش لهم، فقد أوفدت مبعوثين منها[1]، محملين بالهدايا إلى النجاشي امبراطور الحبشة، من أجل رفض وفد المسلمين وإرجاعه، ولما مثلا بين يدي الملك قالا له: «أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم، وعشائرهم، لتردّهم عليهم، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه».

سمع النجاشي حديثهما لكنه رفض تسليمهما من آوى إلى أرضه طالباً الحماية والأمان، قائلاً: «لا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، فلا أسلّمهم حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني».

واستدعى النجاشي المهاجرين إليه من المسلمين، وسألهم قائلاً: «ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا ديني، ولا دين أحد من هذه الملل؟».

تكلّم جعفر بن أبي طالب بحضرة النجاشي، قولاً في منتهى الجرأة والأدب، والبلاغة والمنطق، أوضح فيه المعاناة من الجاهلية وفجورها، وأوضح مبادىء الإسلام وعقيدته، وبيّن القهر الذي يتعرض له هؤلاء القوم مع نبيهم

---

(1) المبعوثان من أهل مكة: عمرو بن العاص بن وائل، وعبد الله بن أبي ربيعة.

المرسل، وهم في وطنهم بين أهلهم، والأمان والإطمئنان في بلد صدق، وعند ملكٍ لا يظلم عنده أحد، قائلاً: «أيها الملك، كنّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله فينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة، والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله، ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصيام، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألّا نظلم عندك، أيها الملك».

فردّ عليه النجاشي: «وهل معك مما جاء به عن الله من شيء؟».

أجابه جعفر: نعم. وقرأ عليه بداية سورة مريم من القرآن الكريم. فبكى النجاشي وأساقفته، حين سمعوا ما تلي عليهم، وقال الامبراطور: «إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة»، ثم خاطب رسولي مكة، قائلاً لهما: «انطلقا فلا والله لا أسلِّمهم إليكما» وخاطب المسلمين بقوله: «اذهبوا. . . فأنتم بأرضي آمنون، من سبّكم غرم (وكررها ثلاثاً) ما أحب أن لي جبلاً من ذهب، وأني آذيت رجلاً منكم». .

مكث المسلمون مدة ثلاث شهور في بلاد الغربة، ولما وصلتهم أخبار قوة المسلمين، ومنعتهم بإسلام عمر بن الخطاب وعزتهم به، وأن المشركين كفّوا عن أذاهم. عادوا إلى وطنهم الذي لم يؤمن لهم الراحة والاستقرار، فوجدوا ما لم يكن بالحسبان، فقريش ما تزال على غيّها وضلالها، فقد زادت من تعذيب

المسلمين من صحابة رسول الله، ومقاطعتهم، وحصارهم..

(ب) هجرة الحبشة الثانية:

وفي السنة التالية في السنة السادسة للبعثة، الموافق (615 م) تمت هجرة ثانية إلى الحبشة، بلاد الأمان والإطمئنان، وكان عدد المسلمين المهاجرين في هذه المرة (83) رجلاً من غير نسائهم وأطفالهم، وبقوا في بلاد النجاشي حتى بعد هجرة رسول الله وصحبه إلى يثرب..

(جـ) هجرة النبي إلى الطائف:

وفي السنة العاشرة للبعثة، حيث تتالت المصائب على رسول الله؛ فجاءت الأحزان في عام الأحزان، حيث توفيت زوجته خديجة ولها خمس وستون سنة، وبعد فترة وجيزة من وفاتها توفي عمه أبو طالب وله بضع وثمانون سنة، ونال منه زعماء قريش، حتى قال رسول الله: ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب. وكان حزيناً، لذلك فكّر في الخروج إلى قبيلة ثقيف في الطائف، يلتمس منها النصرة والمنعة، دون أن يعلم المسلمون بذلك، واصطحب معه زيد بن حارثة، وأقام فيها مدة دعاهم فيها إلى الإسلام، فلم يستجيبوا بل ردّوا عليه ردّاً قوياً، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، وأخذوا يسبونه ويرمونه بالحجارة حتى اخضبت نعلاه بالدم، وكان زيد يحميه بجسده، حيث أصيب بجراحات في رأسه، وعاد حزيناً إلى مكة.

وقد كان الخلاف بين أهل الطائف وأهل قريش في مكة بسبب التنافس التجاري والديني أيضاً. ولكن الله أكرمه في هذا العام الحزين، برحلة جوية فريدة من نوعها، فرّج فيها عنه كربه وحزنه، فقد أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

(د) **الهجرة النبوية إلى يثرب**[1]:

في السنة الثالثة عشرة للبعثة الموافقة (622 م)، وفد إلى رسول الله من يثرب جمع من الذين أسلموا من أهلها، (وكان عددهم 73 رجلاً وامرأتين)، جاؤوا لمبايعة رسول الله، وعاهدوه على حمايته، ودفع الأذى عنه إن هو هاجر إلى بلدهم يثرب. أمِر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى يثرب مع صديقه «أبي بكر» وأعدّ لها، فعلمت قريش بنبأ الهجرة إلى يثرب، فعقد أهلها جلسة طارئة في دار الندوة، واتخذوا فيها قراراً بمنع محمد عليه الصلاة والسلام وصحبه من الهجرة بأي وسيلة، بل قرروا الفتك به والتخلص منه. لكن رسول الله علم بمكرهم وخداعهم، فطلب من عليّ بن أبي طالب أن ينام في فراشه، ويتّشح بردائه الأخضر، ليتوّهم رجال قريش الغادرون أنه نائم. وفعل علي الفدائي المسلم، وأخفقت قريش، حيث خرج محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وأبو بكر من بينهم متوجهين إلى غار ثور قرب مكة، وبقيا هناك مدة ثلاثة أيام.

اقتفى أثرهما زعماء قريش يريدون قتل محمد، ومنعه من الهجرة، فوصلوا إلى الغار، حيث كان الرسول وصاحبه. ولكن الله أعمى بصيرتهم، وعادوا من حيث جاؤوا.

توجه رسول الله إلى يثرب مع صاحبه، ولحق بهما «سراقة بن مالك» يقتفي الأثر في رمال الصحراء، ولكن الله نجاهما منه، إذ غاص مع جواده في الرمال أكثر من مرة، وهو يستغيث وينادي: يا محمد، أغثني، وآمن بمحمد وبرسالته، وأعلن إسلامه فوراً، واصل محمد ﷺ وصاحبه باتجاه يثرب حتى وصلا إلى «قباء» قرب يثرب، وفيها بني أول مسجد للإسلام وصفه الله عز وجل بأنه المسجد الذي أسس على التقوى وقد اتخذه رسول الله مسجداً، وسكناً له في بداية الأمر. وصل محمد عليه الصلاة والسلام إلى يثرب يوم الاثنين في 12 ربيع الأول من العام الثالث عشر للبعثة الموافق 24 أيلول عام 622 م، وله ثلاثة وخمسون عاماً.

فرح أهل يثرب بقدوم محمد وصاحبه الصديق إلى مدينتهم، وتلقوا هذا

---

(1) يثرب: مدينة بناها يثرب بن ميخائيل من العمالقة..

النبأ بسرور بالغ، وخرج جميع من في المدينة لاستقباله بالأهازيج والأناشيد.. فهو القائد الذي رغب في حمايتهم وأنس في جوارهم، وقد اختارهم، وفضلهم على قومه الجاحدين، وقد شدّه الحنين إلى يثرب لأن له فيها حَسَبٌ قديم: هم آل النجار، وأخوال جده، وفيها مثوى أبيه، وله فيها ذكريات وفاة أمه، وله فيها أصدقاء ومعارف كثيرون، من أيام التجارة، وله فيها من أسلم من أهل يثرب الذين ينتظرون مجيئه بفارغ الصبر، وكان دائماً يدعو ربه بقوله:

«اللهم إنك قد أخرجتني من أحب أرضك إليّ، فأنزلني أحب أرض إليك».

وصل يثرب راكباً ناقته، والأنصار يحيطون به كالهالة، وهو يمر بينهم وسط الأهازيج والأفراح، وكان كلما مرّ بقبيلة أو عشيرة دعته إلى النزول عندها. وكان محمد ﷺ يخاطبهم بأمر الناقة، قائلاً: «خلّوا سبيلها فإنها مأمورة». فهو لا يريد إثارة مشكلة ما بين قبيلة وأخرى، وصلت الناقة المسيّرة إلى منازل بني مالك بن النجار، فبركت أمام مربد يملكه غلامان يتيمان من الأنصار: سهل وسهيل ابنا عمرو، وكانا في وصاية معاذ بن عفراء، فوهبا هذا المربد لرسول الله، ولكنه ابتاعه منهما ودفع لهما مبلغ عشرة دنانير. ولما بركت الناقة حمل أبو أيوب الأنصاري «خالد بن زيد» رحل رسول الله إلى منزله، حيث حلّ ضيفاً عليه، وبقي في داره مدة سبعة شهور، حتى انتهى الأنصار والمهاجرون من بناء المسجد، وانتقل إليه..

أصبح يعيش في طمأنينة على نفسه وعلى المؤمنين به في يثرب، وزادت دعوته، وانتشر دينه بين العرب، وعمد إلى تبليغه إلى سائر العرب، وملوك العجم..

بدأ رسول الله يمارس أعمال التنظيم الاجتماعي والتشريع في يثرب، كان أولها المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، حتى بلغت المؤاخاة حد سنّ نظام التوارث بين المتآخين حيث دعت الحاجة إلى ذلك، وقد نسخه الإسلام فيما بعد..

المصادر والمراجع

1 ـ القرآن الكريم.
2 ـ الكتاب المقدس: العهد القديم، والعهد الجديد.
3 ـ قاموس الكتاب المقدس.
4 ـ البداية والنهاية: ابن كثير.
5 ـ الملل والنحل: أحمد الشهرستاني، تحقيق محمد سعيد كيلاني.
6 ـ قصص الأنبياء: عبد الوهاب النجار.
7 ـ الديانات القديمة: محمد أبو زهرة.
8 ـ محاضرات في النصرانية: محمد أبو زهرة.
9 ـ الأحاديث القدسية: ـ منشورات دار النصر ـ.
10 ـ مباحث في علوم القرآن: د. صبحي الصالح.
11 ـ صحيح البخاري: أحاديث نبوية.
12 ـ التنبيه والاشراف: المسعودي.
13 ـ مروج الذهب: المسعودي.
14 ـ سيرة ابن هشام: عبد السلام هارون.
15 ـ مغامرة العقل الأولى: فراس السواح.
16 ـ تاريخ العرب والإسلام.
17 ـ تاريخ الحضارة: حاطوم، طربين، عاقل، مدني.
18 ـ تاريخ اليونان: علام.
19 ـ تاريخ الأديان: د. محمد الزحيلي، د. يوسف العش.
20 ـ تاريخ العرب واليهود: أحمد سوسة.

21 ـ حضارة العرب: غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر.
22 ـ طبقات الأمم: جرجي زيدان.
23 ـ محاضرات في حضارة الشرق الأدنى القديم: د. يعقوب بكر.
24 ـ الحضارات: لبيب عبد الساتر.
25 ـ تاريخ الحياة: ماك الستر، ترجمة د. فؤاد العجل.
26 ـ ماني والمانوية: د. سهيل زكار.
27 ـ فلسفة تاريخ محمد: محمد جميل بيهم.
28 ـ روح الدين الإسلامي: عفيف طبارة.
29 ـ تفسير الجلالين.
30 ـ الإنسان بين العلم والدين: شوقي أبو خليل.
31 ـ سلسلة حياة الشعوب: اليابان، الهند، الصين،
32 ـ اعداد من مجلة المعرفة المصورة.
33 ـ اعداد من مجلة العربي.
34 ـ المائة الأوائل: مايكل هارت.
35 ـ الديانة الفرعونية: واليس بدج، ترجمة: نهاد خياطة.
36 ـ اليهودية واليهود: د. علي عبد الواحد وافي.
37 ـ التلمود، تاريخه، وتعاليمه: ظفر الله خان.
38 ـ الكنز المرصود في قواعد التلمود: أوغست روهلنج.
39 ـ الإله اليهودي: ك. غ. يونغ، ترجمة: نهاد خياطة.
40 ـ ملف إسرائيل: د. روجيه غارودي.
41 ـ من هو اليهودي؟: إسحق دويتشر، ترجمة: نجاة قصاب حسن.
42 ـ وثيقة الصهيونية في العهد القديم: د. جورجي كنعان.
43 ـ أمجاد إسرائيل في أرض فلسطين: د. جورجي كنعان.
44 ـ سقوط الامبراطورية الاسرائيلية: د. جورجي كنعان.
45 ـ إمبراطورية الخزر وميراثها: آرثر كوستلر، ترجمة: حمدي متولي.

تم الكتاب بعون الله.

محتويات الكتاب

الباب الثاني عشر: العرب قبل الإسلام في الجزيرة العربية:

الباب الثالث عشر: اليهودية «الموسوية»:

الباب الرابع عشر: النصرانية:

الباب الخامس عشر: الدين الإسلامي: